عالم بلا شمس II

SUNLESS WORLED

رواية

كهف التنانين

CAVE OF DRAGONS

أبانوب زرزور

إبهار للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

كهف التنانين

أبانوب زرزور

رواية

مراجعة لغوية: مها سيد

إخراج داخلي: مينا تادرس

تصميم الغلاف: وحيد محمد

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

رقم الإيداع: 2023/25598

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-8990-15-7

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرِّض صاحبه للمساءلة القانونية.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

+20 109 919 7450

Info@ebharbook.com
www.Ebharbook.com

Strand block - Abdein square
down town - Cairo - Egypt.

حينما تغيب الشمس فما من شمعةٍ قادرة على تعويض غيابها.

جورج آر آر مارتن

إهـــــــــــداء

إلى مَن يعشقون الفانتازيا ويذوبون في الخيال.

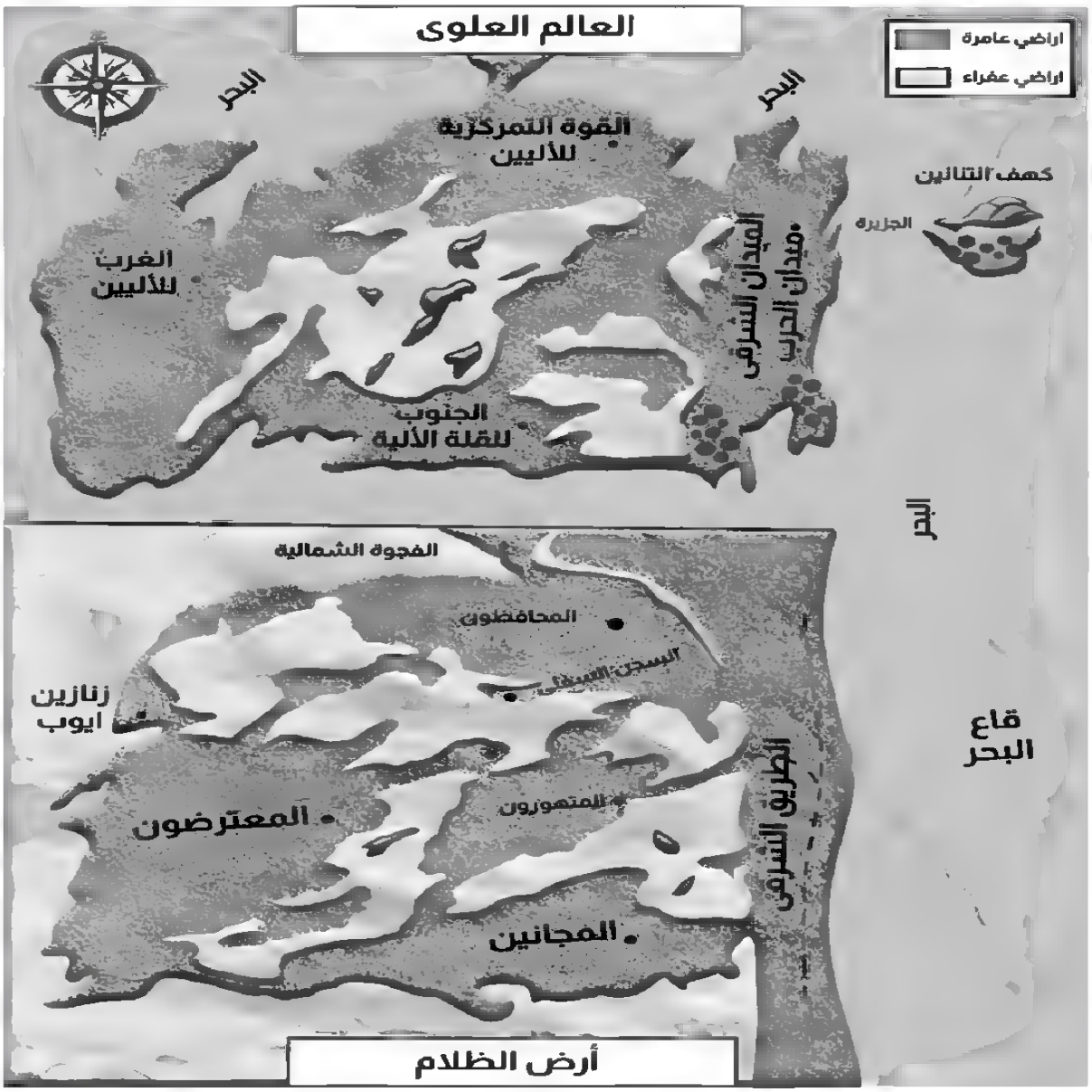

تبلغ مساحة العالم العلوي ثلاثة أضعاف مساحة أرض الظلام.

الفصل الأول

تحت الأنقاض

سعادة مؤقتة

كانت صرخةً تدوي في الأرجاء، لكنها صرخةٌ تختلف عن تلك التي أعرفها ويعلم بها الجميع؛ فالثانية كالإعصار مخيفة ولا تترك خلفها سوى الدمار والهلاك، أما عن تلك الصرخة فكانت صغيرة مسحوبة ببكاءٍ بالكاد يُسمع، لقد كان بكاءً فَرِحًا؛ حيث غمر الجميع بسعادةٍ على يقينٍ بها أنها سعادةٌ مؤقتة، ويعود الكل إلى حيث ما توقفنا من الكَرْب الذي أُلحِق بنا.

لقد كانت صرخة ابني الأول؛ حيث أنها أول ما خرجت من فِيهِ وسمعناه، إن اليوم هو يوم ولادته من حبيبتي وقرة عيني مريم التي تزوجتها منذ عامٍ ونصف.

غمرتنا السعادة جميعًا، لقد كان ذلك بمثابة أول فرحةٍ تحدث لنا منذ انتصارنا بالحرب العظمى؛ ذلك الانتصار الذي لم نسعد به إلا ثوانٍ قليلة.

هذا ما كنتُ أفكر فيه حتى انتشلتني من أفكاري قبل أن أغوص فيها الممرضة التي أتت بصحبة الدكتور الذي قام بجلب المولود لعالمه الجديد، حاملةً على ذراعيها إياه ملفوفًا بقماشٍ من القطن لتدفئته.

ناولتني المولود وحملته بين ذراعيّ وغادرت، وكانت تلك أول نظرة لابني متبادلة. نعم، أقول متبادلة مع علمي أنه لا يراني؛ فالرؤية الواضحة تحدث بعد مرور أربعة أشهر من ولادة الطفل، ولكنني أشعر بذلك، أشعر أنه يبادلني كل شيءٍ

الآن حين حضنتنه بين أضلعي.

أريده أن يبادلني تلك النظرات، ويبادلني ذلك الشعور، بل أريده أن يتحدث إلَيَّ ويقول لي: "لقد أتيت لمساعدتك في مسعاكَ يا أبي، لن أتركك.. وسنفعل ذلك سويًا".

وقبل أن أغرق في أفكاري انتشلني هذه المرة خالي "فهمي"، الذي كان جالسًا بجواري منذ البداية بسؤاله:

- ماذا ستسميه؟

نظرتُ له بنظراتٍ تائهةٍ لا تعرف وجهتها، ثم عدتُ إلى سؤاله لأجيبه إجابةً حمقاء:

- وما الفائدة من ذلك؟ هل سنبقى حتى يُنادى باسمه؟

فعقد حاجبيه وصرخ في وجهي وقال:

- إذن، لماذا سمحت بذلك من البداية؟

استعدتُ رشدي وقلت له بعقلٍ متزنٍ:

- لن أجعل ما حدث يجردني من شعور الأبوة؛ فالأطفال نعمة من عند الله.

فرد بإجابةٍ أكثر منطقية:

- إذن، لا تجرده هو أيضًا مما يحق له؟

نهضتُ من مكاني حاملًا مولودي، وقلت له في وسط صراخ الرضيع:

- سأذهب لأعطي يوسف لأمه.

اكتفى خالي بابتسامةٍ رزينةٍ رسمها على وجهه دون أن يقول شيئًا، فغادرته وذهبتُ بالرضيع إلى مريم.

***

رمت نظرها نحوي حين أبصرتني داخلًا الحجرة متحدثًا مع الطبيب الذي كان يجهز للخروج بعد انتهاء ما جاء لأجله، ثم غادر وتبعته الممرضة التي جاءت لي بالرضيع منذ قليل، ففرغت الحجرة ولم يبقَ سواي وزوجتي مريم.

نظرتُ نحوها ووجدتها على نفس تلك النظرة، لكنها نظرة مختلفة عما سبقها من نظرات؛ لقد كانت نظرةً مختلطةً بابتسامةٍ يملأها الحب والشعور بالفخر كأنها تريد أن تخبرني وتقول لي: "لقد أتيتك بما سيحمل اسمك، لقد جاءك أول مولود لكَ ليعطينا روح السعادة التي حُرمنا منها منذ عامٍ ونصف".

لكنني أراها سعادةً مؤقتةً، لن تطول أكثر من مجرد فرحة بمولودٍ جديد تستغرق فترةً أقصاها شهرين ثم يعود كل شيءٍ كما كان، وانتشلتني هي الثالثة من أفكاري بسؤالها:

- هل هذا الحدث الجلل سيكون سببًا في إنهاء الخصام فيما بيننا؟

وقبل أن أجيبها، صرخ الرضيع بين أذرعي كأنه يريد أن يقول لنا شيئًا لا يعرف التعبير عنه؛ بالتأكيد إنه جائع، أو لا يروق له خصام والديه.

فاقتربتُ بيوسف نحوها ودنوتُ منها وناولتها ابننا، وقلت لها:

- أنتِ مَن ترين أنه خصام.

أخذت مني الرضيع وحاولت تهدئته بأنها تغمره بحنانها الذي يشع من أحضانها، وقالت:

- إذن ماذا أنتَ ترى؟

رمقتها بنظرةٍ فيها الكثير من العتاب أتمنى أن تفهمه وأجبتها:

- أرى أن روحك تائهة ولا تدركين ذلك، أريد فقط أن تعود مريم التي أعرفها.

عقدت حاجبيها في غضبٍ وقبل أن تشرع في قول شيءٍ رفعتُ كفي نحوها ففهمت أنني لا أريد سماع شيءٍ وسكتت، وهممتُ بالخروج.

وعند باب الحجرة سمعتها وهي تُخرج ما بداخلها من كبتٍ قائلةً:

- بل أنتَ الذي لا تريد أن تتصالح مع نفسك، وتتقبل الهزيمة.

توقفتُ لوهلةٍ عند سماعي لهذه الكلمات الصارخة، ثم استأنفتُ خروجي وعدتُ لخالي الذي أراه جالسًا مع بقية عائلتي الحبيبة؛ لقد أتى ماجد ووحيد لكي يباركا لي للمولود، وجدتُ السعادة تغمر الثلاثة ويشعرون بالبهجة.

كم أنا ممتنٌ لذلك جدًا! إنهما فرحان لي رغم ألمهما الداخلي، الذي أشاركهما إياه؛ فكل منهما فاقدٌ لحبيبته؛ لأننا لا زلنا لا نعرف مكان سارة ودينا، ولم يعودا حتى الآن من الزمكان الآخر؛ فالجميع يتساءل أي زمكان آخر قد يكونان فيه ولا يعرفان العودة؟ أم أنهما ماتتا؟

لم ألحق أن أسعد وقتًا كافيًا بعودة أختي لي؛ فلقد عادت منذ عامٍ ونصف في وقتٍ عصيبٍ جدًا، حينما كان ذلك الوقت هو الذي من المفترض أن نعود فيه للأعلى.

اقتربتُ نحوهم وجلستُ بجوارهم بعد أن أخذاني أصدقائي بالأحضان والمباركة، ثم شرعنا في الحديث بمبادرتي بالبدء:

- ما الأحوال بالخارج؟

أجاب وحيد:

- إنها ذات أرض الظلام التي كنّا ولا زلنا نسكن فيها مع تغيير أنها أكثر دمارًا.

تبعه ماجد قائلًا:

- قبل الحرب كُنا نعيش في نعيمٍ مقارنةً بالوضع الحالي.

فقال خالي:

- دعوكم من ذلك ولا تجعلوا منه أهميةً تنسيكم بالفرحة التي تعم علينا.

نظرتُ نحوهم بنظراتٍ آسفةٍ نادمةٍ توحي بعدم شعوري بتلك الفرحة، فلاحظ الثلاثة ذلك فقال وحيد سائلًا:

- لِمَ لَمْ أعد أراك آدم الذي كان يتمتع بروح الدعابة وسط أحلك المحن؟

لا أعرف بِما أجيبه، رغم أن معه حق فيما قاله؛ لم أعد آدم السابق، ولم أعد أخرج معهم، ولكن ذلك كان بسبب أنني عالق مع مريم، لم يعد الأمر كما كان؛ فتدخل خالي متحذلقًا وقال:

- اذهبا أنتما للخارج وانتظراني، سألحق بكما وآدم.

كان يقصد بكلامه ماجد ووحيد.

فخرجا ودنا نحوي خالي وسأل:

- أما زال الأمر عالقًا بينك وبينها؟

أجبته:

- إنها تريد أن أتقبل الهزيمة التي لم تكن.

ردَّ:

- الجميع على علمٍ بأننا انتصرنا في تلك الحرب، لكنه كان انتصارًا لم نحقق فيه هدفنا.

قلت له في غيظٍ مكتوم:

- نعم، كان انتصارًا، لكنه أسوأ من ذلك؛ أردنا أن ننتصر لنقضي على العالم العلوي ونأخذ مكاننا الأحق بنا، وبدلًا من ذلك عُدنا أدراجنا إلى تحت الأنقاض.. وماذا؟ نسكن فيه مع العدو، العالم العلوي والعالم السفلي معًا في عالم بلا شمس.

خالي:

- هوِّن على نفسك يا آدم، الذي جعلنا أن نستطيع العيش هنا أكثر من مائة عامٍ سيجعلنا نعيش مائة عامٍ أخرى تلحق فيها أجيالنا.

صرختُ في غضبٍ عارم حاد الصوت:

- لكن الأمر الآن أصبح مختلفًا.

وبعد هذا الصياح ساد صمتٌ رهيبٌ، لم يجبني خالي بشيءٍ، وكان دوري هو السكون بعد الهياج؛ فاستعدتُ نفسي وقلتُ في هدوءٍ مختلطٍ بشجن:

- لا أعلم ما أفعله لكي تعود لنا مريم.

دنا خالي أكثر وربَّت على كتفي وقال:

- لا تنسى أنك تعلم أن ما يحدث لها هو بسبب السحر الأسود الذي استخدمته في سبيل انتصارنا، ولولاها ما كنتَ تستطيع أن تضع اللمسة الأخيرة التي كانت سببًا في الانتصار في آخر لحظة، لقد كانت لحظة بمثابة حلاوة روحٍ لنا.

أجبته:

- لا أنسى ذلك ولن أفعل مطلقًا، وهذا ما يجعلني ألا أتخلى عنها أبدًا مهما فعلت بي كما أن بعيدًا عن كل هذا فأنا أحبها.. أحبها جدًا؛ إنها زوجتي وأم ابني يوسف، لكنني لا أعرف سبيلًا في أن أجعلها تتخلص من ذلك الشر الذي يسيطر على عقلها.

أجابني في وقارٍ وحكمةٍ، وقال:

- اذكر الله واجعلها تذكره معك؛ إنه رحيم ولا يترك أبناءه، ولا تنسى أن الوضع الآن مختلف؛ فاليوم وُجِدَ الرابط الذي سيوطد العلاقة بينكما.. ابنكما.

نظرتُ له بنظراتٍ مليئة بالصلوات والأمنيات، فأردف:

- كما أنني أريدك أن تتخطى موضوع عدم تحقيق هدفك الذي كنتَ تسعي إليه، وتتقبل الحياة الجديدة.

رفعتُ كفي وتحدثتُ هذه المرة بطريقته التي كانت منذ قليلٍ وقلتُ له:

- هذا يعني الاستسلام، وأنا لن أستسلم.

عقد خالي حاجبيه متسائلًا في تعجب:

- ماذا تقصد؟

أجبته متحذلقًا بنظرةٍ مليئةٍ بالألغاز:

- دعنا نفرح بالمولود، كما أننا تأخرنا على وحيد وماجد.

* * *

الهدف

خرجنا إلى خارج المسكن وفي طريقنا إلى ماجد ووحيد.

- مبروك، أليست تلك الكلمة التي تقال في مثل هذا الموقف؟

نظرتُ نحو مصدر الصوت؛ فوجدته "نوح" قائل هذه العبارة، كان عابرًا في الطريق ابتسمتُ وقلتُ له:

- إنك تخطيتَ هذه المرحلة يا نوح، إنك تعلم الآن متى وكيف وأين تُقال الجمل بشعورٍ يعبر عنها.

فدنا نحوي وبسط ذراعيه وأخذني بالأحضان، فقلتُ له:

- أرأيت؟ كما أنك تعلم الإحساس ولغة الجسد.

ثم بادلته الشعور فابتسم، فأشرتُ له بإصبعي وقلتُ:

- والضحك أيضًا.

فضحك نوح هذه المرة بصوتٍ عالٍ، كانت هذه أول مرة يفعل روبوت هذا الفعل.

فقال ماجد الذي كان اقترب نحونا ومعه وحيد على الجانب الآخر:

- لقد تطورنا كثيرًا.

فتبعه وحيد:

- قريبًا سيكون هذا حال كل المرتدين.

ضحك أربعتنا ولاحظتُ خالي يقترب نحوي، ثم دنا أكثر نحو أذني وهمس:

- أرأيت؟ إنها حياة جديدة ستكون لطيفة إلى حدٍ ما مع مَن سيشاركوننا إياها.

بادلته الهمس وقلت له:

- ليس لديَّ مشكلة مع المرتدين يا خالي.

فقال في نفس الهمس:

- سيغدون مثل المرتدين يا آدم.

قلت:

- أشك.

ثم سمعنا صوت نوح الحاد يقول:

- أهناك سرٌ؟

بعد تفكيرٍ عميق أجبته:

- في الحقيقة.. نعم.. هناك سر.

ثم صمت الجميع مثلي كأنهم حسّوا بالحرج، ولكن في الحقيقة لم أقصد ما فهموه؛ بل كنت أقصد شيئًا آخر، فقلتُ لهم جميعًا:

- لكنني أريد أن أشاركه معكم.

فتحولت ملامح وجوههم إلى الفضول.

كان الجميع منتظرًا ليعرف ماهية السر الذي سأشاركه معهم بعد قليل، وبعد تفكيرٍ عميق تحدثتُ:

- أريد أن ألم شمل العائلة مرةً أخرى.

ظهرت على ملامحهم علامات الأسف والشجن، وهذا يعني أنهم فهموا ما أقصده؛ فسأل خالي:

- ولكن كيف ذلك؟

اغرورقت عينا كل من وحيد وماجد، ونوح كان مُنصِتًا فأجبتُ:

- لقد مر عامٌ ونصف ولن أتمهل أكثر من ذلك.

فقال ماجد:

- ولكن الوضع الآن مختلف، وأنتَ أكثر مَن يقول ذلك.

أجبته:

- وسيظل الوضع بالأعلى هكذا.. ولن يتغيّر، كما أننا لن نعيش مائة عامٍ أخرى لنفكر في العودة للأعلى مرةً أخرى.

سأل وحيد متمسكًا بذرة أملٍ صغيرة:

- هل لديك خطة؟

حدقتُ في عينيه بنظرةٍ ثاقبة حادة تملك مدى طويلًا للغاية، وقلتُ في تمعن:

- نعم!

اقترب نحوي خالي وقال:

- هذا آدم السابق الذي نعرفه جميعًا.

فقلتُ:

- إنني أعلم بذاتي جيدًا، لن تحتمل أن تعيش فترة طويلة في اكتئاب، عاجلًا أم آجلًا ستتوق شوقًا لما تعشقه.

وهنا تدخل نوح وقال:

- إنها المغامرة، أليس كذلك؟

ابتسمتُ له ثم أردف:

- ولكن ما هي خطتك وأنت تعلم أن هذه المرة سنواجه عدوًا مختلفًا عن السابق؟ إنهم ليسوا بروبوتات.

أجبته بعد أن تنفستُ الصعداء:

- أعلم ذلك جيدًا، وهذا ما جعلني أصبر على ذلك عام ونصف.

انعقد حاجبا خالي واستنكر قائلًا:

- إياك أن تقول أنك تريد أن تعود للأعلى مرةً أخرى!

نظرتُ له بنظرةٍ أخرى ثاقبة تحمل وراءها الكثير، وقلت له في تمهل:

- هذا لا يتضمن هدفي في لم شمل العائلة؛ إن العلاقة بين هذا وذاك علاقة عكسية، ولكن هذا لا ينفي رغبتي في صعودنا مرةً أخرى.

اندهش الجميع مما تفوهتُ به للتّو؛ فما قلته كان مِن أخطر المخاطر.

فسأل ماجد:

- إذن، ما الذي في جُعبتك؟

تبعه وحيد:

- قل لنا سرك، نحن أكثر ما نتوق شوقًا لتحقيق ذلك الهدف، إنه هدفنا جميعًا.

أخذتُ إلى صدري نفسًا عميقًا ثم أخرجته في زفيرٍ طويلٍ وقلت:

- أريد أن نتجه إلى الغرب.

فنظر نوح إلَيَّ بنظرةٍ توحي بالاندهاش وسأل في تعجب:

- الغرب؟! لماذا مدينة أيوب؟

وجّهتُ بصري نحوه وقلت:

- لا أقصد الغرب هذا، ثم إنها لم تعد مدينة أيوب.

فسأل:

- هل تقصد...

أجبته:

- نعم، أقصد الصعود للأعلى، وهذا يتضمنك في الخطة يا نوح.

فسأل خالي:

- لماذا الغرب؟

أجبته في ثباتٍ:

- لأن الغرب كان بداية ما نحن فيه الآن.

انعقد حاجبا خالي متسائلًا:

- كيف ذلك؟

تبعه نوح:

- وماذا تقصد في قولك أن هذا يتضمنني؟

أجبتهم قائلًا في نظرةٍ تحمل الكثير من النوايا:

- اسمعوني جيدًا، هدفنا الآن أصبح مختلفًا؛ الهدف الأسمى الذي أريد أن أحققه هو لم شمل العائلة، وهذا يتضمن بحثنا عن سارة ودينا.

كان وقع الجملة على أذنيّ ماجد ووحيد كإحياء أملٍ مرةً أخرى بداخلهم كان شبه منعدم، لقد شعرتُ ما بداخلهم؛ فمريم لا تختلف عنهما كثيرًا، فهي أيضًا كأنها لم تعد موجودة معنا مثلهما، إنها في عالمٍ آخر لا تعرف فيه ذاتها.

ثم أردفتُ:

- إننا سنسافر عبر الزمن.

* * *

ظل الماضي

- ولكن كيف؟! إنها كانت بمثابة آخر وسيلة للسفر عبر الزمن هي التي أخذتها دينا وسارة.

كان نوح مَن قال هذه الجملة كما توقعتُ إنه سيقولها، فأجبته:

- أليس من المفترض أن تكون في الغرب سفينة كما قلتَ لنا، ثم تم تدميرها واستخلصوا منها تلك الآلة المذكورة، كما أوضحتَ لنا.

أجاب نوح:

- بلى، بالضبط.

قلتُ:

- إذن، سنذهب إلى تلك السفينة المدمرة، لا بد أن يكون هناك آلة أخرى لم يكن يعلم بها جماعة الغربيين المرتدين الذين دلّوك على الآلة، لا أصدق أن أعداءنا في السابق لم يكن لديهم آلة أخرى مثل هذه.

قال خالي ساخطًا:

- وهنا تأتي اللحظة التي ستصعد فيها للأعلى مرةً أخرى.

فقلتُ بحذر:

- ولكن لهدفٍ مختلف، تذكروا هذا جميعكم.

سأل ماجد:

- متى ستبدأ الرحلة؟

فتبعه وحيد:

- هل الآن؟

أجابهما الخال:

- أعلم ما تشعران به، وأعلم توقكما لهما، ولكن هذا التعجل لن يعود لنا بفائدةٍ في أمورٍ خطيرة مثل هذه؛ إننا نواجه عدوًا مختلفًا هذه المرة.

فتحدثتُ:

- ولهذا لن نذهب جميعنا، لا أستطيع أن أترك أرض الظلام بدون أيدٍ أمينة، وخالي هو أنسب شخصٍ لهذه المهمة، وهذا يتضمن مساعديه أيضًا.

وعند الكلمة الأخيرة نظر وحيد وماجد كل منهما للآخر وقبل أن يقولا شيئًا أردفتُ:

- لن أعرض حياة آخرين للخطر، سأذهب ونوح لعلمه بالغرب وبالمكان الذي ذهب إليه من قبل، كما أن قلة العدد سيخدمنا ويجعلنا ننفذ المهمة في وقتٍ قليلٍ بخلاف كثرة العدد.

***

لقد أتى الليل، وذهب الجميع إلى مخدعه، وقصدتُ غرفتي اطمأننتُ على زوجتي والطفل، وبعد الجلوس معهما قليلًا تركتهما في نومهما المضطرب، ثم انتقلتُ إلى مخدعي

وأخرجتُ حاسوبي لأفعل ما كنتُ أفعله دومًا قبل الحرب.

كم أتوق لهذا! لم أجلس بمفردي أكتب مذكراتي منذ عامٍ ونصف، إنني أحتاج لهذا الآن؛ فلا أعلم صعودي هذه المرة بعودةٍ أم بلا عودة، فأحتاج أن أدّون كل ما حدث ولم أكتبه بدءًا من صعودي في المرة التي صعدتُ فيها لأجلب الكتاب، مرورًا بانتصارنا الذي لم يحقق فوزه بالغنيمة، حتى يومنا هذا وحالنا هذا الذي لم يتغير ونعيشه كما في السابق، بل أكثر دمارًا وأحلك ظلامًا.

وانغمرتُ في الكتابة حتى انتصف الليل، ووصلتُ عن تلك اللحظة التي بدلت حالنا، تلك اللحظة التي كانت بمثابة النقطة الأحلك سوادًا في حياتنا.

تلك اللحظة التي جعلتنا نعود لأرض الظلام تحت الأنقاض مرةً أخرى، بل ونتشاركها مع أعدائنا.

إنها اللحظة حين خرج ذلك التنين بجناحيه الكبيرين من البحر.

وهنا في هذه اللحظة التي وصلت فيها لتلك اللحظة شرعتُ أكتب وأصف بأدق التفاصيل الماضي الذي نعيش في ظلّه حتى الآن.

فكتبتُ:

دبَّ داخل قلوبنا الخوف والرعب مما رأيناه، فما أبصرناه للتو بمثابة خطر أكبر شرًا وتهديدًا مِن ذلك الذي نحاربه من أكثر من مائة عام.

لقد شاهدنا للتو تنينًا مجنّحًا يخرج من الماء، يهز زئيره الأرجاء، لقد تشتت الشمل منهم مَن يركض.. ومَن يهرول.. ومَن كان مندهشًا حتى الصدمة.. ومنهم غير مصدق أو غير مستوعب ما يجرى من حوله، فما حدث للتّو شيء نسمع عنه أو نقرأه في الأساطير الخيالية فقط، وها الآن يتجسد أمامنا في الواقع، الكل يتساءل خائفًا حتى الرعب كيف ذلك؟!

كيف يوجد تنينٌ هنا في عالمنا؟! كيف يكون هنا هناك تنين من الأساس؟ أليس هذه أسطورة؟ أليس التنين حيوانًا خياليًا ليس واقعيًا ولا يتواجد في عالمنا؟

كانت كل هذه الأسئلة تدور في أذهان الجميع.

تحولت الساحة من حالة حربٍ إلى حالة سكون ومنها -حين ظهر هذا التنين- إلى حالةٍ من الذعر والخوف والهروب، الهروب إلى لا مكان، الهروب إلى اللا شيء، فقط الهروب من ذلك التنين الذي أخذ يعلو ويعلو إلى السماء ويطير بجناحيه، ويعلو زئيره حتى دبَّ الرعب في قلوبنا.

وأخذ في الزئير حتى توهجت النيران بداخله، ثم شرع في النزول إلينا، وحين أصبح على مقربةٍ من الأرض نفث أجيجه؛ فأطلق النيران من فمه وأخذ يجول الأرض بنيرانه تاركًا خلفه

أرضًا محترقة.

بؤرًا مشتعلة.

روبوتات متفحمة.

أجسادًا مدخنة.

بشرًا أمواتًا.

فذلك التنين خلق الدمار بعد العودة.. الهزيمة بعد الانتصار.. النيران بعد الدخان.

هرولنا جميعًا لنتوارى من أنظار التنين المرعب، فكلٌ منّا أخذ جدارًا نصف متهدم أو مبنى تخرج منه ألسنة النيران ساترًا له ليختبئ خلفه، ليتفادى تلك النيران المميتة التي لن تترك شيئًا خلفها سوى الفحم.

وسط ذلك الذعر افترق الأحباء.. تباعد الأصحاب.. أخذ كل أحد طريقه الخاص به لينقذ نفسه.. فمن يقف لحظة واحدة سيكون الحرق مصيره.. لا بد وكل شخص يُبعد بقدر ما أمكن له عن نيران التنين الذي أخذ يجول الأرض فسادًا.. ويُحرق كل ما يقابله أمامه.

كنتُ ومريم في نفس الجهة؛ لأنها هي التي كانت بجواري حين خرج التنين، فركضنا نحو جدارٍ متهالك واختبأنا خلفه، وأمامنا في الجهة الأخرى كان نوح وخالي معًا يتورايان من التنين، ووحيد وماجد في جهةٍ ثالثة معًا.

انتظرنا حتى ينشغل التنين في وليمةٍ كبيرة حتى يتسنى لنا فرصةً لنهرب بعيدًا عنه وعن نيرانه المتوهجة.

وبعد قرابة الساعة من الاختباء هنا وهناك، استطعنا أن

نجتمع مرةً أخرى، كان قد ذهب التنين بعيدًا نحو البحر بعد أن ضمن وجبة ثمينة تكفيه لعدة ساعاتٍ أخرى لا نراه فيها؛ فيتسنى لكل ناجٍ سواء من بشر أو آليين أن يأخذوا ملجأً لهم، وهنا تضرع الجميع إلى ربه ألا يعود التنين مرةً أخرى ويذهب أينما كان.

***

كان قد مضى أكثر من ثلاثة أرباع النهار، حينها انتقلنا إلى داخل المباني التي لا زالت تحتفظ بكيانها -بأجناسنا المتنوعة- البشر من شماليين أو جنوبيين، والآليون من أعداء أو مرتدين، والخائنون من معترضين أو متهورين، وأخيرًا جماعة قراصنة البحر التي أتى بهم نوح ليساعدونا في حربنا بسفنهم، كنا معًا انقسمنا إلى عدة مبانٍ حيث أعدادنا الكثيرة لا تحتويها مبنى واحد، بالإضافة إلى أن المباني منها نصف متهدمة ومنها التي ما تزال بكيانها إلى حدٍ ما.

ليس هناك وقت لنتقاسم أو نُكِّن لأحدٍ ضغينة؛ فالمبنى الواحد يحوي جميع الألوان، ليس هناك وقت لوضع عدواتنا مع الآليين أمامنا، بل هذا الوقت لنضعها خلفنا ونتكاتف سويًا؛ فهذا خطرٌ يهدد جميع الأجناس والألوان.

لحسن الحظ أن جميع عائلتي كانت بنفس المبنى الذي أنا فيه، ولكن هناك شيئًا أحد لم يلاحظه.

أين أيوب؟ أين رؤساء الآليين؟ ريتاج، ورامز، وشهاب. هل احترقوا جميعًا؟ أم إن استطاع أيوب أن يهرول إلى أحد

المباني؟ هل تم نقل الثلاث رؤساء من قبل الآليين لينقذوهم من نيران ذلك التنين المتوحش؟

وهنا سمعتُ السؤال الذي سأله ماجد:

- هل نعود للأسفل للاحتماء؟

فقال وحيد:

- نعم، هذا أفضل حل؛ فذلك التنين سيعود حين يقرصه الجوع أو تتوهج نيرانه إلى أقصاها.

نوح:

- تعودوا للأسفل؟! بعد أن هزمناهم؟! هل ستفشل قضيتي؟

فقالت مريم:

- ليست هناك مشكلة إذا كان ذلك لفترةٍ مؤقتة حتى يذهب ذلك التنين بعيدًا.

خالي:

- لن يذهب هذا التنين بعيدًا لطالما علم بهذا المكان؛ فهذا المكان بمثابة كنز له، فلن يجد لحم بشرٍ في مناطق قريبة من هنا، والآليون بالنسبة له مجرد وسيلة ينفث فيها غضبه.

مريم:

- إذن، هل تعني بكلامك هذا أننا سننزل مرةً أخرى تحت الأنقاض؟!

قال خالي:

- نعم، سنعود لعالم بلا شمس، ولكن هذه المرة للأبد أو يموت ذلك التنين.

وهنا صرختُ وصحتُ فيهم جميعًا بأعلى صوتٍ وقلت:

- لن ننزل مرةً أخرى، لقد انتصرنا بحربٍ طاحنةٍ مميتة؛ فغنيمتنا كانت الظفر بالعالم العلوي.. عالمنا، ولن أجعل هذا التنين يفقدنا طعم الفخر بذلك الانتصار، لن أسمح أن يضيع هدفنا الذي سعينا مقاتلين أن نحققه هباءً.

وهنا ساد صمتٌ عظيمٌ بعد صياحي هذا، لقد كانت حالةً من السكون التام المخيف، لا أحد يعرف ماذا يقول، حتى كسر ذلك الصمت نوح بعد أن قال شيئًا؛ خُيِّل به له أنه جمع الحل الذي سيرضي الجميع:

- لِمَ لا نقتل ذلك التنين ونريح أنفسنا؟

أجاب خالي:

- أخشى أن أخبرك بأنه ليس هناك وسيلة لدينا تستطيع أن تخترق جلد التنين؛ فهذا ما أعرفه عن التنانين.

كنت على علمٍ بما قاله خالي، ولكن هذا لا يعني أنني أتفق معه في عودتنا للأسفل.

وهنا عرفتُ أنه صار انقسامًا بالفعل، ولكن هذا انقسام مختلف؛ فذلك الانقسام كان فيما بيننا نحن الأقربون، فهناك مَن يرجح فكرة العودة للأسفل لفترةٍ مؤقتة، كما يوجد مَن يرى أن نعود إلى الأسفل دون عودة إلى هنا، وأخيرًا ليس

هناك سوى نوح الذي يتفق معي؛ فهو لا يستطيع أن يتقبل تلك الهزيمة بعد ذلك الانتصار السحيق مثلي.

ولكن ما العمل؟ ماذا نفعل؟ فكل مَن كُتِبَ له النجاة حتى الآن عاجز عن فعل شيء.

***

لقد غابت الشمس، وأسدل الليل ظلامه، إنها أول ليلة نقضيها بعالم به شمس دون أن نرى غياب الشمس، كأنه مقدرٌ لنا أن نعيش في عالم بلا شمس حتى لو كُنّا بعالم به شمس، يا له من واقع مرير أحمق عنيد لا يريد سوى شقائنا!

لقد أتى الليل دون أن نستقر على أي شيءٍ سنفعله، لكنني بداخل أعماق نفسي أرى أن الرأي الأرجح هو رأيهم؛ فأعلم أنه ليس لدينا وسيلة نقتل بها التنين، كما أعلم أن التنين سيعود إلى هنا مرةً أخرى وذلك لوجود اللحم؛ وهذا يعني أن ما قالته مريم هو أرجح الآراء، عودتنا للأسفل بشكلٍ مؤقت حتى نجمع طريقةً نقتل بها ذلك الوحش ثم نعود مرةً أخرى.

رغم أنني لا أتقبل فكرة أن نقاتل مرةً أخرى بعد انتصارنا العظيم لنظفر بالعالم العلوي، فأرى في أعماق نفسي ليس علينا أن نواجه معركةً أخرى أكثر ضراوةً مما سبقت لنعيش بعالم به شمس، لقد اكتسبنا سابقًا حق ذلك بالفعل إنه واقع عنيد فعلًا.

وهنا عدتُ لفكرتي التي كانت قبل هذه الحوار، وتذكرتُ أيوب ورؤساء الآليين؛ فلقد أصبح الوضع الآن مختلفًا. نعم،

قبضنا عليهم لكن حين ظهر ذلك التنين قلب الدنيا رأسًا على عقب، ثم حدثت الفوضى وهذا جعلنا نغفل عن أيوب، وريتاج، وشهاب، ورامز والآن ليس كل الآليين تحت أنظارنا؛ فمنهم مَن ذهب إلى المباني الأخرى.

إنهم يمثلون الخطر الأكبر علينا، يجب أن يبقوا تحت أعيننا، فإن تمكنوا من إخفائهم عنا سيتمكنون من إصلاح الآليين وإعادتهم مرةً أخرى؛ ليقودوهم ضدنا مع شريكهم الجديد الخائن أيوب. والآن أجد أن هذا الوقت الذي ذهب فيه التنين بعيدًا هو أكبر فرصةً لنا لنخرج ونبحث عن هؤلاء المطلوبين.

دنوتُ نحو خالي وهمستُ له فيما يدور في عقلي، كما أخبرتُ نوح بذلك فهو القادر على إنجاز هذه المهمة في وقتٍ قليلٍ قبل عودة التنين؛ وذلك لأنه آلي مثلهم، فيجنّد تابعيه غير المعروفين وسطهم كأنهم منهم وليس من المرتدين وبذلك نعلم بمكان أيوب والبقية.

دار حوارٌ بين سداسيتنا ينص على أن يبدأ نوح في تجنيد تابعيه إلى عدة مبانٍ، كما يذهب نوح، ووحيد، وماجد لبضع مبانٍ أخرى، وأذهب وخالي، ومريم إلى المباني المتبقية؛ كان هذا بهدف البحث عنهم.

بالفعل شرعنا في تنفيذ ذلك.

وخرجنا حوالي ثلاثين فردًا نحن الستة، وعشرون مرتدًا، وأربعة بشريين يريدون المساعدة وانقسمنا.

ودلفنا إلى داخل المباني نبحث ونبحث في الآلاف

المتزاحمة المكتظة، ننتهي من مبنى ثم نقصد الآخر، حتى أثناء خروجنا في مرة من المرات تلاقيتُ وفريقي مع فريق نوح، وفي هذه اللحظة حدث شيءٌ أفسد كل شيء.

فدائمًا ما يحدث شيءٌ أثناء تنفيذ خطتك يُبيدها عن بكرة أبيها، لتبدأ في وضع خطة جديدة تستهلك منك كل الوقت الذي كنتُ ستنفذ فيه الأولى فتُلغي الثانية؛ فتتفاجأ أنه ليس هناك خطة على الإطلاق.

فهناك ما حدث أفسد المهمة؛ فما حدث ليس متوقعًا على الإطلاق، بل ما حدث كان في قمة قمة الرعب.

وأثناء حدوث ما رأيناه خرج البقية مَن كانوا يساعدونا، وشاهدوا معنا ما رأيناه للتّو وكان مخيفًا إلى أقصى حد.

إنه بالأعلى.. في الهواء.. يطير بأجنحته.

لقد عاد التنين، ولكن...

ولكن ليس بمفرده.

لقد عاد التنين ومعه رفقة، تنين آخر لكنه أصغر حجمًا.

لقد تسمرنا مكاننا أصبحنا مكشوفين لهم، وفي كل لحظة نمضيها واثبين في مكاننا أصبحت المسافة الذي تفصل بيننا وبين هذين التنينين أقل.

استمر التنينان في إصدار الزئير؛ فسمع كل مَن كان بالداخل؛ منهم مَن خرجوا للخارج ليعرفوا ماذا يحدث، ومنهم مَن بقى بالداخل خائفين مختبئين.

وبعد ثوانٍ قليلة تملكنا الخوف والرعب أكثر.

إنهما ليسا تنينيْن بالفعل.

فما رأيناه جميعًا يرفض العقل أن يصدقه مقتنعًا إنه لم ولن يحدث على الإطلاق.

ما أبصرناه كان يعني أنها نهايتنا.. نهاية كل شيء! نهاية العالم العلوي والعالم السفلي.

لقد رأينا للتو أن التنين عاد ومعه تنانين كثيرة تأتي برفقته، كأن كوكبنا أصبح مضيفة لضيوفٍ آخرين مِن بعد الآليين.. وهم التنانين!

لقد كانوا سبعة تنانين!

فقلت بسخريةٍ في وسط هذا الهلع:

- لقد ذهب لينادي إخوته؛ فعاد بهم يعزمهم على الوجبة الدسمة.

لقد نظر إلَيَّ وحيد وقال بسخط:

- هل هذا وقت مناسب لذلك؟

ثم قالت مريم:

- يفترض أن تحزن الآن ثم تغضب؛ إنه الوقت الذي نحن فيه في أَمَسّ الحاجة إلى ذلك.

نظرتُ لهما ورفعتُ كتفي في حركةٍ تلقائية، ثم رأيتُ نوح يحاول أن يستوعب ما أقوله، كما وجدتُ البقية ينظرون

إلَيَّ كأنهم ينتهرونني، فما يحدث الآن أصبح أكثر خطورةً على الإطلاق عن أي خطرٍ حدث قبل ذلك؛ ولهذا معهم حق، فأعدتُ رباطة جأشي بعد أن سألت مريم في ذعرٍ:

- ماذا سنفعل؟

نظرتُ نحو السماء.. إلى التنانين الذين يقتربون نحونا بزئيرهم الذي أصبح أكثر علوًا، ثم أحدثُ بنظري لما كائنٌ خلفي؛ تلك المباني التي تختبئ خلفها البشر والآليون، وعلمتُ حينها أن هذا الوقت الذي سأعترف فيه عمَّا رفضتُ أن أتقبله منذ البداية، فكان هذه بمثابة الحل الوحيد لدينا؛ فتلك المباني لن تمنع التنانين من التهام كل البشر المختبئين ومن نفْث النار على الآليين.

ستحرق هذه التنانين كل شيء، ثم سمعتُ الصوت الذي انتشلني مما جال في خاطري الذي قال:

- إن النزول هو وسيلة النجاة الوحيدة.

نعم! في أعماق نفسي أصبحتُ على علمٍ بذلك، لقد اعترفتُ في نفسي أننا سننزل إلى عالمٍ بلا شمس وإلى الأبد كما قال خالي سابقًا؛ فصِحتُ بأعلى صوتٍ وقلتُ:

- إلى أرض الظلاااااام.

* * *

المهمة

وعند جملة "إلى أرض الظلام"، كان هذا آخِر ما وصلتُ إليه فيما كتبته يخص ظل الماضي، ثم نظرتُ في ساعتي فوجدتها الثالثة بعد منتصف الليل، ولكن لم انتهِ عند هذه النقطة فلديَّ موعد آخر مع مذكراتي، فهناك أشياء مهمة كثيرة لم أكتبها بعد، ولكن الآن سأغلق حاسوبي لأن النعاس غلبني، فينتظرني غدٌ مُرهِق.

***

كانت الساعة التاسعة صباحًا بعد نومٍ استمر أكثر من خمس ساعات فقط، استيقظتُ وقبل أن أخرج قصدتُ زوجتي وابني لأطمئن عليهما، وقبل أي شيءٍ سألتني:

- لماذا لم تنم معنا؟

لم أجد إجابةً مناسبةً لهذا السؤال، فاخترتُ أن أغير مسار حوارها وقلت لها:

- إنني سأصعد إلى الأعلى.

ضحكت ضحكةً ساخرة وقالت:

- هل ستعود الصاعد الثامن مرةً أخرى؟ أم الصاعد المجنون؟

أجبتها:

- إنني أريد أن ألم شمل العائلة مرةً أخرى، ألم تتوقي إلى

صديقتك سارة؟

وهنا لاحظتُ اللمعان الذي ظهر في عينيها، كأنها ولأول مرة منذ تحول شخصيتها أن تتأثر بشيءٍ أو تتذكر شيئًا من الماضي، توجهتُ نحوها ودنوتُ إليها وقبّلتُ جبهتها وهمستُ لها:

- سأصعد لأبحث عن وسيلةٍ أعيد بها أختي وصديقتي.

فسألتني في نفس الهمس سؤالًا أحمق محبطًا كأنها عادت به إلى طبيعتها الغريبة مرةً أخرى، وقالت:

- هل أنتَ على يقينٍ بأنهما لا تزالان على قيد الحياة؟

فتمالكتُ أعصابي وقلت لها في حكمةٍ بنفس الهمس:

- أذكر أنك أنتِ مَن قلتِ لسارة من قبل أنها ستعود من أجل حبها.

لمعت عيناها مرةً أخرى ولكنها تُكابر، ثم توجهتُ إلى طفلي الرضيع وقبّلتُ جبهته ويديه الصغيرتين، وهمستُ في أذنيه قائلًا:

- أريدك أن تحمي والدتك في غيابي.

قلتُ هذه الجملة قاصدًا لأن أُيقظ بداخلها أي شعورٍ ميت قد يعيدها إلى سجيتها، وقبل أن أتركها أخبرتها:

- اليوم سأبدأ رحلتي إلى الغرب.

ثم خرجتُ إلى خارج حجرتها بعد أن حزمتُ أمتعتي،

وأخذتُ شريحة الاتصالات الخاصة بي قاصدًا المكان الذي لطالما نتجمع فيه جميعًا الكائن خارج مسكني وخالي، فأعتقد أن نوح وصل إلى هناك وينتظرني.

وبالفعل وجدتُ نوح جالسًا مع خالي، وماجد، ووحيد يتحاورون ويتناقشون فيما بينهم، حتى توقفوا حين أبصروني آتيًا لهم.

- هل نبدأ برحلتنا؟

قلتها في حماسٍ حتى وجدتُ اندهاشهم، فقال خالي:

- لِمَ السرعة؟ ألن تجلس معنا قليلًا؟

اقتربتُ نحوه وقلت له في امتنانٍ:

- احمِ عائلتي يا خال.

رمقني بنظرةٍ ساخطةٍ وقال:

- هل أنتظر دعوتك لمهمة هي مهمتي قبل أن تكون مهمتك.

ابتسمتُ ونظرتُ له بنظرةٍ تعبر عن امتناني له، وودعته كما ودعتُ صديقاي، وقبل أن يختفي طيفي من أمامهم قال لنا:

- تذكرا أن العدو هذه المرة مختلف؛ إنهم ليسوا آليين.. إنهم تنانين!

أجبته:

- هل أنتظر تنبيهك لشيءٍ لا أراه سوى محطة سننزل بها أثناء ذلك حتى نعود إلى هنا.

كنت أقصد بذلك العالم العلوي، لقد تحدثتُ بنفس أسلوبه ففهم هم ذلك وابتسم، فبادلته ذلك، ثم أردفتُ:

- لا تحاولوا أن تتصلوا بي عن طريق شريحة الاتصالات، أو ترسلوا رسالاتٍ نصية إلا للضرورة القصوى، وهذا من خلال كلمة السر المتفق عليها حتى نعلم جميعنا أننا نحن بالفعل مَن نتحدث، فلا نريد أن نقع في نفس الخطأ مرتين.

ثم انصرفتُ.

ذهبتُ ونوح إلى بداية رحلتنا، كان قد جهّز لنا مركبةً من مركبات الآليين النفاثة، وهنا أعطاني نوح شيئًا ما لا أعرف ماهيته لكنه يبدو كجهازٍ إلكتروني دقيق للغاية وقال لي:

- اربطه بذراعك ولا تجعل أحدًا يعرف به.

عقدتُ حاجبي وتساءلتُ عن ماهية هذا الشيء، فعبر نوح لي أنني سأعلم به في الوقت المناسب.

وتوجهنا نحو فجوةٍ من الفجوات التي توصلنا بالعالم العلوي، وصعدنا إلى الأعلى بحرصٍ ألا يرانا تنين فيلتهمنا.

صعدنا إلى الأعلى بمركبتنا، ونظرنا حولنا فلا نرى سوى نفس المباني التي أصبحت أكثر تهدمًا من قبل، ولا نشاهد سوى الدخان والرماد في بعض المناطق والحريق المشتعل في مناطق أخرى.

لكن الأهم من كل ذلك لا نرى شيئًا آخر، لا نرى تنينًا ولا حتى نسمع زئيره، هذا أهم ما حدث حتى الآن.

أغلقنا على أنفسنا المركبة حيث جعلها نوح من وضع المركبة المكشوفة إلى وضع التغطية، لقد استغرق الأمر منا ساعتين حتى الآن، ثم شرعنا في شق طريقنا بمركبتنا نحو الغرب، إلى المكان الذي سافرت إليه سارة ودينا لتبحثا عن السفينة؛ لكي ينقذونا إذا ما حدث شيءٌ يؤدي لسحقنا من على وجه الكوكب.

والآن، نحن نفعل الشيء نفسه ولكن لهدفٍ مختلف؛ سنجد آلةً أخرى مثلما فعلتا وسنذهب إلى...

وهنا تذكرتُ ما قلته سابقًا لأختي سارة عن الزمكان الآخر الذي من المفترض أن تذهب إليه، فسألتُ نوح بجواري أثناء قيادته المركبة:

- هل تعتقد أنها ذهبت إلى العام الأسود؟

قال نوح متسائلًا:

- تقصد عام 2088م؟

أجبته:

- نعم، إنه العام الذي كان بمثابة البداية لما نحن فيه الآن، إنه العام الذي بدأ فيه كل شيء.

ثم صمتنا نفكر حتى سألته سؤالًا آخر:

- أم تعتقد أنهما ذهبتا إلى العام الذي حدثت فيه الحرب؟

فقال نوح سائلًا:

- عام 2112 م؟

رمقته بنظرةٍ ساخطةٍ ثم قلت له:

- هل تستطيع أن تجيبني إجابةً مباشرةً على أسئلتي؟

نظر نحوي ووجه لي ابتسامةً، ثم قال ولأول مرة منذ رحلتنا إجابةً مقنعةً:

- إنك بشري مثلها، بالإضافة أنهما أختك وصديقتك؛ فأنتَ أفضل مَن تستطيع أن تخمن ما قد كان يفكران فيه.

أحدثُ نظري عنه إلى الخراب الذي أراه أمامي خلف نافذة المركبة الزجاجية، وقلت له:

- معكَ حق.

وبعدها سألني مباشرةً:

- أي عامٍ ستختار؟

تنفستُ الصعداء ثم أجبته:

- نصل إلى الغرب أولًا ثم نجد آلة الزمن وبعدها سنقرر، ربما قد تكونا تركتا أثرًا وراءهما يجعلنا نفهم إلى أي زمكان ذهبتا.

واستأنفنا طريقنا في صمتٍ حتى سمعنا صوتًا يبدو أنه مألوفٌ إلى حدٍ ما، قد سمعناه مرةً واحدةً لكنه ما زال يرن في آذاننا جميعًا.

إنه صوت زئير تنين! بالطبع تنين، لن أنسى ذلك الصوت أبدًا، لقد رأيتُ في ملامح نوح ما رآه هو في ملامحي، أعتقد أنه

كان نفس الشعور لدينا إذا شعر هو بذلك.

نظرنا حولنا من نوافذ المركبة الثلاثة حيث اثنتين على الجانبين والثالثة الأمامية، لكن لا نرى تنينًا يصدر منه هذا الصوت.

سأل نوح في ثباتٍ:

- أين هو؟

قلت له في خوفٍ:

- لا تقلق.. سيظهر الآن.

ثم دققتُ النظر في وجهه وأردفتُ:

- أخطأت؛ فمن الواضح أن لا يبدو هناك قلق لديك.

نظر نحوي وابتسم ثم قال:

- أسمع أنك تتميز بثباتٍ انفعالي وإلا لِما كنتَ تستطيع أن تتربص عامًا يليه عامٌ في العالم العلوي حين كنتَ الصاعد الثامن.

وبعد مرور ساعتين أُخرتين حدث ما قطع حوارنا، وجعلنا نشعر بالرعب أو أشعر بالرعب بمفردي.

لقد سمعنا الزئير مرةً أخرى، لكنه مختلف هذه المرة قليلًا؛ لأن الصوت أصبح أقرب مما سبق، ثم التفتنا حولنا في ذعرٍ فنظرنا إلى الأعلى حتى رأيناه آتيًا من بعيدٍ متجهًا نحونا، نحو المركبة التي يراها ذلك التنين؛ فإنها بالنسبة له شيءٌ

ليس مألوفًا يتحرك أمامه لم يحدث منذ عامٍ ونصف.

إنه يشق طريقه بجناحيه يقتحم الهواء في طيرانه، يعلو زئيره كأنه ينادي على رفقته، ثم زاد توتري فقال نوح في ذات الثبات المستفز:

- لا تقلق، سنطير مثله.

وقبل أن أستوعب ما يقوله رغم أنني أفهم تمامًا ما يقصد بقوله هذا شعرتُ أنني أعلو للأعلى وأنا داخل المركبة، ليس إقلاعًا مثل تلك الطائرات القديمة التي تعلو تدريجيًا حتى لم تعد عجلاتها تلمس الأرض، إنما شعرتُ كأنني طائرٌ يبسط جناحيه فيعلو دفعةً واحدةً عن الأرض.

وهذا ما حدث في مركبتنا؛ فنوح فعَّل نظام النفّاثات، ثم طار بها قبل أن يصل التنين إلينا، ولكن....

كنتُ أتخيل أننا سنبعد منه تمامًا وهذا لم يحدث، بل ظلّ التنين يطاردنا كما الصياد يطارد فريسته بل وأكثر من هذا!! ففي البداية كان زئيرًا فقط، ولكن الآن بعدما أصبحنا في مواجهته في الهواء، وبعدما فعّلنا نظام النفاثات هو أيضًا شرع ينفث النار الآتية من جوفه.

صار على مقربة أكثر كأنه فهم أننا أصبحنا أكثر مراوغةً؛ فأسرع من طيرانه ليصل إلينا سريعًا ولا زال ينفث النيران وأنا في قمة الرعب، أتخيل أننا سنحترق بنيرانه اللعينة، وها الآن أنظر من خلال النافذة جاحظ العينين خائفًا مذعورًا.

لقد أصبح وراءنا مباشرةً مكشوفًا علنًا أمام فمه المستعد

دائمًا في نفْث النيران، نطير أمام عينيه كأننا نقول له هيَّا التهمنا، وشتّان الفارق بين حجم مركبتنا وحجمه.

صرخته التالية حاملة النيران ستكون في مركبتنا بلا شك!

وإن لم يراوغ نوح الآن قبل أقل من ثانية سنتفحم ونسقط كتلةً سوداء، فصرختُ بأعلى صوتي:

- نوووووح.

وهنا راوغ نوح التنين وتفادى نيرانه التي أطلقها للتو، ولكن حدث شيءٌ آخر أكثر خطورةً، شيءٌ جلعنا لم نكتفِ بسعادتنا من تلك المراوغة.

فما حدث هو أننا اصطدمنا بشيءٍ ضخم أمامنا! ولكن ما هو هذا الشيء؟!

لقد كُنا مشغولين بذلك التنين الذي كان خلفنا، وعند الاصطدام التفتنا بغتةً أمامنا لنرى ما اصطدمنا به جعل المركبة يختل توازنها.

وهنا كانت الصدمة الأكبر؛ إنه تنينٌ آخر أمامنا، حيث يراوغ هو الآخر بذيله أمامنا، تنينٌ ينظر خلفه إلينا، وأصبحنا الآن بين تنينين كبيرين على أتم الاستعداد لالتهام وجبتهما!!

الذي خلفنا ينفث النيران، والذي أمامنا يكشر على أنيابه فتظهر أسنانه الحادة المخيفة، ثم....

ثم فتح الأخير فمه على آخره متأهبًا ليبتلعنا، وزئر زئيرًا مرعبًا جدًا أكثر من الأول الذي كان متأهبًا هو الآخر على نفث

دفعةٍ جديدة من جوفه ملتهبةً بالنيران، وإن لم يراوغ نوح الآن قبل أقل من أقل من الثانية سنكون بداخل فم تنينٍ أو محترقين بواسطة الآخر.

ولكن هذه المرة لن أنتظر حتى أقول بأعلى صوت أملكه: "نووووح"، بل قصدتُ المقبض الذي يمسكه نوح سريعًا وخطفته من يده وجعلتُ المركبة تنزل بغتة إلى الأسفل فتفادينا نيران الأول والتهام الآخر، بل أكثر من ذلك؛ فنيران التنين الأول حظت بجسم التنين الآخر، فغضب الأخير واختار أن يضع رقبة الأول بين فكّيه، وهنا صار الاصطدام التنيني المرعب، بالطبع الآخر لم تحرقه النيران والأول أغضبته تلك القضمة التي لم تفعل سوى الجروح له.

وهنا صارت المعركة، معركة تنينية طاحنة بين الاثنين؛ فانشغلا ببعضهما البعض مما أتيحت لنا الفرصة أن أمسك المقبض مرةً أخرى وأُعيد المركبة إلى نصابها الصحيح قبل أن نصطدم بالأرض فنحترق من قِبل حادث وليس تنين. وبالفعل نفذّتُ ذلك، وهنا سأل نوح:

- كيف علمتَ بأمور المركبة؟

أجبته:

- لقد كنتُ أراقبك في البداية كيف تفعل ذلك.

ثم قال:

- انظر إلى هذا.

نظرتُ ولم أرَ شيئًا، فسألته:

- إلى ماذا؟

ولم يجب، بل كان يقصد أنني أنظر إلى ما سيفعله بالمركبة؛ فلقد فعَّل نظامًا آخر جعل المركبة تطير بأقصى سرعة حتى أصبح التنينان بعيدًا عنا تمامًا، لقد زوَّد سعة المحرك لا أكثر فلقد كانت مناورة استمرت قرابة الساعة.

وهنا نظرتُ له ساخطًا غاضبًا وقلت له صارخًا في وجهه:

- ألم تستطع أن تفكر في هذا قبل ذلك؟! لما كُنا عشنا لحظات الرعب هذه.

أجابني إجابةً مقنعةً جعلت غضبي يهدأ:

- هذا ما يشكل الفارق بين الذكاء الاصطناعي والذكاء البشري؛ فأنظمتنا وصلت للتطور حتى نعرف كيف نتصرف في مداهمة خطر يهددنا، ولكن ليس مثل ذلك التنانين ليست ضِمن أنظمتنا.

قلتُ له:

- ليس ضمن المنطق من الأساس.

فقال هو الأكثر إقناعًا:

- كما أن المركبة لا تستطيع الطيران بهذه السرعة أثناء المراوغة.

فقلتُ له بعد أن أصبحتُ على سجيتي الثابتة:

- إذن، فلنطر نحو الغرب بهذه السرعة.

* * *

شرعنا نشق طريقنا محتفظيْن بسرعة المركبة الفائقة، نراقب الخراب والدمار الذي أصبح عليه العالم العلوي.

العالم العلوي الذي كان هو هدفي في يومٍ من الأيام، والآن أصبح أحدًا لا يطيق أن يعيش فيه إن لم يكن بسبب خوفه من التنانين، فسيكون بسبب ذلك الدمار الذي خلَّفه التنانين.

مبانٍ نصف متهدمة، وأخرى تحترق بالنيران، وثالثة لم يبقَ فيها أثرٌ يمكن رؤيته لأنها دُمِرَت بالكامل؛ لقد أصبحت الشوارع مطليةً باللون الأسود تاركةً منظرًا بصريًا سوداويًا مظلمًا كأنها أصبحت شوارع متفحمة.

لكن كلما أصبحت وجهتنا أكثر قربًا للغرب كلما قل هذا المنظر البصري، فقلت لصديقي نوح:

- يبدو أن التنانين لن تشق طريقها نحو الغرب أكثر من ذلك.

أجاب نوح:

- نعم، إنني أرى ذلك أيضًا.

قلت له:

- هذا يعني أمرًا آخر غير محببٍ أيضًا لدينا كما التنانين.

نظر نحوي متسائلًا:

- ماذا تقصد؟

فلم أجبه، بل استكفيتُ بنظرةٍ توحي بما يكمن بداخلي؛ ففهم نوح ذلك وقال:

- أتظن ذلك؟

أجبته:

- بلى، كما أظن أنهم أصبحوا أكثر تأهبًا عما سبق حين ذهبتَ إليهم برفقة سارة ودينا.

فقال نوح:

- ولكنني لم أقابل حينها سوى المرتدين.

أجبتُ:

- إنه الحظ فقط، فهذا لا يعني عدم وجودهم حينها.

سأل نوح:

- وماذا عن المفقودين؟

لم أجبه مباشرةً، بل بعد تفكيرٍ عميقٍ قلت له:

- أتظن أنهم يمكثون هناك هاربين من نيران التنانين؟

أجاب نوح:

- لم أجزم بذلك؛ إنني مشوش الفكر.

قلت:

- معكَ حق، لن أنسى أبدًا والديّ دينا اللذيْن لم أراهما منذ

نزولنا إلى الأسفل مرةً أخرى.

وهنا تذكرتهما، إنهما "طلعت" و"ناهد" حين نزلنا إلى الأسفل وسألاني عن دينا ابنتهما ولم أجد شيئًا مناسبًا أجيبهما به عليه، وكدتُ أغرق مرةً أخرى في بقية المفقودين لكن انتشلني نوح من هذا حين سمعته بالكاد يقول:

- لقد أوشكنا على الوصول.

وحين انتبهتُ له بقوله هذا، نظرتُ حولي ووجدتُ الأبنية كما لو أن أحدًا لا يمسها! فلا يوجد خراب أو دمار، ولا يوجد تنانين! في الحقيقة لا يوجد أي شيءٍ، إنما هناك فقط السكون، لقد وصلنا إلى الغرب بعد ساعاتٍ قليلة.

السكون فقط هو كل ما شعرنا به!

فقلتُ له:

- هيَّا لننجز المهمة التي أتينا لأجلها.

جعل نوح المركبة تهبط حتى أصبحنا أرضًا، فترجلّنا منها وسرنا بضع خطواتٍ، ثم جال في فكري أن أسأله عن شيءٍ ما فقلت:

- إلى أي مدى وصلت العلاقة المتوترة بينك وبين جماعة القراصنة؟

نظر نحوي كأنه آسفٌ وقال:

- لا زالت معقدة، ولا زال الأخوان عبد الله وفارس يلومانني على ما أصاب جماعته.

قلت له في رزانةٍ:

- لا تنسى شعورهم بأنهم كالمحجوزين في عالمنا؛ فهُم من قديم الزمن لا يعرفون طريق سوى البحر، والهواء، والشمس، والفراغ وهذه العناصر لا تتواجد في عالمنا الذي هو بمثابة سجن لهم ليسوا معتادين عليه.

أجاب:

- وهذا ما يجعلني لا أحمل ضغينةً نحوهم، لكنهم متمادون أكثر من اللازم.

لم أجبه بشيء؛ إنني أفهم ما يحاول أن يخبرني به، فالإنسان يفيض به حين يتخطى أخطاء غيره في حقه وغيره يتمادى في ذلك، ولكن هذا للإنسان ونوح ليس بإنسان.

ثم انتبهتُ فجأةً حين صاح مشيرًا بإصبعه قائلًا:

- هذا هو المكان الذي ذهبتُ إليه مع سارة ودينا.

ثم أشار نحو اتجاهٍ آخر إلى مكانٍ ما قريب وأردف:

- وهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى المخبأ الذي كانت فيه آلة الزمن مخبّأة.

قصدنا المخبأ الذي لم أكن أعلم به إطلاقًا إن لم يخبرني به نوح، إنه بمستوى الأرض تمامًا، وله بوابة بالكاد تراها العين المجردة؛ فدنونا نحو البوابة وشرعنا في فتحها.

وهنا طار التراب من كل الاتجاهات، وأصبح كأن هناك عاصفة رملية آتت من الداخل؛ فتوقفنا دقائق حتى ينجلي ما يغشي بصرنا من ترابٍ رملي يخرج إلينا من الداخل.

انجلى التراب وقال نوح وهو ينظر حوله للأسفل كما هو مفترض:

- هذا غريبٌ نوعًا ما.

نظرتُ نحوه وتساءلتُ:

- ماذا تقصد؟

أجابني نوح:

- لم يكن مثل هذه الأشياء في المرة السابقة.

قلتُ له غير مكترثٍ:

- هل هذا يعني لم يعد هنا آليون كما توقعنا؟

أجابني نوح:

- لا أستطيع أن أجزم بذلك.

نظرتُ له في سخطٍ وقلت بعد أن تنفستُ الصعداء:

- هل هناك شيء واحد تستطيع أن تجزمه؟

نزلنا إلى الأسفل عبر الممر المؤدي لقاع المخبأ حيث كانت الآلة، ولكن لا يوجد شيءٌ إنه الفراغ فقط، ثم جال في فكري شيءٌ فقلت لنوح:

- دعنا نخرج من هذا المكان، إنه يذكّرني بعالمنا السفلي.

خرجنا حيث كُنا وقلت لنوح:

- سنفترق لنغطي أكبر مساحةً في البحث في وقتٍ أقل.

فاقترح نوح قائلًا:

- سأذهب إلى السفينة المدمرة.

وافترقنا، كل منا أخذ اتجاهًا يبحث فيه عن أي مخبأ أو مبنى قد يكون مجالًا للشك أن يتواجد بداخله آلة ضخمة تستخدم للسفر عبر الزمن.

أخذتُ طريقي، وظللتُ أبحث وأبحث في أماكن كثيرة، لقد مرَّ يومٌ كاملٌ في البحث منذ بداية رحلتنا دون راحة على الإطلاق، ولكن ما يقلقني أكثر هو ذلك السكون السائد في هذه المنطقة بأكملها، هذه يجعلني مرتابًا قليلًا، شرعتُ أنظر حولي في جميع الاتجاهات وأسير بتؤدةٍ لا أعرف السبب وراء ذلك، ولكن حدسي يحدثني أن هناك شيئًا ما.

وبالفعل حدث هذا الشيء ما!!

فحين دخلتُ مبنى من تلك المباني العالية المتطورة، سمعتُ بغتةً صوت خطواتٍ منتظمة واثبة حماسية كأنني بجوار كتيبة جيشٍ قتالية، استوقفتُ نفسي لأنصتُ إلى هذه الأصوات، ثم أخذتُ أفكر حتى جحظت عيناي؛ ليس لأنني لم أتوقع ذلك، بل لأنني لا أستطيع الهروب الآن، أشعر أنني محاصرٌ داخل هذه المبنى؛ لأنني أسمع هذه الأصوات صادرة

من كل الاتجاهات من حولي.

وهنا رأيتُ ما رأيته، فما رأيته كان بمثابة واقعة لا أشعر تجاهها سوى بالمقت، ولكن ما يجعلني في ثباتٍ انفعالي هو توقعي لذلك.

إنني أرى العشرات من الآليين آتيين من كل اتجاهٍ، يسيرون في انتظامٍ وتأهب قتالي يقتربون نحوي.

تسمرتُ مكاني؛ فليس هناك مخرج، ليس هناك أمامي أدنى ثغرة للهروب، ثم توقفوا فجأةً حين أصبحوا على مقربةٍ مني تبلغ مسافتها عشرة أمتار، وبعد ذلك سمعتُ أصوات خطوات أرجل أخرى، نفس الانتظام ونفس الحماس لكنها أقل عددًا.

أراهما آتيين نحوي وسط العشرات من الآليين المصطفّين، وهذا ما لم أتوقعه على الإطلاق؛ فما رأيته جعلني جاحظ العينين.. مصدومًا.. مندهشًا.. غاضبًا.. مكشرًا عن أنيابي.. شعور مختلط شعرتُ به حين رأيتهما.

إنني أراهما أمامي يشقان طريقهما نحوي.. إنهما رامز وريتاج!!

* * *

المفقودون

كان وحيد يرسم في أحد بورتريهاته الفنية الخاصة بشخصٍ ما يسكن أرض الظلام، ولا زال لديه تفاؤل في حياة كريمة يعيشها بالأسفل وسط أحبابه الكائنين معه في الواقع والمرسومين على أحد اللوحات؛ لكي يشعر بوجودهم معه على الدوام سواء كانوا حاضرين أو غائبين.

منغمسًا في تفاصيل رسمته حتى قُطِعَ حبل تخيلاته الواسعة حين سمع أحدهم يقول، ويبدو موجّهًا الكلام له:

- ألا تزال لديك طاقة لترسم؟

فرفع وحيد نظره فأبصر ماجد آتيًا له في مرسمه، ثم أجابه قائلًا:

- وما الذي قد يحجب الطاقة لديّ كي أصبح عاطلًا عن العمل، فلا أستطيع أدخر لمعيشتي.

أجابه ماجد:

- فراق الأحباب؛ إنه هو الذي يُحجب كل طاقة لديك، فوجودهم يجدد تلك الطاقة حتى تشعر أن تريد أن تنقل جبلًا لأجلهم.

قال وحيد:

- مشكلتي أنني واقعي أكثر من كوني خياليًا مثلك، نعم نؤمن أن بُعد الرفاق عنا يجعلنا على غير سجيتنا، لكن الوقت الذي نقضيه في التفكير في ذلك لا يُعجل من عودة الأحباب؛

مكوثك بلا فائدة لا يجعلك تعثر على المفقودين.

ماجد:

- وهل ترى أن هذه مشكلة؟ يا ليتني واقعي مثلك.

وحيد:

- الواقع يعد مشكلة للإنسان الواقعي، كما أن الخيال مشكلة للإنسان الخيالي.

ماجد:

- لا أستطيع يا رجل، إنها كل حياتي.

ثم ردَّ عليه صوتٌ ثالث قائلًا:

- على الأقل ابحث عن والديها اللذين لا يزالان مفقودين حين علما بأمر ابنتهما، فحين تعود دينا تستطيع أن تخبرها أنك كنتَ سببًا في عودتهما.

فنظرا الاثنان إلى مصدر ذلك الصوت، ووجداه الخال فهمي آتيًا مقتربًا نحوهما، فردَّ ماجد:

- كنت أريد أن أكون برفقة آدم ونوح؛ كي أكون مِن أول مَن تراهما عيناها.

قال وحيد:

- كنتُ أتمنى ذلك أيضًا، لكن آدم أوكل لنا مهمة حماية أرض الظلام، وهذا أقل ما نفعله لأجله حتى يعيد لنا أحبابنا.

فهمي:

- معذرةً، سأغير مسار الحوار لكي نستطيع أن نحتفظ بطاقتنا لما سأقوله.

سأل وحيد:

- ماذا هناك؟

أخذ فهمي نفسًا عميقًا ثم أخرجه في زفيرٍ طويلٍ، وقال:

- لا يهمني إن كنتُ سأقضي بقية حياتي في أرض الظلام، ولكن إن كنتُ سأفعلها فلا بد من سد كل الثغرات التي قد تؤدي إلى تشتتنا.

سأل ماجد:

- ماذا تقصد؟

أجاب فهمي:

- اسمعوا جيدًا: نحن نعلم بأن هناك مفقودين غير والديّ دينا، لقد بدأ الأمر في البداية منذ عامٍ ونصف أنهما ذهبا ليبحثا عن ابنتهما الوحيدة على أمل أنهما قد يعثران عليها، فلا يريدان أن يصدقا أنها في زمكان آخر بعيد عن هنا، ونحن بدورنا بحثنا عنهما ولم نجد لهما أثرًا، بالإضافة إلى الآخرين الذين غابوا في ذات الوقت.

وحيد:

- هل تريد أن تقول بأن هناك عملية اختطاف تستهدف ساكني الشمال.

فهمي:

- لا أستطيع أن أجزم بالضبط ما الذي يحدث وراء هذا، ولكن الشيء الذي أنا متيقن منه أنها عملية غير عادية، وقد يكون الدور علينا في يومٍ وهنا سنفترق وهذا ما أخشاه؛ إن قوتنا في شملنا.

ماجد:

- ماذا من المفترض أن نفعل؟ هل نقوم بعملية مسح كُلي لمدن أرض الظلام؟

الخال:

- مسح كلي لكنه سري، وليس الآن.

كيف؟

سأشرح لكم.

ثم أدخل في صدره شهيقًا آخر لكنه أقصر، ثم أخرجه في زفيرٍ أسرع كأنه يريد أن يُخرج ما في جُعبته قبل أن ينساه، فأردف:

- سنبدأ بالمناطق التي تفرض مجالًا أكثر للشك، وهي المناطق التي يكون فيها تكدس بعدد الأغراب عنا؛ وهؤلاء الأغراب هم: الآليون بالتأكيد وجماعة قراصنة البحر.

استنكر وحيد:

- قراصنة البحر؟

أجاب الخال:

- نعم، أعلم أنهم بشريون مثلنا، لكن هذا لا ينفي كونهم أغرابًا عنا، وخاصةً بعد اختلافهم مع نوح؛ فأنا ليست مرتاحًا للأخوين عبد الله وفارس.

سأل ماجد:

- إذن فما الخطة؟

قال فهمي بعد تفكيرٍ:

- نحن نعرف أن الآليين تم توزيعهم على الأربعة مدن، والمدينة الوسطى أو مدينة المتهورين كانت لها النصيب الأكبر من الآليين بسبب كونها أقل مدينة من الأربعة في عدد السكان.

ردَّ وحيد:

- ولكن مدينة المتهورين أصبحت الآن تحت سيطرة نوح.

فأتبعه ماجد:

- نعلم أننا أعطينا مدينة المتهورين لنوح والمرتدين، ولكن الحقيقة أن جميع مدن أرض الظلام تحت سيطرة البشر.

قال فهمي:

- نعم، ماجد معه حق؛ فكما نعرف جميعًا فحين تم إعادة توزيع مدن الظلام منذ عامٍ ونصف كان من نصيب الجنوبيين نصف مدن الظلام، فهم مَن حاربوا معنا فتركنا

لهم مدينة المتهورين، ونحن أخذنا مدينة أيوب "مدينة المعترضين" مستضيفين فيها القراصنة، وجعلنا نوح حاكمًا لمدينة المتهورين تحت قيادة الجنوبيين؛ وذلك بسبب قدرة المرتدين في السيطرة على العدد الأكبر من الآليين مستوطني المدينة الوسطى.

وحيد:

- إذن بأي مدينةٍ سنبدأ بها؟

أجاب الخال:

- الاثنان معًا: المعترضون والمتهورون.

هزّ ماجد رأسه كأنه لا يحبّذ هذا الكلام، فلاحظ فهمي ووحيد ذلك فسأله الأول:

- ما بِكَ؟

قال ماجد:

- أليس من المفترض لو تركنا للآليين مدينةً بحالها بعيدًا عنا؛ لكي نتجنب وجودهم في جميع أراضي الظلام؟

ردّ فهمي مباشرةً:

- بل بالعكس، إن كنتَ تريد أن تهزم قوة خطيرة فعليك أن تفرقها؛ الخطر دائمًا في الشمل.

بدا على ماجد الاقتناع، فأردف فهمي:

- عامةً هذا ليس موضوعنا، ثمّة مشكلة تقابلنا وهي مدينة

المتهورين، فعلينا أن نأخذ الإذن أولًا من القيادة العظمى لها.

استفهم وحيد:

- هل تقصد أن علينا الذهاب إلى الجنوب؟

أخذ فهمي شهيقًا للمرة الثالثة، ولكن هذه المرة أخرجه في زفيرٍ طويلٍ كأنه يُخرج كل همه فيه، ثم قال:

- إنها الطريقة الأسهل لكنها ستستغرق وقتًا أطول.

استفهم ماجد:

- إذن؟

ردَّ فهمي:

- هناك طريقة أخرى ستستغرق وقتًا أقصر لكنها أكثر صعوبة.

عقد وحيد حاجبيه والتفت إلى ماجد الذي كان مستغربًا هو الآخر، فاستأنف فهمي كلامه قائلًا:

- علينا التحدث إلى مريم.

* * *

كان نوح يكمل بحثه عن مكانٍ قد يكون فيه آلة زمن، ولكن لكي لا يبحث بدون أن يعلم أين يبدأ بالبحث؛ قرر أن يبحث عن مَن قابلهم المرة السابقة لعله يجد جماعة المرتدين التابعين له في هذه المنطقة.. الغرب.

أخذ يتحرك بتؤدةٍ وحذرٍ حتى يتأكد أولًا مِمَن يقابلهم آليون

أم مرتدون! ظل يفعل ذلك في شارع بعد شارع ومبنى وراء مبنى حتى سأل في نفسه بصوتٍ عالٍ:

- لِمَ هذا السكون المخيف؟

حتى سمع أصواتًا بالقرب؛ فتربص وتحرك بحذرٍ حتى اقترب نحو مصدر تلك الأصوات، واختلس النظر والسمع فرأى أربعة أفرادٍ، كما أنه سمع أحدهم يقول للآخر:

- في يومٍ ما سنعدم كل الآليين ونبقى نحن برفقة البشر.

وحين سمع هذه الجملة تيقّن من أنهم تابعون له، لكنه اختار أن يبقى ليسمع بقية حديثهم حين ردَّ الآخر قائلًا:

- نعم، لكن القائد نوح محتجز بالأسفل في الشمال، ولا بد أنه يحتاج للمساعدة في مواجهة تلك المخلوقات الغريبة التي تسيطر على العالم العلوي هناك.

ثم سمع ثالثًا يقول:

- كيف سنساعد المرتدين المحتجزين هناك؟! فنحن لا نعرف ماهية تلك المخلوقات ولا نعلم كيف نواجهها.

وقال رابعهم:

- كما أننا لا نعرف إذا كانت أسلحتنا الليزرية مناسبةً لمواجهة تلك المخلوقات أم لا!

وهنا ظهر نوح بعد أن تأكد أنهم من المرتدين فعلًا ودنا نحوهم بقوله:

- إنها مخلوقات ذات جلدٍ صعب الاختراق.

فالتفت الأربعة إلى مصدر ذلك الصوت، واندهشوا حين رأوا قائدهم الأعظم واقفًا أمامهم فانحنوا له، فرفع نوح يده ليفعل تلك الحركة التي توحي بالتوقف؛ فعدل الأربعة أنفسهم ووقفوا فقال أحدهم:

- إننا سعداء أنك هنا أيها القائد.

ردَّ نوح:

- هل أصبحتهم تعلمون ما هي السعادة؟

فأجاب الثاني:

- إننا نحاول أن نحاكي البشر؛ لتسهيل علاقتنا المستقبلية معًا.

ضحك نوح ساخرًا وقال:

- لمدة مائة عامٍ كان البشر يحاكوننا، والآن قد تغيّر الزمن وأصبح نحن من نحاكيهم.

- على كلٍ هذه هي كانت خطتنا الأساسية من البداية، والآن إنني أبادلكم السعادة، لقد عرفتموني دون أن أبذل مجهودًا في ذلك.

قال ثالث:

- إنك قدوة لنا، كما أننا نعلم صورتك، لقد أصبحت الآن على كل مواقع الإنترنت.

هزَّ نوح رأسه متفاهمًا، ثم قال:

- ليس هناك وقت لذلك، لا بد وأن أنهي مهمتي التي أتيتُ لأجلها.

سأل الرابع:

- ما هي؟ لنساعدك في هذا.

أجاب نوح:

- في الحقيقة إنني أريد مساعدتكم حقًا فيما أبحث عنه. إنني أبحث عن آلة سفر عبر الزمن مثل التي أخذناها منذ عامٍ ونصف.

التف الأربعة بعضهم إلى بعضٍ، وسأل أحدهم في لهفةٍ:

- هل أخذتم آلة زمنٍ منذ عامٍ ون..؟

وهنا قطع الآخر حديثه؛ فصمت الأول صمتًا حيث نظر نحو الثلاثة ورآهم ناظرين إليه بغضب، فلاحظ نوح ذلك وعقد حاجبيه كأنه يحاول أن يستوعب ما حدث للتّو، وأخذ يفكر وينظر إليهم في توجس، فتحدث ثالث آخر في ابتسامةٍ بالكاد يرسمها على وجهه كأنه يتعلم متى تكون الابتسامة أو يصطنعها محاولًا في ذلك إقناعه، سائلًا:

- أخبرني، لماذا تريد آلة الزمن؟

لم يجب نوح، لقد ضيّق عينيه ونما التوجس بداخله، وأخذ يفكر في نفسه سرًا: "كيف يتساءلون إن كنتُ أخذتُ آلة زمنٍ من قبل أم لا؟ أليس من المفترض أنهم عالمون بذلك بما إنهم

مِن المرتدين؟"

وهنا توقف قليلًا عن التفكير ونظر إليهم جاحظ العينين، لقد دلف الشك بداخله فسألهم:

- كيف؟ هل أنتم مرتدون حقًا؟

وحين سمع الأربعة سؤاله أشهروا أسلحتهم الليزرية، وقال أحدهم الذي بدا في الأخير أنه كبيرهم:

- إننا لسنا مرتدين أيها الخائن.

* * *

لا زلتُ محدقًا بهم، لم أصدق أنني أرى ريتاج ورامز، هذان الآليان اللذان كانا مفككين وبحاجةٍ إلى الإصلاح؛ فضحكتْ ريتاج ضحكةً تشير إلى السخرية وهي تقول:

- ألم تضحكوا هكذا أنتم البشر؟

عدّلتُ من ملامح وجهي لأتأهب إلى الحديث مع هذه الحرباء -لا زالتْ في نظري كالحرباء- فهذا ليس وقتًا لأي ذهول، فقلتُ:

- أتعرفين أن لولا التنانين لكنتم الآن في قبضتنا وتحت رحمتنا؟

أتعلمين أيضًا أنكِ وذاك الأحمق الذي بجوارك أنني خرجتُ بالخارج حين حاصرتنا التنانين لكي أبحث عنكما وعن كل الخائنين؟

فسأل رامز في غباءٍ بالنسبة لي:

- ولماذا لم تجدنا؟ هل منعك تنينٌ ضخمٌ وهربتَ كالجبان إلى الأسفل؟

نظرتُ له بسخطٍ، كم أريد أن أفكك أجزاءه وقلتُ له:

- حين علمتُ أن لا مفر لنا سوى النزول مرةً أخرى إلى الأسفل عدتُ أبحثُ عمَّن تفكك أجزاءه؛ كي لا يأخذكم أحد ويعيد تصليحكم في ظل الذعر والهرولة فلا نراكم، لأنني علمتُ بداخلي أن هناك مَن لا ينزل من الآليين إلى الأسفل وستنتظرون الفرصة المناسبة لهروبكم من نيران التنانين، كنتُ متيقنًا تمامًا بوجود آليين هنا بالغرب ستساعدكم.

فرفعت ريتاج كفيها وبسطتهما وفعلت تلك الحركة التي تدل على عدم الاكتراث وقالت في سخرية:

- وماذا بعد؟

نظرتُ إلى عينيها الجريئتين وقلت في حنق:

- أنتما الاثنان كنتما مِن ضمن المفقودين.

وبعد أن نظرتُ حولي إلى كل الآليين أردفتُ:

- لكن لم أكن أتوقع أن أرى أن عدد المفقودين سيكون بهذه الكثرة، كما لم أكن أتوقع أبدًا أن أقابلكما بهذه السرعة.

عبرتُ عن حزني لذلك بشكلٍ ساخر، ولكن سمعتُ صوتًا مباغتًا وسط هذه الدراما السوداء، كان ذلك صوت جهازًا ما، بالضبط علمتُ أنه صوتٌ خارج من شريحة اتصالات بتقنية

متطورة لديهم بعد أن أخرجتها من سترتها، ثم صمتت ثواني تستمع إلى مَن يتحدث من الطرف الآخر، وتبعت بنظرةٍ مخلوطة بابتسامة نصرٍ وفخرٍ نحوي، وأخيرًا أنهت الاتصال وقالت:

- ألم تأتيا لتبحثا عن وسيلةٍ للسفر عبر الزمن؟

وعند سماعي لما قالته للتّو جحظت عيناي إلى آخرهما كأنني تعرضتُ لصدمةٍ ما؛ لقد كشفت ريتاج سبب مجيئي إلى هنا، كما أنها تتحدث بصيغة المثنى فعلمتُ أنهم وجدوا نوح أيضًا.

وفي فخرٍ وانتصارٍ لا متناهٍ قالت تلك الصدمة الأكبر؛ حيث تيقنتُ تمامًا حين سمعتها أن هذا يعني لا سبيل لدينا لإنقاذنا، حيث قالت:

- لقد أعدمنا كل المرتدين هنا بالغرب.

ابتلعتُ ريقي وعلمتُ أنها النهاية.

* * *

الساحرة

- أنتم مجانين.

قالتها مريم موجهةً جملتها إلى فهمي، ووحيد، وماجد الجالسة مثلهم تحتضن ابنها يوسف بين ذراعيها، عبرت عنها بطريقةٍ توحي بعدكم الاكتراث إلى أي شيءٍ يدور حولها حيث حالها المتبدل.

فردَّ فهمي قائلًا:

- هل أنتِ مَن تقولين هذا؟

ألم تعدي تتذكرين أننا نحن مَن وثقنا في المجانين منذ عامٍ ونصف؟

ألم يكن شعبك هو مَن كان الحليف الوحيد في وقتٍ كنا فيه نحن الشماليون بمفردنا مهددين بالهزيمة؟

أليست أنتِ مَن كان سببًا في خلق ظلامٍ بقوتك لتساعدي به آدم، فانتهت المعركة بانتصارنا؟

ألم تعيِ تتذكرين أي شيءٍ مِن كل هذا؟

لقد استقبلت مريم ما قاله فهمي، فما كان لها سوى أن تنهض من مكانها وتنقل الطفل برويدةٍ إلى فراشه، ثم عادت نحو فهمي ودنت من الثلاثة، وهنا انفجرت غاضبةً بقولها:

- أي انتصارٍ هذا؟ أهذا يعني لكم انتصارًا؟!

ثم نظرت حولها وأعلاها وأردفت:

- إنني ما زلتُ أرى ذات العالم الذي كُنا نعيش فيه.

إننا هنا بالأسفل، لقد عاد كل شيءٍ كما كان كأنه لم يكن شيئًا من الأساس.

ما نتيجة تحالف شعبي معكم؟ لا أرى شيئًا.

إلى ما أدى قوتي الظلامية؟ أيضًا لا أرى شيئًا.

ثم هدأت باكيةً وصمتت، فقال وحيد:

- تستطيعين أن تجعلي قوتك قوةً خارقةً تساعدنا في الخطر الجديد الذي يهددنا.

اتبعه ماجد قائلًا:

- نعم، إنكِ وآدم قوتنا التي نحارب بها، إنكما مَن ستكونان سببًا في المضي قدمًا إلى الأمام.

أجابت مريم في هزيمةٍ وانكسارٍ:

- إنها قوةٌ ظلامية تجعلني على غير سجيتي، إنها قوةٌ حمقاء ليست خارقة، كما كان يقول آدم على قوته.

إنها لعنة تجعلني لا أدري بشيءٍ مما يدور حولي.

إنها لعنة تمنعني من شعور الأم نحو ابنها، تحجب شعور الزوجة نحو زوجها.

لا تنتظرون مني شيئًا يفيدكم؛ لقد انتهت مريم الجنوبية.

ماتت مريم العرّافة القوية.

إنكم تقفون الآن أمام مريم مجنونة بالفعل، مريم تمتلكها قوة ظلامٍ سوداء تجعلها كالميتة، مريم ساحرة تحتاج إلى الحرق حية.

ثم ساد صمتٌ عظيمٌ لم يكن مثله مِن قبل؛ الجميع آسف.. الجميع يرى بداخله حقيقة ما تفوهت به مريم للتو.. الجميع ينظر إلى الأسفل منكسرًا؛ لقد قالت مريم أشياءً تهز كيان مَن ليس له قلب رحيم.

ظل هذا الحال لدقائق حتى نزلت دموع فهمي من عينيه دون إرادته؛ فنهض من مكانه فتبعه في ذلك وحيد وماجد احترامًا له، ثم قال في ذات الشعور:

- منذ أصبتِ بهذه اللعنة لم تتحدثي بعقلانية أكثر مما تحدثتِ به للتو، وما سمعته الآن أكبر دليلٍ على أن عقلك لا زال موجودًا، ولا تزال مريم القوية العرّافة التي نعرفها جميعًا موجودة.

كونك إنك عالمة بما يحدث لكِ؛ فهذا دليلٌ على اتزان عقلك.

نظرت نحوه بنظرةٍ توحي بشعورها بالراحة حين سمعت كلام فهمي، وكأنها كانت تحتاج إلى أن تستمع لهذا الكلام منذ زمن.

فلاحظ فهمي ذلك، واستغل هذه النقطة لصالحه واستطرد:

- اجعليها قوةً لا لعنة.. اجعليها نعمةً لا نقمة.

أنتِ قادرة على أن تحولي ما أصابك إلى شيءٍ تمتازين به عن غيرك، كما أنكِ تستطيعين أن تجعلي من ذلك الشيء السبيل لإنقاذ عالمنا.

لا تتركي السحر الأسود يتملكك، لا تجعلي الدخان يتحكّم بكِ؛ بل أنتِ الساحرة الأكثر مهارةً في مدينة الجنوب بأكملها، تحكّمي أنتِ في ذلك الضباب الأسود واجعليه يطيعك.

لمعت عيناها حين سمعت ما قاله فهمي لها، وذكَّرها بنفسها حين كانت تخاطب شعبها ليتحالف مع آدم كما فعلت مع شعب الشمال لتقودهم إلى الحرب.

فضغط فهمي أكثر بقوله:

- المفقودون لا يزالون مفقودين، ونخاف من صباحٍ لا نجد فيه واحدًا منا وسطنا كوحيد، أو ماجد، أو أنا، حتى آدم وأنتِ نفسكما معرضان لذلك.

ثم صمتَ لحظاتٍ قليلة وقال:

- قد يكون ابنك أيضًا.

فأحادت نظرها نحوه بشدةٍ كأنه أفاقها من غيبوبتها، فأردف:

- إننا نحمي ونحصن نفسنا من أي خطرٍ قد يواجهنا، لن نجلس وننتظر الخطر حتى يتمكن منا، إنكِ مهمة ولكِ دورٌ فعالٌ في مهمتنا، فاحمي بدورك ابنك أولًا قبل كل شيءٍ.

لمعت عيناها أكثر، فبدا أن فهمي نجح في إثارة غرائزها

وإحياء ما تبقى بداخلها من ذكريات.

وأخيرًا أجابت بعد تفكيرٍ:

- سأجهز نفسي لرحلتي إلى الجنوب.

وبدون أي مقدماتٍ قال ماجد في تهورٍ ويأسٍ:

- لن أنتظر حتى يتم ذلك، سأذهب لكي أعثر على والديّ دينا.

فتركهم، ناداه صديقه لكنه لم يجبه، فغادرهم في الحال.

* * *

أغلق أحدهم الاتصال الذي كان؛ ففهم نوح أنه كان يتحدث إلى أحد رؤسائه، ثم وجّه له الحديث قائلًا:

- لقد أعدمنا كل المرتدين ساكني الغرب.

قالها أحد الآليين الأربعة إلى نوح؛ فاغتاظ الأخير بما أنه أصبح يعرف كيف يعبر عن شعوره، فصرخ قائلًا:

- لماذا؟ مرتدو الغرب لم يأذوكم في شيءٍ، لقد كُنا نحن فقط.

ردَّ الآخر:

- ولكنهم خائنون، لقد انضموا لكَ، وكما تبين للتو أنهم ساعدوكم في شيءٍ مهم في الماضي. أليس كذلك أيها الخائن؟

كشَّر نوح على أنيابه وقال في غضبٍ:

- سأنتقم لهم جميعًا.

أجاب الثالث:

- هذا إن كنتَ ستبقى.

ثم نظر إلى الاثنين الآخرين وقال لهم بسخريةٍ:

- أليس "مفكك الأجزاء" لقبه؟

أحاد بنظره مرةً أخرى إلى نوح وأردف:

- إذن، سنفكك أجزاءك كما فعلتَ دومًا للآليين.

قال نوح:

- إن الأمر يتطلب أكثر منكم أنتم الأربعة، إنكم أضعف من ذلك.

تأهبوا بأسلحتهم ليضغط كلّ واحدٍ منهم على زناده فيطلق أشعته الليزرية.

وفجأةً.

لا أحد يضغط على الزناد.

لقد استوقفهم ما سمعوه من نوح؛ حيث قال حين علم أن هذه نهايته بالفعل:

- ولكن هناك طريقةً تعيد كل شيءٍ كما كان.

فسأل كبيرهم في لهفةٍ كما بدا:

- أي طريقة؟ ماذا تقصد؟

أجابهم نوح:

- لقد أتيتُ لأبحث عن آلة الزمن، نستطيع أن نستخدم هذه الآلة للسفر عبر الزمن إلى الماضي، ونحاول أن نمنع البشر من اندلاع الحرب التي أسفرت على هزيمتكم.

* * *

- ولكن لن يتم إعدامك حتى ترى بعينيك نهاية عالم.

قالتها ريتاج لي، ثم أردفت:

- لا زال هناك الكثير من المفاجآت لكَ.

كتمتُ أنفاسي حين سمعتُ ما قالته ريتاج للتو؛ فهذا ليس وقتًا لأتنفس فيه، بل هناك أشياء أكثر أهمية من ذلك، فتساءلتُ في نفسي عن ماهية المفاجآت التي تتكلم عنها هذه الحرباء.

هل ستجعلنا طعامًا للتنانين؟

هذا أقصى ما أتوصل إليه أن تفعله.

ثم تابعت:

- أنتَ الآن تحت رحمتنا وباستطاعتنا أن نقتلك، ولكن كما قلتُ لكَ نريدك أن تشهد على ما يحدث لجميع أفراد عائلتك.

وعند سماعي لهذه الجملة اغتظتُ جدًا وصرختُ في وجهها:

- ستندمون أنكم لم تقتلوني حين أتتكم الفرصة.

ضحكت ريتاج بسخريةٍ لكنها بنبرةٍ أعلى هذه المرة، وقالت:

- كيف ذلك؟ هل ستستخدم قوتك الخارقة ضدنا؟ لا تقلق، إننا نعلم بها كما نعلم أنك لم تستطع استخدامها إلا إذا حزنتَ ثم غضبتَ، والأهم من كل ذلك يجب أن يكون الظلام حيث تفعلها.

شعرتُ بالحنق مما يحدث الآن، إنها ثاني مرة بعد حادث والديَّ أقف عاجزًا لا أستطيع أن أفعل شيئًا، ثم أشار رامز بيده لجنوده فدنوا نحوي وقبضوا علَيَّ وأخذوا مني شريحة الاتصالات الخاصة بي، وجروني إلى الخارج ثم أقلوني إلى مركبةٍ خاصة بهم تبدو كأنها للمساجين، أغشوا نظري بشيءٍ معدني وضعوه على عينيّ، كان مربوطًا وملفوفًا بشكلٍ دائري على رأسي، فلا أرى شيئًا سوى الظلام، وذهبت المركبة بي إلى طريقٍ طويلٍ جدًا استغرق ساعةً كاملةً، وفكان خلال الساعة أشعر بالطيران أحيانًا بالتأكيد أن هذا الوقت مع سرعة المركبة الفائقة، بالإضافة إلى طيران المركبة في الهواء يدل على أن المكان المقصود بعيد جدًا عن الغرب.

ولكن أين؟ لا أعرف.

لقد ذهبتُ إلى اللا مكان.

وبعد مرور الساعة، أنزلوني من المركبة وجعلوني أسير في طريقٍ طويلٍ به كثيرٌ من الانحناءات على ما يبدو، وكأن هذا الطريق يشبه متاهةً لممرٍ يؤدي إلى سردابٍ ما.

لقد كانوا معي طوال الوقت، إنني أشعر وأسمع خطوات أربعة أشخاصٍ آليين تقريبًا، ولأنهم كانوا يعلمون أنني قادرٌ على مواجهة الأربعة والتغلب عليهم فأغشوا عينيّ حتى لا أرى.

ثم استوقفوني عند نقطةٍ معينةٍ في ذلك الطريق، حينها أزالوا عن نظري ذلك الشيء المعدني عن نظري، فرأيت أمامي ما جعلني أشعر بالذهول.

لقد رأيتُ ما كنتُ أحاربه منذ سنواتٍ حين كنتُ الصاعد، رأيتُ ما كنت أعافر من أجلهم لأخلصهم من ذلك العذاب الذي ذاقوه على أيديهم.

رأيتُ ما جعلتُ منه مسكنًا لأعدائي؛ إنها قضبان كبيرة لبابٍ أكبر خلفه سجن أكبر بكثيرا!

إنني أمام سجنٍ محكم بطريقةٍ جنونية، سجنٍ لا يستطيع أحدٌ أن يخترقه أو يهرب منه.

فما أراه أمامي اللا شيء؛ ففي الحقيقة لا أرى شيئًا!!

إنه سجنٌ قاتم سوداوي ظلامي إلى درجة العمى، لقد جعلوه سجنًا بحيث المسجون لا يرى حتى نفسه، وبالتالي لا يستطيع أن يفعل أي شيءٍ كالهروب، إنه سجن الظلام.. الظلام فقط لا غيره.

وهنا وجّه لي رامز جملته التي قالها بسخريةٍ:

- أتركك في عالم بلا شمس.

أخذت مريم مركبةً من مركبات المرتدين حيث تعلم كيفية قيادتها سابقًا، وفضَّلت أن تسافر بمفردها إلى الجنوب ورفضت مرافقة أحدهم لها، كما أنها تركت ابنها يوسف في إيدٍ أمينة مع إحدى صديقاتها الجدد بالشمال.

وبعد مرور وقتٍ كافٍ من الزمن، ركض فهمي ووحيد خلف ماجد ليلحقا به؛ لينفذوا مهمتهم ذات الشقين حيث يبحثون عن طلعت وناهد، فكم أراد ماجد أن يعود ومعه والديّ دينا ليزداد حبًا في نظر حبيبته حين تعود مع آدم، وتعلم بدورها أنه كان سببًا في إعادتهما. أما الشق الثاني فلكي يكتشفوا من أي اتجاهٍ تأتي الخيانة؛ حيث يقوم ذلك المجهول بخطف هؤلاء البشر، ولكن تسرع ماجد في تنفيذ ذلك وفي الحقيقة لم يكن ينوون البدء في الوقت الحالي حتى يدرسوا خطةً محنكةً.

فهدف المهمة هو معرفة ذلك المجهول، وإقامة الحد عليه حيث لا يتجرأ أحدٌ أن يخون بشر أرض الظلام مرةً أخرى، وخاصةً إن كان من الآليين؛ فالبشر استضافوهم في أرضهم بعد ظهور الخطر الجديد بالأعلى الأكثر فتكًا.

وبعد مرور الكثير من الوقت حين لحق فهمي ووحيد إلى ماجد كان قد وصل إلى مدينة المعترضين، وبذلك سيكون أمام مريم لبلوغ وجهتها القليل من الوقت؛ لأنها أخذت طريق الشرق، وأيضًا مبادرتها بالسفر قبل لحاق فهمي ووحيد بماجد.

دلفوا داخل المدينة، رأوا في طريقهم الخائنين من البشر

المعترضين الذين كانوا تابعين لأيوب في السابق، كما أنهم أبصروا الآليين المستوطنين وهم لا يحبذون مَن تحت رحمتهم، البشر عامةً مسئولو المدينة من أقاربنا.

وأخيرًا، وقع في نظرهم عددٌ من أفراد قراصنة البحر، حيث لهم زيهم الخاص الذي يمتازون به عن غيرهم، وتلك القبعة مثلثة الشكل التي تعلو رؤوسهم.

دنوا نحوهم وسألوهم عن قائد القراصنة، فأخذوهم إلى وجهتهم إلى عبد الله القائد وأخيه الأصغر فارس؛ فهما أعلى رأسين في تلك المجموعة.

ولكن كانت هناك الصاعقة بانتظارهم، كانت هناك المفاجأة التي لم ولن يتوقعوها أبدًا؛ لقد جحظت عيون الثلاثة حتى آخرها، فما رأوه لا أحد منهم لا يستطيع تفسيره حتى لو بعد مئة عامٍ أخرى، لقد واجهوا أعظم خيانة تعرضوا لها منذ الحرب الكبرى منذ أكثر من مائة عامٍ... إنها خيانة سيخلدها التاريخ.

لقد كانت بجوار عبد الله وفارس واقفة.. واثبة.. شامخة، كأنها يملأ عينيها الشر الذي لا يعرف وجهته، مرتديةً عباءتها السوداء المعروفة ذات الغطاء الرأسي الذي ينسدل أمام جبهتها.

إنها الساحرة.. إنها مريم!!

* * *

قراصنة البحر

قبضوا على نوح وجرّوه إلى المسئولين، لقد أخذوه إلى ذات المبنى الذي كانت تتواجد فيه ريتاج، وهنا كانت الصدمة لنوح؛ لقد اندهش حين رأى ريتاج جالسةً أمامه على قيد الحياة، فكان يعتقد أنها انتهت -حين كانت ورامز مفقوديْن ويبحثون عنهما- نتيجة الخراب الذي تركته التنانين.

فقالت له:

- وفر من الاندهاش الذي تعلمته لحين ترى رامز أيضًا.

وهنا جحظت عيناه بالفعل؛ ففهم أن رامز لا زال على قيد الحياة أيضًا مثلها، فأردفت بقولها:

- إنه يزج صديقك البشري في سجن الظلام.

فقال نوح لها في غضبٍ:

- خائنون.

نهضت ريتاج بقوةٍ من مكانها، وقالت في غضبٍ عارم حتى درجة الرعب:

- أنتَ الخائن أيها المرتد، إنكَ تستحق مصير كل الخائنين الذين كانوا يسكنون هنا بالغرب.

ظلت النظرات بينهما لدقائق مشحونة بالغضب، والسخط، والشر حتى أردفت ريتاج:

- كما تعلم أيضًا إننا علمنا أنكما أتيتما للبحث عن الآلة، فتعلم

أيضًا أننا قادرون على تفكيك أجزاءك الآن، ونستخلص منك، ومن ذاكرتك نعرف من خلالها كل شيءٍ يخصكم حدث منذ عامٍ ونصف.

لقد كان نوح يعلم هذا بداخله، لكنه خشي أن يواجه ذلك بهذه السرعة، إنه محاصرٌ تمامًا ويعلم أنه لا يستطيع التغلب عليهم، كما أنهم قادرون حقًا على فعل هذا الأمر المشين فلا حول له ولا قوة.

ثم بعد دقائق أخرى، رأى رامز آتيًا إليه ويبدو أنه يدنو نحوه يريد فعل شيءٍ ما، فوصل عنده وقد قام بضربه بقبضته الحديدية في جبهته، فتلقى نوح هذه الضربة القوية كأن شيئًا بداخله قد تعرض للإتلاف.

وقد شارف رامز على ضربةٍ أخرى بقبضته، لكن استوقفته ريتاج وقالت:

- أريده في حالة اتصالٍ جيدة حتى يرى بعينيه هزيمة مَن فضّلهم على بني جنسه.

أريده أن يشاهد جزاء كل المرتدين التابعين له تتفكك أجزاءهم واحدًا تلو الآخر مثلما فعل لنا بالشمال.

وهنا اختار نوح أن يلعب على وترٍ آخر؛ حتى ينقذ نفسه فقال لهم:

- ليس هذا الوقت الذي نعادي فيه بعضنا؛ هناك خطرٌ جديدٌ أكثر فتكًا وقادرًا على دمار كل شيءٍ سواء بشر أو آليين.

أعربت ريتاج عن عدم اكتراثها، فلاحظ نوح ذلك واستطرد:

- هذا الوقت الذي يجب أن نتكاتف فيه كما فعل البشر، وجعلوا الآليين يستوطنون أرض الظلام خاصتهم وحموهم من خطر التنانين.

وأشارت إلى رامز في ذات عدم الاكتراث لما يقوله نوح، وقالت في حسمٍ:

- لا أثق بما سيخبرنا به بخصوص وجوده هنا بالغرب منذ عامٍ ونصف، وأمر السفر عبر الزمن؛ ولذلك...

ثم صمتت بغتةً ونظرت في عينيّ نوح، وهنا أعطت الأمر الذي لطالما خشاه الأخير، وقالت:

- انسخوا ذاكرته.

***

منعتهم الصدمة من أن يحركوا ساكنًا؛ لقد كان عبد الله الأخ الأكبر على اليسار، إنه يرتدي ذات القبعة المثلثة لكنها بلونٍ تميزه عن البقية لكونه القائد اللون الأزرق كمياه البحر الصافية، ينسدل من تحتها شعره المجعد الطويل الذي به القليل من الشعر الأبيض، لقد كان أسمر البشرة، ذا لحية كاملة طويلة سوداء مختلطة ببعض البياض، فتعطي اللون الرمادي القاتم الذي يوحي بأن صاحب هذا الوجه والحاجبين الكثّين لا يتعدى أواخر العقد الثالث من عمره.

وأخوه فارس الأصغر على اليمين ذو الوجه العابس الحانق على الدوام لكنه أكثر نضرةً من أخيه ذي البشرة البيضاء، والشعر القصير، واللحية الكاملة الخفيفة السوداء القاتمة، وعلى رأسه ذات القبعة الزرقاء لكونه القائد الثاني لهم؛ فيوحي شكله بأنه بأوائل العقد الثالث من عمره.

وسطهما مريم بعباءتها السوداء، وعلى الجانب الآخر وحيد على اليسار، وماجد على اليمين، ووسطهم فهمي، الفريقان في مواجهة بعضهما دون أن ينبسوا ببنت شفة. الفريق الأول يغلب عليه الشعور بالانتصار وتعلو وجوههم الابتسامة، والفريق الآخر لا شيء لديه سوى محاولتهم أن يستوعبوا ما يرونه أمامهم.

فبادر عبد الله بالحديث قائلًا:

- لقد نالت مدينتنا الشرف بحضوركم.

وهنا استنكر ماجد في غضبٍ:

- مدينتكم؟!

فأجاب فارس:

- نعم، إنها كذلك إلى حين نذهب إلى سفننا، هذا إذا كانت لا زالت موجودة.

أتبعه أخوه عبد الله عائدًا للحديث قائلًا:

- في الحقيقة إنها كانت فكرة أخي الأصغر فارس.

فاستنكر وحيد في غيظٍ:

- أي فكرةٍ حمقاء هذه؟

أجاب عبد الله:

- لقد كنتم سببًا في جلبنا إلى هنا لمساعدتكم في حربكم؛ ومن ثَمَّ حُجِزنَا هنا بالأسفل معكم في حياةٍ مليئةٍ بالظلام بسبب تلك التنانين، فلا نستطيع أن نعود إلى سفننا ونذهب إلى حياتنا حيث الهواء الطلق، والفراغ الشاسع، والشمس، والسماء، والبحر، وكل شيءٍ جميل غير موجود هنا.

ثم نظر حوله كأنه يعاين مدينته وأردف:

- إنها مدينة لا أكثر كهديةٍ بسيطةٍ لمجهودنا في حربٍ ليس لنا علاقة بها.

وفي هذه اللحظة تحدث أخيرًا فهمي قائلًا:

- لقد آمن آدم بالعوالم الأخرى، كنتُ أحاول جاهدًا أن أبعده عن تلك الفكرة.

ثم صمت لحظاتٍ وأردف بعد تفكيرٍ:

- تقول إنها حرب ليس لكم علاقة بها.

أليست حربًا كانت ستمحو كل البشر من على وجه؟! أليس من المفترض أنكم من البشر وأن هذا يتضمنكم؟!

صرخ فارس في وجوه الثلاثة قائلًا:

- لقد عاش أجدادنا وآباؤنا على سطح البحر منذ أكثر من مائة عامٍ، لماذا سيكتشفوننا الآن؟

أجاب ماجد في نفس الصياح الحاد:

- هذا ما كُنا نظنه أيضًا.

ثم لم يرد أحد من فريق القراصنة، فقال وحيد:

- إنكم لا تفهمون شيئًا.

أعرب عبد الله وفارس عن عدم اكتراثهما وقال الأول:

- لا تحاولوا أن تلعبوا مثل هذه اللعبة معي.

وفي هذه اللحظة نظر فهمي بنظرةٍ آسفةٍ إلى مريم؛ فلاحظ عبد الله وفارس ذلك فنظرا بدورهما إلى مريم، وهنا قال فهمي:

- اسألا مَن تقف في وسطكم.

ثم ضيّق عينيه ناظرًا نحو مريم بنظرةٍ يملؤها الرجاء، وأردف:

- أخبريهم أننا نتحدث الحقيقة.

أخبريهم أننا لا نحمل بداخلنا أي ضغينةٍ تجاههم.

أخبريهم أننا قدمنا لهم الحماية من خطر الشر الأعظم الذي يحوم بالأعلى.

فصرخ فارس الذي يبدو حاد الطباع مرةً أخرى في وجوههم وقال:

- إن مشكلتنا ليست معكم، إنها مع نوح الذي كان سببًا في مجيئنا إلى هنا، وحجزنا بالأسفل غير قادرين أن نعود إلى

حياتنا المعتادة، أما أنتم فلستم مطالبين لنا بشيءٍ سوى بهذه المدينة كمقابل لمجيئنا.

شُحِنَ وجوه الثلاثة فهمي، ووحيد، وماجد فنظروا جميعهم إلى مريم الصامتة التي لم تنبس ببنت شفةٍ منذ بداية الحوار بنظرة رجاءٍ كبيرٍ شاعرين بأن من حقهم معرفة ما يحدث بالضبط، ولكن مريم لا تبالي لأي نظرةٍ صادرة من عيونهم تجاهها حاملةً الكثير من التساؤلات.

فقال عبد الله وسط تلك النظرات الصماء:

- لقد أخبرتنا أنكم تبحثون عن مفقودين وعن الخائن المسئول عن ذلك.

فنظر له فهمي ثم أحاد بنظره مرةً أخرى إلى مريم كأنه يريد أن يقول لها أن من المفترض أن هذا سر كان بينهم، كما من المفترض ألا يعلموا قراصنة البحر بذلك فهم أول مَن يكونوا موضع شكٍ في هذا الأمر.

كما شعر وحيد وماجد بخيبة أملٍ لذلك، فقال ماجد في غضبٍ مختلط بالحزن موجهًا حديثه إلى مريم:

- إن حبيبتي ذهبت ولا أعرف مكانها، كما لا أعلم أنها ستعود أم لا، وكل هذا في سبيل وحدتنا وتكاتف البشر معًا ضد الذكاء الاصطناعي.

ثم أتبعه وحيد قائلًا إلى مريم في ذات خيبة الأمل والحزن المختلط بالغضب:

- صديقتك أيضًا وأحب الناس إلى قلبك راحت في سبيل ذلك؛ لإنقاذنا، وإنقاذك، وإنقاذ قراصنة البحر، وإنقاذ كل البشر ولا أعلم حتى إن كانت على قيد الحياة أم ماتت.

كانت مريم تنظر إليهم تستمع إلى كلامهم دون أن تهتز شعرةٌ واحدة من شعر رأسها، كأنها كالحجر لا تتلقى شيئًا.

فقال عبد الله:

- إننا شعبٌ اعتاد على المواجهة، وهذا ما جعلنا نستطيع أن نتغلب على أهوال البحر ومخاطره كل هذه السنين.

وأكبر دليلٍ على هذا مواجهتنا لكم الآن في استيلائنا على مدينتكم في أرضكم وأمام أعينكم.

فنحن لا نعرف شيئًا عن المفقودين ولا نخون أحدًا، ولكن لا زال الخصام بيننا قائم حتى نعود.

أتبعه أخوه فارس قائلًا:

- في الحقيقة إنها مدينة جميلة وقد نالت إعجابي؛ ولذلك إنني أفكر في الاستيلاء الدائم، وأن تصبح مدينتنا إلى مدى الأيام.

جحظت عيون الثلاثة لسماعهم لذلك؛ لأنهم لا يتوقعون أبدًا أن مَن يشاركونهم أرضهم بالاستيلاء عليها هم مِن البشر نفسهم وليس من الآليين كما هو مفترض.

وبعد أن قال فارس هذه الجملة ووسط ذهول الثلاثة نظر عبد الله إلى أخيه بنظرةٍ لا يفهمها أحد سوى فارس نفسه.

فأحاد عبد الله نظره نحو الثلاثة وقال لهم:

- اذهبوا وأخبروا نوح أن عليه أن يستعد؛ فهو لم يدفع المقابل بعد وعليه أن يواجه نتيجة كذبه علينا حين أفهمنا أنه بشري.

نظر فهمي إلى مريم نظرةً كانت بمثابة الأخيرة، كأنه يريد أن يخبرها أنه سيمضي الآن وإن كانت ستقول شيئًا تقوله الآن، ولكن... لا شيء.. لا شيء سوى الصمت، فولوا خلفهم ومضوا للذهاب وقبل أن يختفي طيف الثلاثة استوقفتهم الجملة التي سمعوها:

- ألم تخبرني أن أسيطر على اللعنة التي بداخلي وأحولها إلى نعمة؟

إنها مريم، أخيرًا قد تحدثت! نظر الثلاثة إليها فكان كلامها موجهًا إلى فهمي خصيصًا، فاستأنفت حديثها قائلةً:

- وها أنا أحاول أن أصوب الخطأ الذي تسببنا فيه، ذلك الخطأ كان سببًا في ظهور التنانين في كوكبنا، الخطأ أننا فكرنا في الصعود إلى الأعلى.

قال لها فهمي في أسفٍ:

- لو كنتُ عالِمًا بأن مريم التي تتحدث لكنتُ أجبتك، لكن ذلك الشر الذي بداخلك هو الذي يتحدث، وأريد أن أقول لكَ أننا لن نترك لكَ مريم.

ثم ذهبوا واختفى طيفهم دون أن تجيب مريم أو غيرها،

فقط الصمت عمَّ في أرجاء المكان.

وبعد؛ نظر عبد الله مرةً أخرى إلى أخيه فارس وسأله:

- ما هذه الثُّرهات التي تفوهت بها؟

نظر إليه فارس ولم يتحدث، ثم غادره دون أن يجيبه.

* * *

أركض وأركض، أنفاسي متقطعة، شيءٌ ما يطاردني، ولا زلتُ أركض، لا أستطيع التوقف، ذلك الشيء خلفي لن يتوقف أبدًا، لا أعرف لماذا يطاردني؟! لا أعلم السبب في اختياره لي خصيصًا دون البشر ليركض خلفي؛ فأنا لم أسلب منه شيئًا حتى يطاردني لأجله، كما أنني لم أره مِن قبل، ثم ما هي ماهية هذا المخلوق الذي يركض خلفي؟ وكيف أتى إلى هنا؟!

إنه غريبٌ.. غريبٌ للغاية رغم حجمه الذي بمثابة حجم الإنسان العادي، لكنه سريعٌ جدًا، سريعٌ لدرجة أنني لو لم أكن بدأتُ في الركض أولًا ما كانت المطاردة استمرت حتى الآن.

الغريب من كل هذا أنني ألمح كل مَن له علاقة بي إنه يشاهد الأحداث كالمتفرج، لا يفعل أحدٌ أي شيءٍ، ليس هناك أدنى مساعدة من أي أحد.

هناك نوح يترقب المشهد بتكنولوجيته المتطورة وأشعته فوق البنفسجية، وعلى الجانب الآخر خالي يشاهد كأنه يريد أن يعرف ما الذي سأفعله وكيف سأتصرف؟! كأنني في اختبارٍ وينتظر النتيجة هل سأنجح في أن أهرب بعيدًا عن ذلك

الكائن الغريب؟ أم سأكون فريسةً له؟

كما أنني أرى وحيد وماجد يشاهدان عن كثبٍ، لكن ألمح علامات البهجة مرسومةً على وجهيهما كأن السعادة تغمرهما؛ لأنهما يرانني خائفًا مرعوبًا. فبطبيعتي البشرية فهمتُ أنهما سعيدان لأنني في مثل تلك المحنة كعقابٍ لي؛ لأنني السبب فيما ما حدث لحبيبتيهما.

وهناك مريم باسطة ذراعيها مقفلة العينين، شاردة الفكر أو أنها تركز كل التركيز في أمورٍ أخرى، إنها تستدعي الدخان الأسود، لا أعرف إن كانت تفعل هذا لتساعدني أم لتعيق حركتي فلا أستطيع أن أركض بسرعةٍ كافية تجعلني أهرب بعيدًا عن هذا الكائن.

ثم أنظر أرضًا وسط كل هذه الأهوال، فأشاهد ابني يوسف وحيدًا ملقى على ظهره يجدف بذراعيه الصغيرين للأعلى ورجليه البيضاوين يبكي ويصرخ دون أدني مساعدة، وأنا عاجزٌ عن الذهاب إليه لكي أنتشله من الرعب الذي يشعر به.

الأغرب من كل هذا أنهم لا يختفون من أمام نظري، إنهم ثابتون في أماكنهم لا يركضون يشاهدون فقط، أنا فقط الذي يركض ومع ذلك لا يختفون من أنظاري، وهذا ليس طبيعيًا على الإطلاق.

شعرتُ لوهلةٍ أنني أخافهم أكثر مِن خوفي مِن هذا المخلوق الذي يطاردني، وكأنني الوحيد الذي أعافر من أجل البقاء حيًا من أجل شمل العائلة.. مِن أجل مقابلة كل قلبيْن عاشقيْن

معًا.. من أجل بقاء العنصر البشري في كوكبنا الأرض.

وبعد هذا الشعور المريب، شككتُ في حقيقة كل ما يحدث أمامي، وثم...

ثم لا أرى شيئًا على الإطلاق، كل شيءٍ اختفى لا أرى سوى الظلام.. الظلام فقط، وبعد لحظاتٍ أخرى دخلت أخيرًا أنفاسي بداخل صدري، وعلمتُ أنني فتحتُ جفنيّ للتو، وهنا فقط تيقنتُ أنني استيقظتُ من أسوأ كابوس حلمتُ به قط؛ فالمكان وحده كفيل أن يجعلني أفقد قواي العقلية، لا فقط أن أحلم بكابوس مرعب، يبدو أنه مرَّ يومٌ آخر دون جدوى؛ فنهضتُ هلعًا من وضعية نومي لكي لا أرى شيئًا.

***

- لما تساعدينا؟

سأل عبد الله مريم هذا السؤال، فأجابت:

- لم أساعدكم، بل أفعل ما أراه صائبًا، ثم إنهم قالوا لي أنهم مخطئون وسيفعلون المصائب التي ستدمر مستقبل البشر؛ فمهمتي أن أمنع ذلك.

عقد عبد الله حاجبيه فلم يفهم ما قالته مريم، فتساءل:

- قالوا لكِ؟!

مَن هؤلاء؟!

ومَن الذي سيدمر مستقبل البشر؟!

أجابت في ثقةٍ:

- عائلتي، لا بد وأن أمنعهم مما يفعلونه، لقد أخبرتني قوة الظلام بذلك.

استنكر عبد الله:

- قوة الظلام؟

وهنا كشَّرت مريم عن أنيابها، وأظهرت الغضب على وجهها وقالت:

- لا تفكر في أن تستنكر ذلك، إنها قوة قادرة على إنهائك في مكانك الآن.

ظهر الخوف على ملامح عبد الله وقال مستسلمًا:

- إذن، عليكِ استلام قيادة الدفة إلى حين ينتهي ذلك، وتستفيد جميع الأطراف.

وهنا ضيّقت مريم جفنيها وقالت في نظرةٍ ثاقبةٍ بعيدة المدى:

- سنصحح الأمور معًا.

نهض عبد الله من مكانه وقال لها:

- إذن، سأذهب إلى أخي محاولًا أن أعالج بعض الأمور العالقة بيننا على الرغم من أنني لا أرى أي أمورٍ من الأساس.

خرج عبد الله تاركًا مريم في ذات النظرة التي تحمل الكثير قاصدًا أخاه خارج هذا المسكن؛ فوجده يضرب شخصًا ما من

سكان المدينة... "المتهورون".

فدنا منه أخيه الأكبر، وبالكاد أفلته وأحجمه مما يفعله قائلًا:

- ألن تستطيع مرة واحدة أن تتحكم في انفعالاتك؟

فنظر الأصغر له وقال في نفورٍ:

- ألن تستطيع أنت أن تكف عن معاملتك لي كأني أخيك الصغير؟

ردَّ الأكبر متعجبًا:

- أليس أنت كذلك بالفعل؟

غضب الصغير ولم يجب بشيءٍ كأنه نافرٌ مما يقوله أخوه؛ فهمَّ على مغادرته مرةً أخرى، استوقفه أخوه وقال له:

- أليس من المفترض أن نعود في يومٍ ما إلى حياتنا المعتادة؟

توقف فارس وقال دون أن ينظر إلى أخيه:

- على سطح البحر.. إنها حياة بلا أرض.

ردَّ عبد الله:

- بل إنها حياة بها حياة.. لكن هنا في جوف الأرض.. إنها أرض بلا حياة.

ردَّ فارس ناظرًا إليه:

- هناك لا تستطيع أن تمتلك شيئًا.

فأجاب عبد الله:

- وهنا أيضًا حين تغتصب شيئًا ليس ملكك.

تنفس فارس الصعداء وفضّل السكوت غير مبالٍ، فأردف الكبير:

- تعلم يا أخي، أنني أحبك.

ردَّ فارس في عمقٍ:

- كما تعلم أنني أحبك أيضًا، لكننا دومًا لسا على اتفاق.

ضاق الحال بعبد الله الذي شعر لوهلةٍ أنه قد يؤول به هذا الأمر إلى خسارة أخيه الوحيد، فقال مستسلمًا:

- لكَ ما تريد يا أخي.

وهنا ابتسم فارس إلى أخيه ووجهه يعلوه نظرة انتصارٍ، فأردف الأخير:

- ولكن اعلم أنني لا أشعر بخيرٍ في ذلك؛ فالمرأة التي بالداخل.. إنها مجنونة حقًا، ومتهورة مثلك.

أجاب الصغير في ذات ابتسامة الانتصار:

- إذن، سنفعل الجنون.

* * *

لا زلتُ أحاول أن أهدئ من روعي بسبب ذلك الكابوس

المرعب والمخيف؛ فنهضتُ من فزعٍ لأرى الرعب بل بالأحرى لا أرى شيئًا على الإطلاق، لقد سلبوا نظري دون عَمَى.. سلبوا حياتي دون موت.. سلبوا حريتي دون قيود.. فلا أجد أمامي سوى الذكريات، هي الشيء الوحيد المتبقي لأستطيع أن أعيش عليه.. الذكريات ولا شيء آخر.

فشرعت أستحضر صورة حاضرة للماضي.. للعام والنصف، تلك الفترة التي أعتبرها أسوأ فترة في حياتي، إنها فترة تطلّبت مني أن أتقبل واقعًا قديمًا معتادًا أعيش في براثنه، إنه الوقت الذي كان من المفترض أن أواجه فيه هزيمة بعد انتصار ساحق في حربٍ مميتة، حياة قديمة نشاركها مع مَن كانوا أعدائنا في هذه الحرب.

إذا كان معي الآن حاسوبي لكنتُ بدأتُ فيما أعشقه كتابة مذكراتي، لكتبتُ ما حدث بعد ذلك، بعد أن صرختُ بأعلى صوتٍ أملكه حين قلت: "إلى أرض الظلاااااام". وأخذنا نركض نحو الفجوة التي صنعها وحيد وماجد مع جيش الجنوبيين؛ فهي الأقرب لنا الآن للهروب من نيران التنين، فمثلها في الشمال، الفجوة التي كانت الطريق للصعود إلى الأعلى لنحيا في عالمنا الأحق بنا؛ فهي الآن أيضًا الممر الوحيد الذي بمثابة الطريق الذي يحمينا من ذلك الخطر المميت إلى الأسفل؛ لنحيا في أرضٍ ليست من المفترض أن تكون أرضنا.

نهرول ونهرول، ما عادت الفجوة تكفي لمثل هذا العدد؛ فمنهم مَن هرب بعيدًا، وكان معظمهم مِن الآليين لعدم

معرفتهم بخبايا العالم السفلي، أو لرفضهم أن يعيشوا في مكانٍ واحد مع أعدائهم.. البشر.

وعند حافة الفجوة، عاودتُ تفكيري مرةً أخرى، وتيقنتُ تمامًا أنه ليس علينا أن نترك أعداءنا خلفنا، وهم يتمثلون في أيوب على رأسهم، ويليه شهاب، وريتاج، ورامز.

فقلت لهم في وسط الزحام والذعر ونيران التنانين:

- سأعود إليهم.

فردَّ فهمي في حماسٍ:

- إذن سآتي معك.

نظرتُ له ولكن لا وقت لأعترض أو أخبره بشيءٍ يجعله يرجع عن قراره، فأخبرتُ وحيد وماجد بجواري:

- قودا الطريق.. واحما الناس.. ولا تتركا أحدًا بالأعلى.

وهنا أقترح نوح أن يرافقني وخالي، وبالطبع رحبتُ بالفكرة.

- لن أتركك.

قالتها مريم في حزمٍ وإصرارٍ، فنظرتُ لها وأخبرتها:

- عليكِ أن تمسكي الدفة بدلًا عني الآن فأنا أثق بكِ، وأعلم أنكِ قادرة على فعل ذلك؛ فوجودك معهم سينقذهم من براثن تلك التنانين.

لا يبدو عليها الاقتناع ولكن لم تجد أمامها سوى أن تحترم

رغبتي؛ فبقت وشرعت تقود الناس والآليين معًا إلى الأسفل عبر الفجوة الضيقة الوحيدة.

أما نحن الثلاثة، أخذنا نركض بحذرٍ شديدٍ نتفادى وجود تنينٍ خلفنا فيلتهمنا أو يحرقنا، قصدنا ميدان الحرب حيث تركنا الآليين الثلاث شبه غير متصلين بدوائرهم المُحَرِكة وأيوب كان فاقدًا الوعي.

لكن ما أخشاه الآن أيوب وليس الآليين الثلاث، فهم سيبقون هكذا إذا لا يقترب أحد نحوهم ويقلّهم. أما أيوب فلن يبقى فاقدًا الوعي حتى الآن، لقد مضت ساعات كثيرة على ذلك.

لم نجد شيئًا في وسط الميدان، نبحث كالمجانين وتركيزنا مشتت بسبب التنانين التي تحوم أعلانا، وتظل في إخراج النيران من فمها أو التهام البعض.

دلفنا إلى داخل المباني مرةً أخرى، وفي وسط بحثي في أثاث تلك المباني والحجرات التي تحوى أشياء الآليين المتقدمة وجدتُ جهاز حاسوب محمول، فأخذته في يدي.

وبعد مرور ساعة من البحث، عثرنا على مَن استطعنا أن نجده، ولكن لا يزال ريتاج ورامز مفقودين، وليس هناك وقتًا كافيًا للبحث أكثر من ذلك؛ فحملنا على أكتافنا مَن وجدناه واحدًا على كتفي والآخر على كتفي نوح، أما الحاسوب لقد أعطيته لخالي.

وشرعنا في شق طريقنا إلى الخارج نحو الفجوة، ولكنها

بعيدة.. بعيدة جدًا.. بعيدة كل البعد لن نستطيع أن نصل إليها حاملين على أكتافنا هؤلاء، وفي نفس الوقت علينا أن نبلغ وجهتنا قبل وصول ذلك التنين الذي خلفنا إلينا، لا بد أن نكون أسرع من نيرانه التي تخرج متوهجة.

لكن أصبحت مشكلتنا أكبر من ذلك بكثير؛ فهناك تنين آخر يرفرف بأجنحته هناك في مرمى أبصارنا، أمامنا بالأعلى يشق الهواء يحاول الوصول إلينا.

فرميتُ بصري نحو هدفنا.. الفجوة؛ فوجدتُ مريم واثبة صامدة شامخة، تلك الفتاة التي لن تترك أحدًا أبدًا في مأزق.

وجدتها ناظرة نحونا ترانا نحن الثلاثة نحاول جاهدين أن نصل قبل نيران ذلك التنين الذي خلفنا وقبل وصول التنين الذي أمامنا، فلن تجد أمامها سوى أن تنقذنا بطريقتها الخاصة.

وكانت المفاجأة، لقد أغلقت عينيها وبسطت ذراعيها وبد في قول التعاويذ بحركة شفتيها البسيطة، واستطاعت بعد معاناةٍ وبعد جهادنا المميت أن تستحضر كل الدخان الذي أخلفته التنانين بواسطة النيران، ثم أصبح المكان ظلمة!

الظلام فقط.

لقد خلقت لنا سحابة كاملة كبيرة فوقنا تغطي بها أنظار التنانين عنا فتغشي أبصارها؛ مما أتيحت لنا الفرصة لشق طريقنا نحو الفجوة بسرعةٍ أكبر حتى وصلنا أخيرًا لوجهتنا ونزلنا بالأسفل.

وصار كل شيءٍ خلفنا دمار.. وصراخ.. وأجساد متقطعة.. وأجسام متفحمة.. لقد أصبح الشرق خرابًا.

وبعد أن تمكنا من النزول إلى الأسفل، رُحنا نريح مَن كانا على أكتافنا وكل الأنظار نحونا لمعرفة من هذان.

فوجدوا أن مَن كان على كتفي نوح هو شهاب، ومن كان على كتفي فهو أيوب بعينه.

وهنا توقفتُ من استحضار ذكرياتي وسط هذا الظلام الذي يسود هذا السجن، فكم تمنيتُ أن أدوّن ذلك في مذكراتي! ولكن كان هناك ما قطع علَيَّ ذلك سماعي لصوتٍ مخيفٍ آتى من بعيدٍ فبالكاد سمعته.. لقد كان زئيرًا!!

* * *

نوح

- ماذا سنفعل الآن؟

قالها ماجد متسائلًا أثناء سيره مع فهمي ووحيد أثناء خروجهم من مدينة المعترضين.

أجابه فهمي:

- لقد غضبنا منك بسبب أنك لم تستطع أن تحجّم رغبتك الجامحة في إيجاد والديّ دينا قبل أن يأتي بها آدم من رحلته، فرحتَ تركض كالمجنون دون أن تفكر.. دون أن يكون هناك خطة.. في وقتٍ كان عاجلًا لذلك بكثير، ولكن في الحقيقة لولا حدوث ذلك ما كُنا علمنا بما فعلته مريم.

ثم تبعه وحيد متسائلًا هو الآخر:

- معك حق.. ولكن ما التالي؟ ماذا سنفعل في هذه المصيبة؟

لم يجبه فهمي بل ظل في طريقه صامتًا يبدو على وجهه علامات التفكير؛ فهو لا يسمعه من الأساس.

استمرا في التساؤلات.. ماجد بدوره:

- كيف نتركهم يستولون على مدينة من مدن أرضنا.. أرض الظلام؟

ووحيد بدوره:

- هل سنحارب بعضنا البعض مرةً أخرى؟

ثم بالكاد سمعهما يتساءلان، فكان حديثهما بالنسبة له أنهما يتهامسان، وأخيرًا تحدث في رزانة:

- أتذكر حين قال آدم لنا منذ عامٍ ونصف قبيل الحرب: "ألا يجب أن نترك أرض الظلام مُعرضة للخراب، بل يجب أن نحافظ عليها؛ فهي بمثابة ملجأنا الأخير، لقد آوتنا أعوامًا كثيرة.

وبالفعل كانت ملجأنا حين تعرضنا لهجوم التنانين علينا بالأعلى، ولولا أرض الظلام لكُنا أجسادًا متفحمة أو أكلة دسمة للتنانين.

كما رفض قبيل رحلته للغرب في الأعلى منذ يومين أن يأخذنا معه؛ حرصًا على سلامة أرض الظلام من الخائنين.

كانا ينظران إليه في إنصاتٍ تام لحديثه الذي كان بمثابة تحفيزًا لهما، فسأل وحيد:

- إذن؟

أجاب فهمي قائلًا:

- علينا الآن أن نحقق رغبة آدم ونحافظ على أرضنا السفلية؛ فلقد كانت ولا زالت أرضًا آوتنا الكثير من الأعوام.

قال ماجد:

- إنني أتعجب من حالنا، لقد كُنا نحارب منذ عامٍ ونصف من أجل عالمنا العلوي والعودة إليه، ها نحن الآن نحارب من أجل الأرض التي رفضنا نمكث فيها إلى الأبد.

نظر فهمي إليهما في تحفزٍ وقال:

- ليس لديّ مشكلة أن أقضي بقية عمري هنا، المشكلة كانت ولا زالت لدى آدم وأنتما أيضًا، لدى الشباب عمومًا، لدى كل مَن يحلم ويريد مستقبلًا مشرقًا له. وبالطبع لن أعترض مع هذا المبدأ، ولكنني أتحدث عن الواقع الذي نواجهه الآن، إن أرض الظلام لا زالت بمثابة الأرض التي نعيش فيها وعلينا أن نحميها.

احتقنا بالتحفيز كما بدا عليهما وسأل وحيد في حماسٍ:

- هل نطلب المساعدة من شعبنا... المحافظين؟

أجاب فهمي في نظرةٍ ثاقبةٍ:

- الكثير من الشماليين يوالون لنا، لكننا لا نعرف مَن منهم خائن مثل أولئك الذين كانوا مسئولي المدينة في السابق، فلن أنسى أنهم أبرموا اتفاقًا مع أيوب مِن قبل ضدي وآدم، ورغم ذلك سأذهب إليهم.

تعجبا مما قال وتساءلا عن ذلك فأجابهما:

- هناك مَن بالشمال وواحد منهم لا يخوننا.

نظرا إليه في اهتمامٍ ينتظران أن يعرفا من يقصد، فأردف فهمي:

- المنفيون، أولئك مَن آمن بوجودهم آدم، مَن كانوا مسجونين عشرات السنوات بالأعلى تُجرى عليهم التجارب وتلك العمليات القذرة.

فقال ماجد:

- إنني بتُّ أعلم الآن أن لدى آدم دائمًا نظرة بعيدة المدى في كل شيءٍ.

فتبعه وحيد قائلًا:

- نعم، فكل شيءٍ اعتقد به كان لديه الحق فيه.

شعر فهمي بالفخر حين سمع هذا الثناء على ابن أخته الذي أعتبره دومًا ابنه الذي لم ينجبه.

ثم عاد ماجد يتساءل:

- كيف سيساعدنا المنفيون في أن نسترجع مدينتنا من أيدي القراصنة؟ فالقراصنة أقوى بكثيرٍ من المنفيين.

أجابه فهمي:

- معك حق إذا كُنا سنحارب، ولكن سنسترجعها دون سفك نقطة دمٍ واحدة من بني جنسنا، علينا أن نحافظ على هذه الأرض.

قال وحيد مساندًا في ذلك ماجد:

- ولكن لا زلنا بحاجةٍ إلى المزيد من المحالفين.

أجاب فهمي مباشرةً وكأن الرد كان مستعدًا له وفي حسبانه حين كان يفكر منذ قليل، فقال:

- وهذا ما سنفعله.

تساءلا عن كيفية فعل ذلك؛ فأجابهما:

- لن تكون مدينة المجانين في حسابنا لطالما لم تؤشر لهم مريم بذلك؛ فهي المسئولة الأولى والقائد الرئيس لهذه المدينة، وبناءً على ذلك سأذهب إلى مدينتنا قاصدًا المنفيين. أما أنتما ستذهبان إلى مدينة المتهورين لطلب المساعدة من المرتدين، فلن ننتظر نوح حين يعود بعد أن علمنا أن مريم لن تساعدنا.

وهنا في هذه اللحظة، افترق الأحبة بعد أن اتفقوا أن يتواصلوا بالرسائل على شرائح الاتصالات، وذلك بكلمة سرٍ معينة يتعرفوا بها على بعضهم.

ذهب فهمي شمالًا، وشق وحيد وماجد طريقهما نحو المدينة الوسطى.. مدينة المرتدين أو "المتهورين" سابقًا.

***

أخذوا نوح إلى مكانٍ مجهز وبه الكثير من الأجهزة المتطورة التي كان نوح على درايةٍ بها؛ لأنه رأى شبيهًا لها من قبل، إنها مثل تلك الأجهزة التي كانت تُستخدم في عمليات نقل البيانات من البشر إلى جسمٍ من الفولاذ، ليصبح فيما بعد الإنسان الآلي شبيه ذلك البشري الذي مات في كل شيءٍ ما عدا بعض الذكريات المعينة التي يتم حذفها، تلك التي قد تجعل الإنسان الآلي الحديث المصنوع تتضارب أفكاره الدفاعية الهجومية مع الأفكار البشرية؛ فيسقط جسمًا تالفاً غير صالح للاستخدام.

لقد كان رامز يقود الدفة في هذه العملية؛ فجعلوه ينام

على ظهره على أحد أسرّة الغرفة وربطوه بإحكامٍ بالسرير، وشرعوا في غرز بعض الإبر والأسلاك التي هي موصلة بالفعل من الطرف الآخر بأجهزة حديثة متطورة، تستقبل تلك البيانات التي يتم نسخها أو نقلها ويحولها ذلك الجهاز إلى ملفٍ إلكتروني ثم يتم حفظه؛ فهذه العملية تمر على أكثر من مرحلة، كل جهازٍ مسئولٍ عن مرحلةٍ معينة، ثم تستمر العملية تتابعًا على جميع الأجهزة حتى تصل إلى الجهاز الرئيس أكبرهم.

استسلم نوح إلى هذه العملية؛ بسبب أنه يعلم تمامًا أنه لن يستطيع أن يواجههم بمفرده؛ فهو وحيدٌ أمام العشرات منهم، فمَن كان برفقته في هذه الغرفة حوالي اثنا عشر آليًا، ثلاثة منهم يوصلون تلك الأسلاك، وخمسة مسئولو تلك الأجهزة التي تستقبل البيانات: واحدًا لنسخ المهارات، وآخر لنسخ المعلومات والأفكار، وثالث لنسخ النظام الدفاعي الهجومي لديه، والرابع لنسخ ما ورد في جهاز الاستقبال لديه، أما الخامس فهو مشرف على كل هذه الحالات على الجهاز الأكبر الذي يعتبر المحطة الأخيرة التي تصب فيه تلك العمليات فتتكون جميع المراحل لتكوّن بذلك الذكريات التي تُحفظ فيه، أما الأربعة البقية فكانوا الحراس الذين يحرسون الغرفة عن الباب.

لقد بدأت عملية النسخ بالتأكيد؛ فشرع نوح يعلم بذلك لأن حين يتم سحب أو نسخ الذكريات من أحد الآليين فإن يحدث شيئًا مريبًا في دائرته الكهربائية، كأن تم أخذ منها

شيءٍ بقوة دون تمهيدٍ لذلك، فتتعرض الدائرة الإلكترونية الخاصة به إلى الصدمة، وإذا استمرت هذه العملية أكثر من الوقت المفترض فإن الأجهزة والدائرة الإلكترونية والمَحركة لذلك الآلي تتعرض للإتلاف الأبدي؛ بمعنى أنه لا يستطيع أحد إعادته مرةً أخرى.

أخذ نوح يتأرجح يمينًا وشمالًا كأنه يحاول أن يستقبل تلك العملية أو تلك الصدمة التي يتعرض له كيانه الداخلي، ثم أُغلِقَت عيناه بسبب شدة التعارض الذي يحدث لدائرته الإلكترونية، وهنا بدأت ذكرياته تمر أمامه كأنها حاضر يشاهدها الآن.

وهنا وصلت العملية إلى نسبة 10% من 100%، وتستمر في التزايد مع استمرار العملية.

فتلك الصدمة التي تحدث بداخله كانت سببًا في إحداث تضارب بداخله، ولأن لم يتم تجهيز العملية بكفاءة قبل البدء فيها وهذا بسبب عامل الوقت الذي لم يكن في صالح الآليين إذا لم تبدأ العملية الآن، فتم إعادة الذكريات البشرية الأصلية للكائن البشري الذي يستحوذ نوح على بياناته.. نوح البشري، وهنا حدث التضارب بين الذكريات البشرية والآلية، التضارب الذي ليس من المفترض أن يحدث لأن يؤدي ذلك إلى إتلاف الدائرة كلها لصاحبها.

وصلت نسبة النسخ إلى 40%.

وهنا مر في دماغ نوح الإلكترونية نوعان من الذكريات،

وبسبب معرفة نوح الآلي بذكرياته فاختارت دماغه أن تركز في ذكريات نوح البشري؛ ذلك الرجل الصالح الذي كان يحب القراءة كثيرًا، نوح الذي كان يملك مكتبةً كبيرةً في بيته عام 2154م، وكان يتطلع إلى المعرفة والعلوم القديمة والحديثة، فلقد كان أستاذًا في الجامعة في علم النانو رغم صِغر سنه.

كما أنه ورغم شغفه بالثقافة والمعلومات إلا أنه كان عاشقًا للكلاسيكية، يهتم بالتكنولوجيا الحديثة، وعلم النانو، وتصنيع الروبوتات، ولكن كان ذلك من باب المعرفة بالشيء وبحكم عمله بالجامعة، فميله الأصلي هو الكلاسيكية؛ كان يسمع الأغاني القديمة، ويشاهد الأفلام السينمائية الكلاسيكية بالنسبة لعصره، ولا يحب أبدًا أن يقرأ ملفات إلكترونية على هاتفه المحمول المتطور أو على جهاز حاسوبه المحمول، لقد كان عاشقًا للكتب ورائحتها حين تقع بين يديه فيتلذذ في ملامسة خشونة أوراقها.

فربما كان ذلك سببًا في إنماء قضية نوح الآلي فيما بعد في هذا العصر الحالي.. الاهتمام بالبشر؛ لأن الآليين يمثلون التكنولوجيا التي كان يدرسها ويمقتها في ذات الوقت آنذاك.

ثم أخذت العملية في الاستمرار حتى وصلت 60 %.

ثم دخلت بغتةً ذكريات أخرى تضاربت من تلك الذكريات القديمة، ذكريات حديثة لم يمضِ عليها سوى عامٍ ونصف، حين ترك سارة ودينا في الغرب مع آلتهم الخاصة بالسفر عبر الزمن، وقال لهما شيئًا مثل هذه الجملة: "علَيّ أن أفعل شيئًا أولًا قبل أن أذهب إلى الحرب."

فورد في فكره عوالم أخرى، وتساءل ما إذا كان هناك غيرهم والبشريون يعيشون في هذا الكون السحيق، فجال في خاطره البحر الذي لم يجد سواه قد يفكر فيه متعلقًا بعوالم أخرى أو الكون السحيق.

فأخذ مركبته وفعَّل نظام النفاثات ثم الطيران بأقصى سرعة، فوصل في وقتٍ قليلٍ إلى البحر، ثم أكمل رحلته فوق المياه حتى وصل إلى منتصف البحر الذي ليس له نهاية، يراقب من بعيدٍ ما إذا كان هناك جزيرة ما، أو كهف، أو حتى أرض بها أنواع أخرى من البشر أو الكائنات الحية الأخرى بالنسبة لمفهومه الإلكتروني قد تساعد في هذه الحرب.

إنها 80%.

وأخيرًا بعد طول بحثٍ، وقع بصره على شيءٍ ليس مألوفًا بالنسبة له، أو إنه شيءٌ ليس من المفترض أن يكون موجودًا حسب المعلومات التي تم إدخالها سابقًا في تلك الدماغ الإلكترونية.

إنها سبعة أشياء تطفو فوق المياه، أو سبعة سفن كبيرة شاهقة تكفي للآلاف بداخلها تشق طريقها وسط أمواج البحر الهائجة، سفن بها الكثير من البشر كما فهم هو؛ فهناك من يأمر، وهناك مَن يُلبّي، وهناك من يلقونه في وسط البحر وكأن ذلك معاقبة لخطئه.

وبعد حين، انتبهوا لشيءٍ يطير أعلاهم؛ فتسمر الجميع يحملق بهذه المركبة التي بها نوح ينظر إليهم فخورًا ومتعجبًا

في نفس الوقت، متعجبًا مما لم يتوقع أن يراه، وفخورًا أنه وجد مثل كنز كبير أو قوة عظيمة قد تساعده في انتصار البشر على الآليين، وخصيصًا أنه على درايةٍ أنهم بشرٌ بسبب تفعيل أشعته فوق البنفسجية نحوهم، فاعتقد أن إقناعهم سيكون سهلًا؛ فكان مضطرًا أن يكذب عليهم ويجعلهم يفهمون أنه بشري مثلهم؛ لكي يبدو أكثر إقناعًا لهم فيوافقوا في إشراكهم الحرب.

فدنا بمركبته نحوه أحد السفن، فهبط على سطحها ثم ترجل منها وظن أن هؤلاء القوم لا بد وأن يكون لهم قائد؛ فسأل عن ذلك وطلب مقابلته حين علم بوجوده، فأخذوه إلى سفينةٍ أخرى. بعد أن علم أن هذه الجماعة تدعي نفسها قراصنة البحر، وهذا بسب حياتهم الدائمة على سطح البحر.

وتفاجأ هناك بأن ليس هناك قائد!

بل قائدان!

في الحقيقة إنهما أخوان.

لقد قابل للتو عبد الله وأخاه الأصغر فارس.

تجاوزت للتو 90 %.

وثم... وأثناء استمرار تقدم العملية في ال 10% الأخيرة، حدث شيءٌ جعل كل من في الغرفة ينتبهون لما يسمعونه.

لقد كان صوتًا مخيفًا جدًا.

صوتًا آتيًا من بعيد.

صوتًا سمعوه مِن قبل.

وصلت العملية إلى 95%.

فذعر أحد الآليين الموجودين بالغرفة من ذلك الصوت بتحركه حركة تلقائية لا إرادية؛ مما جعله يصطدم بأحد الأجهزة فيسقط على الأرض فتُقطع أحد الأسلاك، فتخرج أحد الإبر من دماغ نوح فتوقفت العملية عند 97%.

فلقد كان صوتًا مخيفًا.

إنه صوت زئيرٍ!!!

***

- كيف نترك مدينتنا في أيديهم؟! إنهم لا يفهمون ماذا يفعلون.

قالها رجلٌ ثلاثيني لاثنين آخرين، كان الأول أصغرهم.

الثلاثة هم مَن كانوا رؤساء مدينة المحافظين في السابق، وهم أنفسهم مَن عقدوا اتفاقًا مع أيوب لزج فهمي في السجن السفلي وإعدام آدم.

فردَّ الآخر الأربعيني وقال:

- لن نتركهم.. أليس كذلك؟

وجّه كلامه لأكبرهم الذي أصدر منذ عامٍ ونصف قراره بإعدام آدم.. إنه "صالح"، فنهض ذاك الأخير نهضته المعتادة من مكانه، وقال في حسمٍ كأنه لا يزال يشعر نفسه في

منصب القيادة، ولكن في الحقيقة هم الآن ليسوا إلا مواطنين عاديين مثلهم مثل أي أحدٍ من سكان مدينة المحافظين:

- لقد سمعتُ أن لا يوجد أحد منهم في المدينة.. هل هذا صحيح؟

أجاب الأول:

- لقد تناثرت الأخبار أن آدم بالأعلى يبحث عن أخته وصديقتها، أما فهمي ومَن معه قصدوا مدينة المعترضين.

تبعه الثاني قائلًا:

- وإن لم نتصرف الآن قبل عودتهم سنضيع على أنفسنا فرصةً لن تتكرر.

ضيّق الكبير جفنيه وقال في نفس الحسم:

- إذن، علينا أولًا أن نجمع قوتنا، ويحتشد كل مَن يريد الانضمام إلينا.

ثم رفع ذراعيه مشيرًا أن يكون ذلك سرًا؛ حتى لا تتسرب الأقاويل إلى مَن في صفهم.

بدأ الثلاثة ينفذون ذلك سرًا وسط سكان مدينة الشمال، ولقد نجحوا في ضم الكثير منهم، وإن لم يكن بالطريقة الخبيثة الكاذبة فيستخدمون التهديد.

صار عددهم ليس بقليلٍ في يومٍ ونصف بدءًا من الوقت حينما قام آدم برحلته إلى الأعلى حتى الوقت الحالي.

احتشد الجميع في مكانٍ ما سرًا بأرض الظلام بعيدًا عن الأعين، واتفقوا على أسوأ ما قد يحدث لآدم وجماعته، بل أبشع ما قد يحدث في تاريخ أرض الظلام.

فتقدم القائد الكبير "صالح" وقال في إصرارٍ:

- سنستولي على المدينة منهم، إنها مدينتنا ولن نتركها لهم، ويجب أن يتم هذا قبل عودتهم.

ثم نظر نحوهم جميعًا وأردف في نظرةٍ ثاقبة:

- وسنفعل ذلك بدءًا من القبض على مَن يكونوا أكثر ولاءً لهم..

سنقبض على جماعة المنفيين.

فسأل أحد الرؤساء الثلاث:

- كيف ذلك؟ رغم إننا أقوى منهم لكنهم أكثر منا.

تبعه القائد الثاني:

- ولا تنسى عامل الوقت الذي لا نملكه.

أجابهما صالح في صوتٍ جهوري موجّهًا إياه للحشد:

- سنطلب المساعدة مِن عدوهم اللدود.

ساد صمتٌ رهيبٌ عند سماعهم هذه الجملة ووجوههم تملؤها التساؤلات عن ماهية ذلك العدو، فأردف صالح:

- سنذهب إلى السجن السفلي وسنحرر أيوب.

* * *

أيوب

وصل فهمي إلى مدينته، فكانت الرحلة بين مدينة المعترضين ومدينة المحافظين قصيرة؛ وذلك لقصر المسافة بين المدينتين.

ترجّل من مركبته لأن أصبح الجميع الآن يستخدم مركبات الآليين وذلك بفضل المرتدي، فتفقد بيته وحال المدينة بشكلٍ عام، فلم يجد أي شيءٍ مريبٍ أو أي تغييرٍ قد طرأ على المدينة في غيابه.

فعاد إلى مركبته مرةً أخرى، وقصد المكان الذي استضافوا فيه جماعة المنفيين، ذلك المكان الذي يعتبر في وسط المدينة إلى حدٍ ما.

وحين وصل ترجّل من مركبته ودلف إلى داخل المساكن التي أصبحت الآن للمنفيين، ولكن...

ولكن وجد ما قد جعله متسمرًا مكانه، أخذ الأمر منه ثواني حتى شعر أن المكان هادئ يسوده صمتٌ عظيمٌ، ولج الشك بداخله هل ما يفكر فيه صحيحًا؟

فما وجده أنه لم يجد شيئًا، فلا أحد هناك، خرج من مسكن ليدخل الآخر، ولكن كانت نفس الصدمة!

المساكن فارغة! لا أحد هنا على الإطلاق، فما فكّر فيه حدث بالفعل لا وجود للمنفيين.

أين قد ذهبوا؟! هل تم قتلهم؟! أم تم اختطافهم مثل مَن

سبقوهم؟ وإن كانت عملية اختطاف فلماذا جماعية هذه المرة؟ أم حدث لهم شيئًا آخر لا أحد يعرف عنه شيئًا؟

كثيرًا من التساؤلات تدور في رأس فهمي، فاستغرق الأمر منه دقائق حتى يتقبله، ثم أعاد وعيه وعاد إلى مركبته.

وحينذاك قابله أحدهم كان من نفس العائلة ومن الأشخاص ذات الثقة؛ فبادر فهمي بالسؤال:

- لقد تغيبتُ عن المدينة منذ يومٍ ونصف، فهل هناك أي شيءٍ حدث؟ أين المنفيون؟

أجابه الرجل في توجس:

- لا يحدث شيء.. لا أعلم شيئًا عن المنفيين.. ربما هناك شيء قد أكون بالغث فيه.

توجس فهمي هو الآخر وسأل:

- ما هذا الشيء؟

أجاب الرجل:

- حسنًا، إنني حقًا لا أعلم شيئًا عن المنفيين، لكن رأيتُ منذ ساعاتٍ أحد الرؤساء السابقين بمفرده في الأرجاء.

جحظت عينا فهمي، وسرح قليلًا كأن الماضي استحضر نفسه مرةً أخرى أمام عينيه، فحين سمع كلمتي "الرؤساء السابقين" جالت في فكره أشياء كثيرة؛ مثل: رحلته مع مريم لهم، الخيانة، قرار إعدام آدم، المنفيون، عدم وجودهم الآن، السجن السفلي.

وهنا عند السجن السفلي تذكر أخطر شيءٍ على الإطلاق قد يكون موجودًا في أرض الظلام.

أيوب.. لقد تذكر أيوب ووجوده في السجن السفلي الآن؛ حيث تم سجنه هو وشهاب حين تم جلبهما من الأعلى، وأيضًا تذكر عدم وجود المنفيين جميعًا الآن في هذا التوقيت مع غياب المسئولين الحاليين، كما أنه نفس الوقت تم فيه رصد أحد الرؤساء القدامى.

لقد حدثت كل الأشياء في ذات الوقت؛ فإذن كل الأشياء مرتبطة ببعضها، وهنا شعر بكم الخطر الذي يلاحقه ويلاحق عائلته من كل جنب، وفكر لوهلةٍ في أيوب حتى بالكاد سمع ذلك الرجل الذي كان يقف معه، فكاد أن ينسى وجوده فقال في نفسه وهو مغادر الرجل:

- أيوب.. السجن السفلي.

عاد إلى مركبته سريعًا وقصد المكان الذي يتواجد فيه السجن السفلي، فجال في فكره أن الرؤساء هم من أخفوا المنفيين، وبالتالي سيؤدي تفكيره أن هم أيضًا المسئولون عن اختطاف المفقودين؛ فلم يجد أمامه سوى أن يفكر في خوفه مِن أن يتم إطلاق أخطر شخصٍ في أرض الظلام، ويعاد التعاون بينهم مرةً أخرى.

شق طريقه بالمركبة حتى وصل إلى السجن السفلي وترجّل سريعًا، وأخذ يركض حتى يلحق إن كان لا زال لم يطلقوا سراحه حتى هذه اللحظة.

لم ينتبه فهمي لوجود نفس الحراس الذين من المفترض أن يكونوا موجودين، كما أن أحدًا لم يوقفه عن شق طريقه إلى الداخل نحو السجن، فلو انتبه لكان علم بما سيراه بالداخل.

بلغ وجهته..

السجن السفلي أمامه، بالكاد يلتقط أنفاسه، يدنو نحوه بتؤدةٍ كأنه يخشى إذا اقترب أكثر فيجد السجن فارغًا وأيوب غير موجود.

ولكنه قرر أخيرًا أن يقترب، نظر أسفله حيث قضبان السجن، دنا نحوه، لامس تلك القضبان، وجد القفل في مكانه.

دقق النظر إلى الأسفل بداخل السجن الذي بمثابة الحفرة، وهنا تنفس الصعداء؛ لقد وجده في مكانه ينظر أعلاه ويقول له:

- أراكَ متقطع الأنفاس.

وفي هذه اللحظة، أخذ أخيرًا فهمي نفسه وأدخله إلى صدره وأخرجه في زفيرٍ ساكنٍ، ثم تحوّلت ملامح وجهه من القلق إلى الطمأنينة، فرسم على وجهه ابتسامة ساخرة وقال:

- هل تذكر حين كنتَ سببًا في وجودي هنا سابقًا مدة بلغت اليوم ونصف، وها الآن أنتَ مَن بالأسفل منذ عامٍ ونصف وأنا خارجٌ؟

ردَّ أيوب في نفس سخرية فهمي:

- هل تخشى خروجي لهذا الحد؟

أجاب أيوب في غِلٍ:

- إنكَ فقدتَ كيانك وكبريائك حين سُجنتَ هنا تحت أقدامنا لعامٍ ونصف.

هنا تحولت ملامح أيوب الساخرة إلى الغضب قائلًا:

- الزمن لن ينتهي لطالما أنا على قيد الحياة.

قال فهمي ساخرًا:

- هل تصدق نفسك حين تربط الزمن الذي ليس له مالك إلا الخالق بحياتك أيها المخلوق؟ أم تأمل في أن تخرج في يومٍ ما؟

نظر أيوب أعلاه في وسط عيني فهمي الذي ينظر إليه أسفله، وزمجر دون أن ينبس ببنت شفة، فزمجر أمامه فهمي واستمر هذا الوضع لثوانٍ حتى قال أيوب في غضبٍ:

- نصيحة لكَ: إياك أن تفكر في خروجي من هنا؛ لأن هذا سيعني موتكم جميعًا.

ردَّ فهمي:

- هل تريدني أن أقبل هذا التحدي؟ أتحسبني مغفلًا؟

قال أيوب في إصرارٍ:

- إذن، سأسترد مدينتي.. وسأجعلكم عبيدًا.

ثم أظهر على ملامح وجهه علامات الاشمئزاز، واستطرد:

- هل هذه حياتكم الجديدة التي تحاربون لأجلها.. تشاركونها

مع معدن؟

فأجابه فهمي مفتخرًا تعلو وجهه ابتسامة:

- فعلنا ذلك لنحميهم ونُظهر معدن البشر الحقيقي لذلك المعدن الذي تعاونتَ أنت معه سابقًا ضد بني جنسك.

قال أيوب:

- سأخرج وأعيد ذلك آلاف المرات.

أجابه فهمي:

- لن تخرج أبدًا.

وهنا زمجر أيوب مرةً أخرى أكثر شراسةً، وبادله في ذلك فهمي حتى استوقفهما الصوت الذي يقول:

- بل سيخرج اليوم.. والآن.

ذلك الصوت الذي صدر من خلف فهمي؛ فنظر نحو مصدر الصوت وكانت الصاعقة.

لقد رأى الحاكم السابق.. إنه صالح بنفسه! أتي ليطلق سراح أيوب وبرفقته العشرات من الرجال الأشداء الشماليين الخائنين التابعين له، وأردف في إصرارٍ وحسمٍ:

- سنطلق سراح أيوب.

وقف فهمي محملقًا في وجوههم جميعًا، محاولًا أن يصدق ما يحدث مِن حوله، البشر الذين من المفترض أن يتكاتفوا معًا لمواجهة أي خطرٍ يهدد بقاءهم يتمردون على بعضهم

البعض، ويواجهون بعضهم لفرض القوة والسيطرة! هل أصبح الواقع يجبرنا على إخراج تلك البشاعة التي تكمن بداخل بعضنا؟ أليس من المفترض أن نُجبر نحن الزمن لنُريه كل ما هو شارف على الانقراض من الإخلاص الذي لا زال موجودًا في القلة القليلة الباقية منا؟!!

استعاد فهمي رأسه من دوامة الافتراضات تلك بعد أن رآهم يقتربون نحو الزنزانة، وفتحوا قضبان السجن وأخرج أيوب بالفعل من سجنه، لقد خرج ومرَّ بجانبه ينظر في وسط عيني الأول وتعلو وجهه ابتسامة انتصار متعالية حتى السماء، وأمسكوا أيضًا بفهمي جروه إلى نفس الزنزانة، أخذوا منه شريحة اتصالاته، وأجبروه أن ينزل إلى الأسفل حتى يعاد الزمن مرةً أخرى ويصبح سجين السجن السفلي مرةً أخرى على أيدي نفس الأشخاص بنفس الطريقة التي لا تعبر سوى عن الخيانة.

ظل أيوب ناظرًا في عينيه ودنا نحوه وقال:

- أرأيتَ؟ لقد خرجتُ.. وأنت مَن بالداخل الآن.. لقد خضتَ التحدي دون أن تشعر ولقد كسبتُه.

ثم رسم ابتسامةً أخرى لكنها ساخرة وأردف:

- لن يكون يومًا ونصف.. أو حتى عام ونصف.. ستكون تحت أقدامنا حتى موتك متعفنًا هنا بالأسفل.

تبعه صالح الذي دنا هو الآخر نحو قضبان السجن ناظرًا إلى الأسفل نحو فهمي قائلًا:

- سنعيد مدينتنا.. ونفرض سيطرتنا عليها.

كان فهمي منكسرًا بالأسفل.. عاجزًا.. آسفًا.. دامعًا دون أن ينبس بحرفٍ. فقال له أيوب:

- كما سأعيد مدينتيّ.

هنا ابتسم فهمي قائلًا إلى أيوب:

- ربما سيستولي صالح على مدينته لكنك لن تستطيع؛ فالأمر مختلف معك فمدينة المتهورين أصبحت الآن بؤرة آليين، ويمسك زمامها المرتدون، أما مدينتك فاستولى عليها بالفعل جماعة القراصنة.

تحولت ملامح أيوب إلى الغضب والزمجرة فكشّر على أنيابه وقال في تهديدٍ:

- ستموتون جميعًا.

وهنا نظر صالح إلى أيوب وبادله الأخير ذلك، فتساءل الأول:

- ما العمل الآن؟

أخذ أيوب في التفكير تعلو وجه نظرةٌ ثاقبةٌ، ثم أجاب قائلًا:

- سنطلق سراح شهاب.

***

لقد كانت ريتاج جالسة في أحد الأماكن التي تشغلها كل

الأجهزة الحديثة المتطورة ومعها أربعة حراس من الآليين مثلها، وفي أيديها شريحتي الاتصال الخاصة بآدم ونوح، فلها الكثير من الوقت ترسل الرسائل إلى فهمي، ووحيد، وماجد؛ لكي تعرف أي شيءٍ ذي فائدة ولكن دون جدوى، لا يجيب أحدٌ منهم على تلك الرسائل، فقالت في نفسها: "لا بد وأن علموا الدرس من المرة السابقة، أو ربما هناك كلمة سر معينة متفق عليها ليعلموا منها أنهم هم بالفعل مَن يتراسلون ببعضهم."

ثم أخذت تفكر في أن لو هذا صحيحٌ ورأوا تلك الرسائل التي ترسلها لهم منذ وقت، فمن المتوقع أنهم يعلمون الآن أن شريحتي اتصالات آدم ونوح في أيدي آخرين، ولربما يعلمون المكان من خلال اتباع الموقع الجغرافي، ولربما تأتي المساعدة في أي وقت. وهنا نهضت من مكانها بشكلٍ مباغت كأنها تشعر بالخطر، وأتلفت الشريحتين وحسمت أن لا بد من الاستعداد لأي مواجهة قد تحدث.

ولكن وقبل أن تصدر أي قرارٍ لقد سمعت ذاك الصوت المخيف الذي يبدو آتيًا من بعيدٍ بالخارج؛ فانتبهت وعلمت أن هناك خطرًا يحوم بالخارج.

لقد كان صوت زئير!!

***

لقد وصل وحيد وماجد إلى مدينة المتهورين أو المرتدين حاليًا، ولقد لاحظا أن هناك كمًا من الرسائل تنهال على

شريحتي اتصالاتهما من آدم ونوح، ولكن ليس كلمة السر المتفق عليها؛ فعلما أن آدم ونوح قد يكونا في خطرٍ بالأعلى فقررا أن يتراسلان مع فهمي؛ فأرسلا له الرسائل التي وصلت إلى شريحة اتصالات فهمي التي هي الآن في أيدي أيوب الذي يقرأ الرسائل الواردة؛ فعلم أن آدم بالأعلى برفقة نوح، كما أنه قرأ الرسائل السابقة التي وردت من آدم ونوح ولكن في الحقيقة كانت من ريتاج، وبطبيعة الحال لا يعلم أيوب بذلك.

فقرر أن يفعل نفس الفعل الذي فعله منذ عامٍ ونصف؛ فأرسل الرسائل إلى الأربعة، إلى وحيد وماجد اللذيْن قرآ الرسائل لكن دون كلمة السر؛ فعلما أن فهمي أيضًا في خطر بالشمال. وهنا ظهر القلق عليهما وقررا أن يسرعا في إنجاز المهمة الموكليْن بها، وهي حشد المرتدين معهما لاسترجاع أرض الظلام.

كما أرسل إلى آدم ونوح، إلى الشريحتين اللتين كانتا بحوزة ريتاج، ولكن لقد أتلفتهما؛ فما مِن رسائل حيث كانت ريتاج تسمع الآن صوت ذلك الزئير المخيف، فخرجت قاصدةً الرؤية بالخارج لمعرفة مصدر ذلك الصوت المخيف الذي يبدو مألوفًا لديها.

* * *

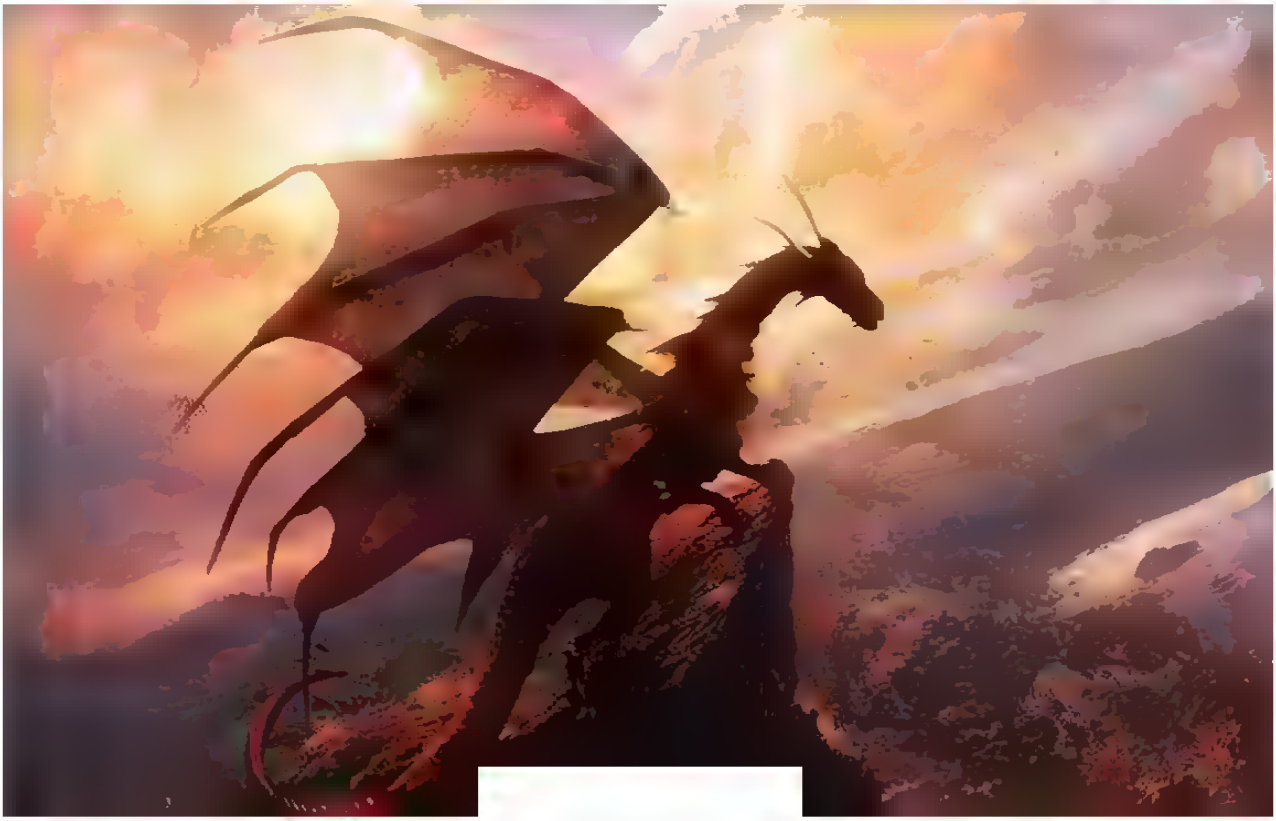

الضباب الأسود

تيقظتُ عند سماعي هذا الصوت المخيف المرعب الذي أعرف ماهيته تمام المعرفة، لقد اعتادت أذنيّ تسمعه منذ عامٍ ونصف، دائمًا يحوم أعلانا حيث نسكن أرض الظلام.

إنه بالتأكيد صوت تنين!

اندهشتُ عند سماعي صوت ذلك التنين، ولكن سبب اندهاشي ليس لأنه صوت تنين بل لأنه صوت تنين بالغرب، فما عرفناه مؤخرًا أن ليس هناك تنانين بالغرب.. فما الذي أتى بها إلى هنا؟

هل لحق بنا التنينان اللذان كانا برفقتنا أثناء رحلتنا إلى هنا؟ هل وضع خلافهما بالجوار الذي كنتُ ونوح سببًا فيه، وعلما أننا هربنا بعيدًا فتبعانا إلى هنا، وقررا أن يظهرا الآن؟

هل هذا ممكن؟ هل هذا تنين بالفعل؟ أم تخونني أذني؟

تساؤلات كثيرة تدور في رأسي بسبب صوت التنين الذي أسمعه الآن؛ فيبدو لا يزال يحوم بالخارج عاليًا يبحث عن فريسةٍ ما.

نهضتُ من مكاني وليس هناك حاسة بي تفعل وظيفتها في هذا الفراغ المظلم سوى أذني، فركزتُ أن تفعل وظيفتها بجهدٍ أكثر لأنصتُ إلى صوت الزئير فأعلم من أي اتجاهٍ.. ولكن حدث شيءٌ آخر.

لقد تغيّر ذلك الصوت ليصبح صوتًا آخر أكثر ألفةً.. إنها

صوت نيران؛ فتأكدتُ حينها أنه تنينٌ بالفعل يحوم في سمانا، إنه ينفث النيران الآن على بعض الآليين.

أصوات كثيرة أسمعها بالخارج، خطوات الأرجل غير المنتظمة فتبدو كهرولةٍ وذعرٍ يحدثا بالخارج بين الآليين.

ما يجعلني غاضبًا الآن هو مكوثي هنا لا أرى شيئًا، ولا أفعل شيئًا سوى السمع.. السمع فقط، فرغم أنني أعلم أن ما يحدث بالخارج يعني خطرًا وخيمًا إلا أنني لا أفضل أن أمكث هنا بالداخل وسط هذا الظلام الحالك لا أفعل أي شيءٍ على الإطلاق.

إنني غاضبٌ جدًا، اقتربتُ نحو الباب الذي لا أراه إنما أتحسسه بيدي، وشرعتُ أطرقُ عليه بكل قوتي.. قوتي التي ليست مثل قوة البشر العاديين، وهذا ما أعرب الباب به حين كان يهتز بقوة في كل قبضةٍ أوجهها له، فكم أريد أن أدمر هذا الباب بقبضتي لكنه كان أكثر صمودًا، فلن تصمد قوتي أمام تلك الصلابة التي صُنِعَ بها الباب.. والسجن بشكلٍ عام.

فلا أحد يجيب.

وفي وسط غضبي الهائج وضرباتي الثائرة سمعتُ صوتًا آخر، إنه صوتٌ غير مألوفٍ هذه المرة فتوقفتُ عما أفعله بذلك الباب لأتمعن فيما أسمعه؛ فوجدته أنه صوتٌ قريبٌ جدًا، في الحقيقة إنه بداخل السجن.. معي في ذلك الظلام! التفتُ حولي لأرى أو لكي لا أرى مصدر ذلك الصوت.

دققتُ سمعي أكثر... إنه صوت حشرجةٍ غير واضح؛

فشرعتُ أفكر في ماهية هذا الصوت، وبعد ثوانٍ قليلة علمتُ أن صوت الحشرجة يفعله ذلك الجهاز.

نعم، إنه الجهاز الصغير الذي أعطاني إياه نوح في بداية رحلتنا، وأخبرني أن أدسه في مكانٍ أكثر خفية، فوضعته تحت قميصي عند أعلى الذراع تحت الإبط.

بدأ الصوت في الوضوح حتى تيقن لي أنه صوت نوح، نعم، إنه صوت نوح بالتأكيد، سمعته يردد اسمي ويتساءل ما إذا أسمعه أم لا؟

هنا في هذه اللحظة أجبتُ نوح عن طريق ذلك الجهاز بلهفةٍ وقلتُ له:

- نوح! نوح! إنني أسمعك.. أسمعك جيدًا.

سأل نوح عن طريق ذلك الجهاز:

- أين أنت؟

أجبته:

- لا أعلم، لقد نقلوني في مركبةٍ، يبدو أنني بعيدٌ عن الغرب.

سأل محاولًا أن يتعرف على مكاني:

- ماذا ترى حولك حتى أخمن أين قد تكون؟

أجبته في أسفٍ:

- في الحقيقة إنني لا أرى شيئًا على الإطلاق؛ لقد زجوني في سجنٍ ليس به سوى الظلام القاتم، فلا أستطيع حتى أن

أرى إصبع يدي.

صمت نوح قليلًا كأنه لم يكن يتوقع شيئًا مثل هذا، فأردفتُ:

- أخبرني أنت ماذا حدث لكَ؟

أجابني:

- إنها قصة طويلة سأخ..

وهنا لم أسمع شيئًا، لقد أكمل هو جملته لكنني لم أسمعها بسبب صوت الزئير الذي أصبح أكثر قربًا من قبل؛ فأخبرته:

- معذرةً لم أسمعك؛ فيبدو أن هناك تنينًا بالجوار.

قال نوح في لحظة:

- لحظة! هل تسمع ذلك الصوت؟

أجبته عاقدًا حاجبي:

- نعم، بكل وض...

لم أستكمل هذه الجملة بل أردفتُ له:

- لحظة، هل أنت تسمعه؟

فكرتُ بسرعةٍ واستطردتُ:

- هذا يعني أننا في نفس المكان، أخبرني أين مكانك؟

أجابني نوح بوصف المكان بالخارج، وحين أخبرني بذلك تذكرتُ ملامح المبنى الذي دخلته أثناء بحثي عن آلة زمنٍ

حيثما قبضوا علَيّ، وهنا انتبهتُ بغتةً وقلتُ له في لهفةٍ:

- نوح، اسمع لقد جعلوني أن أصدق أنهم نقلوني في مكانٍ بعيد، إنني في ذات المبنى. حاول أن تبحث عن مكانٍ به ممر طويل كالسرداب به منحنيات وينتهي عند بوابة كبيرة صلبة وقوية للغاية، كأنها بوابة لسجنٍ صارم الأمان، فلا يستطيع أحد الهروب منه أو اختراقه، إنني مسجون بالداخل.

تلقى نوح الوصف الذي وصفته، أو الذي ظللتُ وضعه في حسباني حين كانوا يغشون نظري لينقلوني إلى هذا السجن.

وبعد مرور ثلاثين دقيقة، كان يبحث فيها نوح عن المكان الذي وصفته له، يبدو أنه يواجه صعوباتٍ في ذلك؛ فعليه أن يجد المكان وفي نفس الوقت يتوارى عن أنظار الآليين الذين كانوا أكثر انشغالًا بالتنين الذي يحوم بالخارج.

أخيرًا، سمعتُ صوته خلف هذا الباب الضخم ينادي اسمي فأجبته، وبالتالي علم أنني بالداخل فأخبرني أن أبعد قدر ما استطعت عن الباب، فنفذتُ ذلك.

وبعد دقائق، كان الباب متهدمًا، وعبارة عن كومةٍ من الأنقاض الصغيرة تاركًا خلفه كثيرًا من التراب الذي كان ينجلي شيئًا فشيئًا حتى وجدتُ نفسي أغشي عيني من ذلك الضوء الباهر الذي لا تستطيع أن أبصره. في الحقيقة لم يكن باهرًا، لكن هذا ما تفعله العين حين ترى ضوءًا بغتةً بعد أن اعتادت على الظلام الدامس، بعد قليلٍ شرعتُ أزيح يدي عن بصري رويدًا رويدًا فأبصرتُ نوح واثبًا ممسكًا بيده سلاحًا

ثقيلًا يبدو أنه السبب في هدم ذلك الباب.

ركضتُ نحوه بالخارج مندهشًا من ذلك السلاح، فقلتُ له:

- يبدو أن الحرب ستتجدد مع أسلحةٍ أكثر فتكًا.

أومأ لي كأنه يوافق رأيي فقلتُ:

- لا أعرف ما المدة التي قضيناها هنا.

فأجابني:

- إننا في نهاية اليوم الثاني منذ قيامنا بالرحلة.

قلت له مستنتجًا من كلامه:

- نهاية يوم؟ هل هذا يعني أنني خرجتُ من ظلامٍ لأذهب إلى ظلامٍ آخر! حتى وإن كُنا بالأعلى فيجب أن نخبر أنفسنا أننا بعالم بلا شمس.

مررنا بذلك الممر الطويل اللعين لنشق طريقنا بالخارج ونوح ممسكٌ بسلاحه، يبدو أن المبنى كالمتاهة به كثيرٌ من الممرات والأبواب والحجرات، وأثناء طريقنا للخارج لمحتُ بجانبي بطرف عيني بابًا به منفذ شفاف لحجرةٍ تحمل الكثير من الأسرار.

وهنا تذكرتُ الماضي، تذكرتُ ما كنتُ أفعله حين كنتُ أصعد للأعلى لتنفيذ المهام.

توقفتُ بغتةً فاستوقفتُ بذلك نوح الذي كان يسير أمامي، ووجّهتُ نظري نحو ذلك الباب أو نحو تلك الحجرة،

فاختلستُ النظر من خلال تلك النافذة الصغيرة وهنا كانت الصدمة.

فما رأيته كان بالنسبة لي بمثابة أكبر من تخيلات أي بشري أو آلي؛ لأن نوح نفسه كأنه تفاجأ بما رآه، فأنا أقف الآن لا أستطيع أن أجد وصفًا أصف به ذلك، لا أعرف ما إذا كان هذا مرعبًا؟ أم خطيرًا.. أم مستحيلًا.. أم أي شيءٍ هذا؟ فما أعرفه حقًا أنني الآن أشعر باختناقٍ.. اختناقٍ يعتصرني فيكاد أن يقتلني.

لأن هذا يعني أن كل شيء حاربتُ من أجله ليس له قيمة أمام ما تراه عيني!

لقد رأيتُ العشرات من الآليين المصابين ذوي أشيائهم المعقدة المفككة والتالفة والتي راح ملامحها وكأنهم خارجون من حربٍ طاحنة، وكأنهم تحت تجارب عمليات معينة؛ فحولهم الكثير من الأجهزة، والوصلات، والأشياء المعقدة، وكل آلي بجانبه أخر يشبهه كثيرًا.

ولكن ليس هذا سبب صدمتي.

السبب الذي جعلني أشعر بذلك الشعور هو أنني رأيتُ وسط هذه الروبوتات واحدًا مِمَن أعرفه جيدًا، روبوت جامد ساكن مكانه تُجرى عليه العمليات أو التجارب فما زال لم يستعد وعيه.

إنني أرى يارا تلك الآلية التي كنتُ ولا زلتُ أعجب بجمالها.

نعم، إنها يارا، إنني تيقنتُ منها حين تفاجأ نوح أيضًا بذلك،

في الحقيقة إنهما اثنان يارا وبجانبها آلي آخر يشبهها جدًا، وكأن ذلك الآلي الآخر يسرق من الأصل الأول ملامحه وكل شيءٍ يخص كيانها، ثم دققتُ النظر أكثر فرأيتُ أن كل آلي بجواره مَن يشبهه في كل شيءٍ! فسألته في اندهاشٍ:

- ما معنى ذلك؟

أجابني في أسفٍ:

- إنهم يستنسخون مَن تُلِفَت أجزاؤه في الحرب.

وهنا جحظت عيناي لأن لهذا السبب شعرت بذلك الشعور، وأدركتُ بداخلي أن كل ما حاربتُ من أجله ليس له قيمة؛ إنني أرى الجريمة التي كانت محرمة في الزمن القديم.. إنه الاستنساخ، فكان أقصى هذه العملية يجرونها على الحيوانات فقط، إنما كانت محرمة على البشر، وها الآن أرى أنهم يفعلون تلك الجريمة على الآليين، وكأننا لم ننتصر في حربنا تلك، فما أراه الآن يعني أن أعدادهم ستستمر في الزيادة دون وجود البشر، وانقراض الجنس البشري أمام تلك الأعداد التي لن تقل أبدًا.

انتشلني نوح بغتةً من أفكاري حين شدَّ ذراعي وحثني على التحرك قبل أن يتم اكتشافنا، يريدني أن آخذ منه ذلك الشيء الفتاك قائلًا لي:

- يجب أن نأخذ هذا السلاح لكَ للدفاع عن نفسك في حالة تم الهجوم علينا.

أخذتُ منه السلاح دون أن أدري، فما يشغلني الآن ما رأيته

منذ دقائق، ما شغلني الآن مستقبل أرض الظلام .. مستقبل البشر.. رغبتنا في العودة للعالم العلوي يومًا ما.

هل كل شيء أصبح رمادًا؟

ذهبتُ مع نوح الذي كان يضرب ويفكك أجزاء أي آلي يعترض طريقه دون أدنى مساعدة مني، وكأنني لا أرى ما يدور حولي من ذعر الآليين وزئير التنين ونيرانه، فأعلم أنني في عالمٍ آخر من التفكير، والقلق، والخوف مما يكمن هناك ولا أحد يدري به.

حتى أصبحنا بالخارج، وهنا انتبهتُ حين رأيتُ تنينين: أحدهما يطير في الهواء بأجنحته لا يتوقف أبدًا من إخراج النيران من جوفه؛ ليحرق كل ما يقابله في طريقه من آليين أو مبانٍ كانت جميلة. والآخر يركض أرضًا، ويعلو زئيره الحاد وكأنه غاضبٌ أنه لا يجد أي وجبةٍ له يلتهمها، فلا وجود للبشر سواي.

بالكاد لاحظتُ أن ذلك التنين الذي يبعد عني عشرات الأمتار نظر نحوي وكأنه علم أو شم رائحة بشري بالجوار؛ فأخذ يشق طريقه نحوي يقترب نحوي، فينادي نوح اسمي ليحثني بذلك الخطر القادم نحوي.

رأيتُ أيضًا ريتاج ورامز بمكانٍ ما بالخارج يتواران خلف أحد المباني يراقبان ما يحدث؛ فهناك الآليين على الجانب الآخر يوجهون أسلحتهم الفتاكة نحو هذين التنينين ولكن بلا جدوى، فأسلحتهم المتطورة لا تفعل شيئًا في التنين.

لا يزال يحثني نوح بعزم صوته لأعود عن طريق ذلك التنين المرعب الذي عثر أخيرًا على وجبة.

ولكن لا زلتُ في العالم الآخر من الأفكار.. لا زلتُ أشعر بذلك الشعور الشيء بمستقبل الجنس البشري.. لا زالتُ أشعر بالاختناق الذي يعتصرني.

نعم، أستطيع أن أقولها الآن أنني حزين كل الحزن، آسفٌ على الحرب التي أنهكتنا وقتلت منا أرواحًا عديدة دون مقابل، فلا زلنا بالعالم السفلي، ولا زال العالم الآلي تزداد أعداده وتقوى قوته، وسيصبحون هم الخطر الحقيقي لا التنانين، إنني حزين كل الحزن لذلك.

أوشك التنين على الوصول.

فكل شيءٍ حاربنا لأجله أصبح الآن بلا قيمة، رمادًا بعد حريق.

لا يبعد التنين عني سوى القليل من الأمتار.

فكرت أيضًا في العالم العلوي الذي لن يدوم طويلًا بوجود تلك التنانين المميتة به؛ ولذلك أصبحتُ أرى أن لا مستقبل للبشر في العالم السفلي أو العالم العلوي.

وهنا في وسط أحزاني ركعتُ على ركبتيّ ودمعت عيناي.

لاحظ نوح ذلك؛ فعلم ما التالي، لقد أبعد نفسه عني وأصبح خلفي؛ لأنه أدرك ما الذي سيحدث بعد ثوانٍ.

شعرتُ بغضبٍ وقوةٍ تريدني أن أدمر كل شيءٍ أمامي، لقد

كتمتُ كل هذا الحزن ثم أطلقته.

أطلقته في صرخةٍ قاتلةٍ مميتةٍ دمرت كل شيءٍ أمامها.

لقد أطلقتُ قوتي الخارقة، أطلقتُ ذلك الإعصار الذي لم يترك شيئًا مرَّ به إلا وكان خرابًا.

لقد دوت الصرخة وتركت أثرًا حتى مسافة خمسين مترًا أمامي؛ فنتج عن ذلك هروب كل مَن تبقى من الآليين ومِن ضمنهم ريتاج ورامز، وهلك ذلك التنين الذي كان يقترب نحوي ليلتهمني فالتهمته أولًا لقد مزقته قواي، أما التنين الآخر فاستطاع أن يهرب بعيدًا.

فلا شيء هنا سوى الضباب الذي نتج عن ذلك الدمار، ثم هدأتُ.. وهدأ معي الإعصار وهدأ كل شيء، حتى اقترب نوح نحوي آتيًا من خلفي وبتؤدةٍ أمسك ذراعي حذرًا، وقال لي:

- يبدو أن قوتك هي السلاح الوحيد الذي ستفتك بتلك التنانين.

نهضتُ من مكاني ونظرت حولي، نحو ما تركته قواي، ثم نظرتُ في عينيه وأخبرته بكل حزنٍ:

- إنها تفتك بكل شيءٍ يا صديقي، إنها حقًا لعنة.

قال لي:

- لا تنسى أنها أنقذتك للتو.

أجبته ناظرًا نحو السماء:

- هذا لأن ليس هناك شمس.

لقد حكى نوح لي ما حدث معه وخصيصًا الجزء الخاص بنسخ الذاكرة، وبالطبع لم أتفاجأ من ذلك؛ فما رأيته منذ وصولي هنا لم يجعلني أتفاجأ بهذا الموضوع.

وشرعتُ أفكر في وجودي في الظلام فترةً تقترب إلى أكثر من يومين، ولولا وصول التنينين إلى هنا لكانوا أكملوا عملية نسخ الذاكرة، ولكانوا علموا بكل شيءٍ يخص أرض الظلام، وما كان نوح استطاع أن ينقذ نفسه منهم؛ وبالتالي ما كنتُ أخرج من سجن الظلام هذا.

أريد أن أخبر نفسي أن التنانين التي تعتبر عدونا الرئيس هي التي أنقذتني وأنقذت نوح.

وها أنا أقتل واحدًا منهم بكل بساطةٍ، بالطبع لا أفتخر بكوني قادرًا على قتل تنين، ولكن أجد لنفسي مبررًا في إن لم أكن حينها حزينًا غاضبًا لكنتُ الآن وجبةً في بطن ذلك التنين.

هيهات حين انتبهتُ بالكاد من نوح بجواري يسألني ما بي، فأجبته بالنفي وقلت له:

- يجب أن نكمل المهمة التي أتينا لأجلها.

نظر نوح حوله وقال:

- الغرب كبير، ولا بد أن يكون هناك مؤشر واحد على الأقل نبحث من خلاله.

للحظة أدركتُ أن معه الحق فيما يفكر فيه، خاصةً أن ليس برأسي أي أفكارٍ حالية، فسألته:

- إذن ما الخطة؟

رأيته مندهشًا من سؤالي كأنه يريد أن يخبرني أنهم هم مَن يسألون هذا السؤال، وأنا مَن أضع الخطط دومًا فما الذي تغيّر؟ فاستطردتُ:

- معذرةً، لقد اصطدمتُ بأشياءٍ كثيرة هنا بالنسبة لي في وقتٍ ما كانت مستحيلة.

إنني أرى الآن مستقبل مظلمًا للناجين من البشر، أرى أن كل شيءٍ حاربتُ من أجله وحاربتَ أنت من أجله في مناصرة قضيتك راح، وها أنتَ الآن تخبرني أن كل المرتدين الغربيين الذين كانوا هنا في وقتٍ سابق قد أعدموهم جميعًا.

طأطأ نوح رأسه كأنه لا يجد ما يقوله لي، وأن هناك مبررات كثيرة وعظيمة جعلتني في يومٍ ما أقف عن وضع الخطط، ثم رفع رأسه وقال لي في تحفيزٍ:

- لا تنسى أبدًا أنك كنتَ سببًا في إلهام البشر في العودة للأعلى.. لا تنسى أنك كنتَ سببًا في انتصار البشر بحربٍ كانت مميتة بالنسبة لهم.. لا تنسى أنك قادرٌ أن تقتل تنينًا.

نظرتُ له في ندمٍ وأجبته:

- وما الفائدة الآن؟ لقد عاد كل شيءٍ مثل الأول بل وأكثر خطورةً عما سبق.

ردَّ في ذات التحفيز وقال:

- كما ستعيد أنتَ كل حيلك وخططك الأكثر دهاءً من جديدٍ؛ لتواجه الأكثر خطورة.

اقتربتُ نحوه وربَّت على كتفه كأنه صديقي وقلت له:

- لا أنكر أنني بدأتُ أعتبرك صديقي مثل وحيد وماجد رغم كونك...

ابتسم لي كأنه يعبر عن امتنانه لما أخبرته به للتو، ووسط هذه المشاعر... نعم، أستطيع أن أقول الآن أنني أراه يشعر، فهو يستحق ذلك حقًا حتى وإن لم يمتلكه بالفعل، تذكرتُ أنني يجب أن أتواصل مع خالي وصديقيّ. فسألته عن كيفية فعل ذلك في غياب شريحة اتصالاتي، وإن كان ذلك الجهاز الدقيق المتطور الذي يقل حجمه عن حجم ساعة اليد الضعف، ذلك الجهاز الذي كان سببًا في معرفة نوح مكاني يقوم بهذه الفاعلية أم لا؟ فأجابني بالإيجاب، فناولته إياه وظل يضغط بأصابعه على الأزرار التي بالكاد أراها بعيني المجردة، وبعد دقائق ناولني إياه مجهزًا لي الشريحة التي أرسل من خلالها رسالةً نصية، فأخذته وكتبتُ إلى خالي أقول له فيها:

"طمئني عليك وعلى مريم والطفل، إننا ما زلنا في المهمة، إنها تبدو صعبة إلى حدٍ ما لكننا سننفذها بمساعدة الخالق."

أرسلتها بكلمة السر المتفق عليها وكنتُ منتظرًا إجابته.

* * *

بالطبع وصلت الرسالة النصية إلى شريحة الاتصالات الخاصة بفهمي، لكنها في الحقيقة في أيدي أيوب الذي يقف يقرأ الرسالة الآن؛ فعلم من خلالها أن هناك طفلًا لآدم بالمدينة.

ثم رسم على وجهه الخبيث ابتسامةً أكثر خبثًا، كأنه وجد الشيء الذي سيضغط به على آدم في مواجهة قوته؛ لكي لا يتعرض للإعصار مثل المرة السابقة، فلولا وجوده بداخل آلة عملاقة تشبه الإنسان لكان تمزق إلى أشلاء.

***

انتظرتُ دقائق ولا توجد إجابة من خالي، فأرسلتُ رسالةً أخرى إلى صديقيّ ماجد ووحيد نفس الرسالة كان فحواها:

"هل خالي بخير؟ كيف الحال لديك؟ أرجو الرد."

أرسلتها مع كلمة السر المتفق عليها.

***

وصلت الرسالة في نفس الوقت إلى شريحة كل من وحيد وماجد وهما في مدينة المرتدين "المتهورين سابقًا" وعلى وشك الجلوس مع نائب نوح بالمدينة، إنه بشري جنوبي من مدينة المجانين؛ لأن المدينة تعتبر ملكًا للجنوبيين.

لقد شاهدا الرسالة معًا، وأرسل ماجد رسالته ردًا على آدم كان فحواها:

"وحيد معي ويبدو أن خالك ليس بخير؛ نحن في مدينة

نوح."

أرسلها بكلمة السر المتفق عليها.

صدمتُ حين قرأتُ الرسالة؛ فظهر على وجهي الذعر فسألني نوح ماذا بي؟ فأخبرته ثم حولتُ المكالمة إلى مكالمةٍ صوتية مرئية بيني وبين ماجد "مكالمة فيديو"، ومن خلال هذه المكالمة علمتُ كم المصائب التي تتعرض لها إحدى مدن أرض الظلام وقلبي يرقص قلقًا وخوفًا على خالي، فبلا شك إنه في خطر. كما أن قلبي يرقد مرهقًا مما فعلته زوجتي مريم، فلا أستطيع أن أفسر سبب قيامها بمثل هذا الفعل، لقد حدثت أشياء كثيرة في غيابي، وبعدها أغلقتُ المكالمة. كانت الشمس قد أظهرت أول شعاعٍ لها ليبدأ يومٌ جديد.

ثم نظرتُ إلى نوح وقلت له مشيرًا في حديثي لما تحدثنا فيه منذ دقائق:

- وتريدني أن أظل آدم صاحب الحيل؟

نظر في وسط عينيّ وقال لي:

- المحن هي التي تُخرج منك حيلك الداهية.

أجبته:

- ربما، لكن علَيّ أن أنزل إلى أرض الظلام، يجب أن أنقذ خالي وأسترد مدينة المعترضين من هؤلاء القراصنة المغتصبين.

دنا نوح مني وربّت على كتفي قائلًا لي:

- يجب أن تتحكم في قوتك إنها مريم.. زوجتك.. وأم طفلك.

نظرتُ في وسط عينيه ولم أجبه بشيءٍ، إنني أعلم تمامًا ما يحاول أن يحثني له، لكن لا أعرف حقًا ما سيحدث عند وصولي للأسفل.

ثم قصدنا المركبة التي أتينا بها إلى هنا لقد كانت بالجوار، حيث توقفنا عند وصولنا إنها تبعد عنا حوالي مائتي مترٍ.

وصلنا لها وأقلتنا المركبة بسرعةٍ وشرعنا في شق طريقنا للعودة، للعودة نحو الشمال حيث الفجوة التي صعدنا من خلالها أو من المفترض ذلك، لكن كان لي رأي آخر فقلتُ لنوح أثناء قيادته المركبة:

- لن نذهب إلى الشمال.

تعجب نوح وسأل:

- لماذا؟

فأخبرته:

- الخطر عند الشمال أعظم، فلا نعرف ماذا حدث لخالي، ولا نعلم مَن يخوننا هناك، ومدينة المعترضين نفس الشيء.

فقال لي:

- هل تقترح أننا نذهب إلى المدينة الوسطى؟

أجبته بعد تفكيرٍ:

- نعم، سننزل من خلال الفجوة التي أنشأناها بمدينة المتهورين.

فمنذ عامٍ ونصف اقترحتُ بعد نزولنا مرةً أخرى العالم السفلي أن نخلق فجوةً في كل مدينة، وسد الفجوات الأخرى مثل التي كانت بالشرق حيث نزلنا منها حينما هاجمتنا التنانين، وتلك الفجوة التي خلقناها حين اكتشفنا أمر المنفيين بالأعلى، وأيضًا الفجوات الصغيرة التي كانت بمدينة المجانين.

لقد كان سبب اقتراحي هو أن يكون لكل مدينة صلة بالعالم العلوي في حالة صعود أحدنا ومواجهة أي خطرٍ فينزل إلى أقرب فجوة له، فليس عليه أن يستمر في الفرار لإنقاذ نفسه حتى يبلغ الفجوة الرئيسة التي بالشمال فيموت قبل أن يصل.

وها الآن تظهر فائدة ما فعلناه، لقد اخترت أن ننزل إلى مدينة المرتدين دون الحاجة إلى أن نلف نحو الشمال.

وأثناء سيرنا بالمركبة أخبرتُ نوح:

- علينا أن نطير، يجب أن أنقذ خالي.

وفعل نوح ذلك، وأصبحنا نشق الهواء، ولكن...

ولكن حدث ما حدث.

فما حدث كان في قمة الرعب؛ لقد سمعنا ذلك الصوت الذي يجعل قلوبنا تسقط عند أقدامنا، لقد سمعنا زئير ذلك التنين

الذي هرب بعيدًا من إعصاري، لكن في الحقيقة لم يذهب بعيدًا جدًا كما تمنيتُ.

وهو الآن يلاحقنا، إنه آتٍ بكل سرعته وغضبه يشق الهواء بأجنحته الكبيرة التي ترفرف عاليًا، ويفتح فاهه للزئير وتظهر أنيابه الحادة، ثم يكشر عن أنيابه لتتجلى ملامحه المخيفة وعينيه الحمراوين المرعبتين.

أصبح على مقربةٍ أكثر مستمرًا في طيرانه نحونا، اقترب.. دنا نحونا.. طار عاليًا.. أصبح فوقنا حقًا.. يحوم حول المركبة.. ثم كان الخطر الأعظم.

لقد قذف المركبة بعيدًا بذيله!

قذفنا إلى مسافة عشرات الأمتار! فاختل توازن المركبة وأصبحنا مدفوعين بقوة داخل المركبة، نتأرجح هنا وهنا بداخل المركبة التي لا زالت تطير بجنونٍ إثر القفزة، ولم تختر حتى الآن مكانًا معين لتسقط فيه ثم تنفجر بنا.

- هل ستكون هذه حياتنا؟ حتى وإن كُنا بالأسفل وضعنا لم يختلف عن كوننا مسجونين.

قالها أحد المنفيين؛ أولئك الذين كانوا مسجونين بالأعلى لدى الآليين، وها هو الآن مسجونون أيضًا بواسطة من بني جنسهم، فكان قائل هذه العبارة "إبراهيم" أحد الأقربين لموسى رحمه الله، وجهها لمَن معه في السجن.

في الحقيقة إنها سجون كثيرة، إنها زنازين يفوق عددها المائة زنزانة، بناها أيوب منذ سنواتٍ ليزج فيه كل مَن

يعارضه من سكان مدينة المعترضين أو مدينة المتهورين.

موقعها كان ولا زال على حواف مدينته "المعترضين" مخبأة، لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا على الإطلاق سوى أيوب نفسه.

لقد زجهم أيوب في هذه الزنازين بعد أن استلم أمرهم من مسئولي مدينة المحافظين الذين كانوا سببًا في إطلاق سراحه من السجن.

فكان الاتفاق بينهم أن يساعدهم أيوب في القضاء على أعدائهم والاستيلاء على مدينة المحافظين مقابل مساعدتهم في استرداد مدينتيه. أما المنفيون فترك المسئولون أمرهم لأيوب؛ وذلك ليكونوا بعيدًا عن الأعين وعن أي مساعدة قد تأتي منهم لآدم "مخلصهم" وجماعته.

ولقد بدأت بالفعل أول خطوة في تحقيق ذلك الاتفاق؛ فكان سجن فهمي هي تلك الخطوة، وعليهم أن يستعدوا الآن للقضاء على مَن يساعدونه وهم: وحيد، وماجد، ومريم، ونوح ولكن الأهم من كل هؤلاء آدم؛ إنه بمثابة العقبة الأكبر في طريقهم للاستيلاء على مدن أرض الظلام.

لن يستطيعوا أن يواجهوا قوته إذا فعلوا شيئًا يجعله يحزن، يجب أن يتجنبوا غضبه، كان أيوب على علمٍ بذلك جيدًا؛ ولذلك لن يكون الغبي ويقتل أهله أو يؤذيهم، سيستكفي أن يسجنهم ويسلبهم حريتهم كما فعلوا له، ولذلك أيضًا يجب أن ينصبوا كمينًا له عند عودته.

فكان واقفًا على أول الطريق الذي يقود إلى هذه الزنازين وبجواره شهاب، الذي تم إصلاحه منذ أتى به آدم إلى الأسفل منذ عامٍ نصف، وكان مسجونًا بإحدى زنازين السجن السفلي. الآن هو حرٌ طليقٌ يضع يده في أيدي أيوب مرةً أخرى، وذلك في مقابل أن يقود شهاب مرةً أخرى الآليين المتشتتين في مدن أرض الظلام.

وبذكر ذلك فعليهم أن يتوجهوا أيضًا إلى المدينة الثالثة.. مدينة المتهورين.. أو المدينة الوسطى، تلك التي تحوي العدد الأكبر من الآليين، ولكن عليهم أن يتواجهوا مع المرتدين بقيادة نوح.

فاقترح أيوب لشهاب:

- سنجمع الآليين المتواجدين بالشمال وبمدينتي، وسنواجه بهم مدينة المتهورين، وعند وصولنا إلى هناك حين يرونك تقودهم سينضم لنا ذلك العدد الأكبر الذي يتواجد بالمدينة.

ردَّ شهاب بفخرٍ وانتصارٍ:

- وهنا سأقود الآليين من جديد، وسنعود للأعلى.

نظر أيوب إليه وقال في توجس:

- هل ستنجح في ذلك؟

نظر الآخر له وقال:

- سنصنع الأسلحة الفتاكة وسندمر تلك التنانين الملعونة.

ردَّ أيوب في استسلامٍ:

- إذن، فلنجعل تحالفنا مفيدًا، وهيَّا لتجمع أنتَ الآليين، وأجمع أنا المحالفين لي من هذه المدينة.

سأل شهاب:

- ماذا عن قراصنة البحر؟ إنهم يسكنون في مدينتك.

أجاب أيوب:

- إنهم قلة مثل المنفيين، فلنجمع قواتنا أولًا ثم نقبض عليهم ونزجهم في هذه الزنازين الشاغرة.

شهاب:

- ومدينة المجانين.. وقائدتهم الساحرة جالبة الضباب؟

أجاب أيوب في تمعن:

- لن تصمد مدينة الجنوب أمام اتحاد المدن الأخرى الثلاثة، كما أن مريم لن تفعل شيئًا في مقابل خوفها على زوجها وحمايته حين نقبض عليه؛ ولذلك علينا أن نعجل فيما يجب فعله.

سأل شهاب:

- هل علينا أن نصعد للأعلى؟

أجاب أيوب:

- العالم العلوي الآن خطير على الجميع، سننتظر عودته حتى نجمع قواتنا. أما الآن اذهب واجمع الآليين من مدينة المحافظين في الشمال واترك لي مهمة هذه المدينة.. فهي

مدينتي.

ومن ثَمَّ ذهبا في طريقهما تاركين خلفهما ذلك المكان المخيف الكائن على حواف مدينة المعترضين، تاركين خلفهما آلاف الصرخات طالبة الرحمة والحرية.

كانت تفعل عادتها التي لطالما فعلتها في مدينتها في الجنوب؛ رسمت أشيائها الغريبة على الأرضية بالطبشور، إنها دائرة بداخلها مثلثان متقاطعان ليشكلا تلك النجمة المخيفة التي بداخل فراغاتها حروف للغةٍ غريبةٍ، تتوسطها شمعة مضيئة مثل الشموع الكثيرة المتراصة بإطار الدائرة الخارجي.

كانت مريم جالسة على ركبتيها أمام رسمتها الملعونة مغمضة عينيها، تتمتم بعباراتها غير المفهومة، تبدو كأنها ترى المستقبل، أو تتنبأ بأشياء قد تحدث أو لا تحدث، في الحقيقة إنها تمارس ما تجيده منذ زمنٍ، فلم تنسَ أبدًا أنها عرّافة، لكنها لم تلاحظ أنها أصبحت ساحرة شريرة.

إنها في غرفةٍ يسودها ظلامٌ، ظلامٌ يتسلله ضوء هذه الشموع، تغلق على نفسها بابها لا يجلس أحدٌ بجوارها، إنها بمفردها.

لكن خارج الغرفة يجلس عبد الله وبجانبه أخوه فارس، أحدهما لا يشعر بالراحة، كان ذلك الأخ الأكبر عبد الله يحث أخاه على عدم التعاون مع هذه المرأة المجنونة، ولكن كان الأصغر مرحبًا بها جدًا ويراها أنها الشخص المناسب لفعل

الجنون كما يريد، فقال الآخر الأكبر:

- إنني غير مرتاحٍ لوجود هذه المرأة، إنها تفعل أشياءً غريبة بداخل هذه الغرفة منذ وصولها إلى هنا.

أجابه فارس:

- إنها السبيل الوحيد لتحقيق حُلمنا.

قال عبد الله في استنكارٍ:

- حُلمنا؟ هل ستعود لهذا الكلام مرةً أخرى؟

فقال فارس في سؤالٍ غاضب:

- هل ستُسقِط أنتَ كلمتك معي؟

لم يستطع عبد الله أن يجيبه بشيءٍ، بل لم يجد أمامه سوى الاستسلام تجاه أخيه الأصغر الذي لطالما خشي خسارته.

ثم استطرد فارس قائلًا:

- لا تتعشم في حياة البحر مرةً أخرى، على حد معرفتي بالتنانين أنها تبيض، وهذا يعني أنها ستزداد عددًا، وستصعب الحياة أكثر بالأعلى.

نظر عبد الله في عينيه بنظرةٍ ضيقة الجفنين وقال:

- هل الدور على التنانين لتحتل العالم العلوي؟

دنا فارس نحو أخيه بذات النظرة قائلًا:

- بل دور القراصنة لتبحث عن حياةٍ جديدة أكثر أمانًا من

حياةٍ بها تنانين مفترسة؛ فعلى حد معرفتي بأساطير التنانين فإنها تحب الفراغ الواسع، والبحر أكثر الأماكن تُفرض هذا.

استسلم أيضًا عبد الله كعادته، ثم نهضا فزعيْن حين أبصراها خارجةً من غرفتها وعلى وجهها كل علامات الغضب التي قد تكون كفيلةً لتُسقِط قلوب الرجال، ثم اقتربت نحوهما دون أن تنظر إليهما وقالت لهما:

- لقد حان الميعاد.

نظر كل منهما للآخر، يبدو أنهما لا يفهمان شيئًا مما تقوله، فتساءل عبد الله:

- أي معادٍ؟

قالت مريم في نظرةٍ ثاقبةٍ بعيدة المدى بجفنين ضيقين توجهها بعيدًا عنهما:

- إنني أرى فولاذًا كثيرًا.

فعلا نفس الشيء، إن كلامها بالنسبة لهما كالألغاز لا يفهمان منه شيئًا، إنهما يتساءلان أي ميعاد؟ وأي فولاذ؟ وأي ثُرهات تتفوه بها هذه الساحرة المجنونة؟

ثم أردفت الساحرة المجنونة:

- سيكون هناك ضباب كثيف، وسيُعمي الجميع بسواده، سيسود الظلام الحالك.

جحظت عيونهما لا لأنهما فهما كلامها، بل لأنهما شعرا بالخوف مما تقوله، فأي كلامٍ تتفوه به وهما يسمعانه حتى

وإن كان ليس مفهومًا؛ فهو أصبح لهما كلامًا مخيفًا حتى قمة الرعب، كان ينظران إلى بعضهما البعض يتساءلان في أنفسهما عن ماهية هذا الضباب؟ وأي ظلامٍ الذي يعيشون في ظله هنا بالأسفل؟

دب الخوف في قلوبهما بل الأكثر من الخوف، وهنا أخيرًا نظرت نحوهما مريم قائلةً بذات نظرتها الثاقبة المخيفة التي تحمل الكثير:

- يجب أن نتوجه إلى مدينة المتهورين.

سأل فارس في جهلٍ:

- لماذا؟

أجابت مريم في ثباتٍ:

- خلف وحيد وماجد.

* * *

كانا بالداخل والحشد بانتظارهما بالخارج، لقد نجحا في المهمة الموكلة إليهما ولكن قال أحدهما للآخر:

- لقد خرجنا عن مسارنا المفترض، تبدلت المهمة وأصبح الهدف بعيدًا عن المراد.

قالها وحيد آسفًا على تلك الأحداث التي تدور حوله فأجابه ماجد:

- لقد كان هدفنا الأسمى هو العثور على دينا وسارة والبحث

هنا عن المفقودين، ثم تبدَّل الحال وأصبح الهدف هو الحفاظ على أرض الظلام من المغتصبين.

ردَّ وحيد:

- بل هدفًا نهايته ستؤدي إلى تكرار حربٍ أهلية ثانية بعد مرور مائة عامٍ بين مدن الظلام.

تساءل ماجد في توجس:

- هل ترى أن ستنقسم المدن المدفونة مرةً أخرى؟

أجابه وحيد:

- هل ترى غير ذلك؟

لا أعرف لماذا طبيعة البشر هكذا؛ دائمًا نخرج عن مسارنا ونبرر لأنفسنا ونختار أشياء تؤدي إلى نهايةٍ سيئة.

والحرب هي أسوأ شيءٍ قد يحدث.

الحرب تُبدّل الأحوال وتُسبب الأهوال؛ فهي التي نبتت الشر وزرعت الخوف.

الحرب تقتل العلاقات وتبدد الممتلكات؛ فهي التي فرّقت الأحباء ودمرت القلوب وشرّدت المسالمين.

الحرب تجعل منا بيادق تضحي بكل شيءٍ من أجل لا شيء؛ فهي تخدعنا بالبدايات وتُميتنا في النهايات.

قال ماجد مقتنعًا تمامًا بكلام صديقه:

- دعنا نتفاءل ونتمنى شيئًا أفضل ويعود آدم ومعه دينا

وسارة، هاتان الحبيبتان اللتان كانتا سببًا في تحرك قلبينا من مكانهما.

لمعت عينا وحيد حين سمع اسم حبيبته؛ فقال لصديقه:

- لا أدري أين هما؟ وهل هما معًا مثلما نحن معًا؟ هل يكافحان في كونٍ آخر مثلما نكافح نحن هنا بالأسفل في كوننا الذي سندمره بغبائنا؟

قال ماجد:

- لقد جعلتني بحديثك أن أقتنع أن حياتهما هناك أفضل من حياة البشر هنا.

ابتسم وحيد بسخريةٍ وأجاب:

- هل هذه حياة؟

صمت ماجد كأنه لا يعرف بماذا يجيبه؛ لأنه مقتنع بأن ليست هذه حياةً بالفعل، فأردف وحيد:

- أتعرف ما الشيء الوحيد الجميل في وسط كل السيء الذي يحدث؟

تساءل ماجد:

- ما هو؟

أجاب وحيد مشيرًا بإصبعه ذهابًا وإيابًا لنفسه ولماجد قائلًا:

- نحن...

ففي وسط الواقع السيء الذي نعيشه إلا أنه كان سببًا لتُنشأ علاقةً وطيدةً بين صديقين يناضلان من أجل كل شيءٍ.. من أجل البقاء.. من أجل العائلة.. من أجل الحب.

لمعت عيني الآخر وقال في حماسٍ:

- لقد بدأنا مسارنا معًا وسننهيه معًا.. وسنلتقي بأحبائنا معًا.. فهيًا بنا لنحقق أهدافنا الخاصة بنا.

قال وحيد:

- معك حق، دعنا نخلق لنا أهدافًا خاصة بنا، ولنناضل من أجل مستقبل أفضل، مستقبل تجتمع فيه العائلة بجميع أفرادها.

وفي هذه اللحظة، بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أيام منذ بداية رحلتهم الأولية وهي البحث عن الخائن أو المفقودين، وفي وسط حماسهما المشتعل خرجا للحشد الذي كان بانتظارهما، لقد كان حشدًا مكونًا من ألف جندي آلي مرتد ملبيين النداء، نداء أصدقاء قائدهم نوح، لقد كانوا محتشدين بالخارج في ذلك المكان اللعين الشاسع، ذلك الميدان الذي كان يعدم فيه أيوب مَن يقف في طريقه إنها الساحة.. ساحة الإعدام.

***

لا أبالي بكيانهم الثابت أمام عيني رغم ركضي، ولا يشغلني ذلك الكائن ذو العينين الكبيرتين المنقورتين بالداخل فلا توجد عينان من الأساس، وأنفه الذي عبارة عن فتحتين

مسطحتين فقط في منتصف وجهه. أما فمه فمثل فم الإنسان، ورأسه الصلعاء دون شعرة واحدة؛ فلونها كان مثل لون وجهه وبقية جسده.. إنه اللون الرمادي، فكل ما كان يشغلني فقط هو ابني يوسف الذي هو في أمس الحاجة إلى مساعدة الأب التي تأتي دومًا دونما يطلبها الابن، علَيَّ أن أنقذ طفلي يوسف، وأنتشله من بكائه ومعافرته بيديه الصغيرتين ورجليه الرافستين.

شرعتُ أقترب نحو طفلي الملقى أرضًا والجميع يأخذ دور المشاهد، لا يقدم أحدٌ يد المساعدة ولا أعرف لماذا؟! هل بسبب ما فكرتُ أو شعرتُ به تجاه كل واحد منهم ؟ لا أستطيع اليقين من ذلك الأمر.

دنوتُ منه حتى أوشكت الإمساك به.. وصلتُ له... مددتُ يدي.. وقبل أن ألامس يده ارتجفتُ وأرجعتها مرةً أخرى؛ بسبب الخوف الذي شعرتُ به، بل الذي شعر به الجميع، لقد كان خوفًا ناتجًا عن سماعنا لصوت ذلك الزئير المرعب.

لقد ظهر بغتةً تنينٌ ضخمٌ يبدو مختلفًا عما رأيته سابقًا! واتجه يشق بجناحيه الهواء دون رحمة نحونا، ثم بعد لحظاتٍ اتضح الأمر أكثر؛ فهو متجهٌ نحوي! ارتجفتُ ورجعتُ للوراء بضع خطواتٍ، ولكن بعد لحظات أخرى تيقنتُ أنه لا يتجه نحوي، بل نحو ذلك الشيء الذي يركض خلفي.

لاحظ ذلك الكائن الغريب خلفي؛ فقرر غير مستسلمٍ أن يترك مطاردتي ويركض مهرولًا نحو ذلك الشيء الآخر الذي يطير أمامه ويراه متجهًا نحوه بشكلٍ مرعب، ولا أعرف كيف

يكون كائن بحجمه الضئيل أمام التنين يركض لمواجهته دون خوف؟

وبعد لحظاتٍ من ركض الاثنيْن، والجميع ينتظر تلك المواجهة التي لا تحدث سوى فيه الروايات، أو أفلام الخيال، أو في الأحلام ومن ثَمَّ حدث الاصطدام.

وعند فكري في الأحلام، كان هناك شيءٌ بداخلي يريد أن يخبرني بأن هذا ليس واقعًا إنه حُلمٌ.

وبعد لحظاتٍ، فتحتُ عيناي، ولكن هذه المرة لا أرى ظلامًا لكي أراه فيه اللا شيء، بل رأيتُ خرابًا رأيتُ فيه كل شيء، لقد استيقظتُ إثر صوت نوح الملقى بجواري ينادي اسمي لأستفيق، لقد كانت دقائق قليلة فقدتُ فيها وعيي إثر الاصطدام، وجد فيها الكابوس دربًا بفكري ووجداني.

لقد كنا بداخل المركبة أو ما بقي من المركبة، لقد تدمرت بشكلٍ فظيع، لقد تأذى نوح بجواري ببعض الكدمات التي نتج عنها بعض الإصابات في جهازه التشغيلي، لكنها بسيطة وسطحية، كذلك أصيب ذراعي الأيسر ونقاط الدماء برأسي نتجت عن إصابةٍ طفيفة بسبب الاصطدام العنيف.

وبالطبع بسبب حالتي ونوح ذلك الفولاذ الذي بداخلنا فكانت إصابتنا سطحية؛ ربما كان هذا سببًا لكي لا آخذ معي أحدًا من عائلتي، فلربما كان أحدهم تأذى بشكلٍ خطير.

لقد كان نوح أمامي ملقى أرضًا على ظهره مثلي يستوعب ما يحدث أمامه، كُنا بداخل جسم المركبة الضاغط علينا بقوةٍ

حتى يجعلنا بالكاد نتحرك.. أو نتنفس.

لقد كان تتمة لذات الكابوس اللعين، ولكن دومًا ما يكون هناك شيء في الحُلم من الواقع الذي نعيشه.

فقد نظرتُ من خلال تلك الفراغات بين أجزاء المركبة المحطمة، ورأيتُ بالفعل تنينًا حقيقيًا هذا المرة يشق الهواء بجناحيه دون رحمة متجهًا نحونا.. نحونا حقًا، فلا وجود لعملاقٍ الآن ليس هنا سوانا.

اقترب نحونا، وعلى بعد مسافةٍ قليلة منا نزل على رجليه ومخالبه وأخذ يسير بتؤدةٍ بساعدي جناحيه، يدنو نحونا حتى اقترب أخيرًا من أجزاء المركبة المحطمة. أما نوح وأنا فلا نستطيع أن نحرك ساكنًا، لقد أطبقت أجزاء المركبة المحطمة على أجسامنا بشراسة.

أخذ التنين يحملق فينا يراقب معاناتنا وكأنه يسخر من معافرتنا التي ستذهب هباءً مجرد أن ينفث نيراته المتأججة، ثم أخذ في الزئير الغاضب العنيف حتى استطاع هزّ أجزاء المركبة المحطمة هنا وهنا من مكانها بسبب صدى زئيره العظيم.

ولكن.. ومن ثَمَّ...

كان للتنين رأيٌ آخر.

فدنا نحونا حتى صار فوقنا تمامًا ولم ينفث النيران، بل فتح فاه الطويل المليء بالأسنان الحادة ثم رفع رأسه لفوق، ثم هبط بها مرةً واحدةً ليكون ذلك الجزء الضاغط علينا من

أجزاء المركبة بداخل فمه، فقفل عليها بفكيه ثم اقتلع ذلك الجزء قلعًا وألقاه بعيدًا، كأنه يريد أن يفسح المجال له لينظر ويتمعن في فريستيه بشكلٍ أكثر مقربةً ووضوحًا قبل أن يلتهمهما.

أصبح الآن ليس هناك شيءٌ ضاغط علينا، ولكن أصبح وجه التنين!

لقد ولجت بداخلنا أقصى دراجات الرعب، وارتفع مستوى الأدرينالين الذي يحثني على فعل الأشياء التلقائية لكي أحمي نفسي ونوح؛ فشرعنا نزحف بظهرينا حتى نتوارى عن أنظار ذلك التنين المخيفة خلف أي جزءٍ متبقٍ من المركبة حتى يصير ذلك الجزء المعضلة التي أمامه لتعرقل طريقه نحونا.

وبالفعل فعلنا ذلك؛ وظللنا نزحف والخوف يحركنا، حتى خرجتُ أنا من جسم المركبة المحطم، والتففتُ بنفس وضعي زاحفًا أرضًا بظهري كي لا يراني.

ولأن أعرف أن ليس هناك مكانٌ أختبئ به؛ فالمكان مكشوف تمامًا، ولأن لن أستطيع أن أصل لأي حاجزٍ يفصلني عن التنين قبل أن يصل إلَيّ ويلتهمني؛ فاخترتُ أن أقترب نحوه وبدقةٍ استهدفتُ قدميه الكبيرتين وتشبثتُ به، فأحس التنين بذلك فأثرتُ انتباهه، وبدَّل تركيزه من نوح الذي لا يزال يناضل بداخل المركبة إلى مَن يعبث بقدميه.

وبحركةٍ تلقائيةٍ يفعلها هو أيضًا أخذ يهز جسده بقوةٍ وقدميه ينفضهما لإلقاء الشيء الصغير الذي يتشبث بقدميه،

ولكن وبسبب قوتي استطعتُ أن أحافظ على توازني وأحافظ على إمساكي بقدميه.

لقد بان على ملامحه الغضب بسببي؛ حيث لا زلتُ أتمسك بقدميه، وكأنه لا يحب ذلك فاختار أن يفعل شيئًا آخر وهو.... الطيران.

لقد فرد جناحيه وأخذ يركض بعيدًا، ثم رفع جسده عن الأرض وطار في الهواء وأنا لا زلتُ متمسكًا بقدميه أطير مثله.

الأمر لم يكن هيّنًا، في أول مرة أطير في الهواء مباشرةً، فاخترتُ أن أصب تركيزي في حفاظي على توازني حتى يطير بي ويقترب أرضًا من أحد المناطق التي قد يكون فيها حواجز أو مبانٍ؛ فأفلتُ نفسي وأكمل الركض لأستطيع أن أتوارى عنه؛ فهو الآن حتى وإن كان ينفث النيران فالنيران لا تستطيع أن تمسني بسبب وضعيتي تحت التنين في منتصفه، وليس في مواجهة التنين أمامه.

أحدثُ نظري نحو نوح قبل أن أختفي من أمامه، فرأيته واثبًا خارج المركبة واقفًا بالكاد على رجليه يشعر بخللٍ في توازنه.

وبعد دقائق قليلة جدًا، اختفى نوح عن أنظاري أو اختفيتُ أنا عن أنظاره، وظللتُ أطير من خلال إمساكي بقدميّ التنين.

ولكن ما أنتظره لم يحدث؛ فالتنين لم يهبط أو يطير على

مقربةٍ من الأرض بتاتًا بل ظل يرفرف عاليًا، كما أنه اختار المناطق الفارغة الواسعة أمامه وشق طريقه نحوها، فلم أرَ بأسفلي أي مناطق بها مبانٍ، وإن كان ذلك فيكون بعيدًا جدًا عن آمالي، لكنني لاحظتُ شيئًا أعلم به تمامًا؛ لقد علمتُ أن التنين يشق طريقه نحو الشرق.

وبعد مرور ساعتين من الطيران السريع حتى شعرتُ بألمٍ في ذراعيّ المرفوعتين المتمسكتين بقدميّ التنين، وتقلصت ملامح وجهي بسبب الهواء الذي كان يلطم وجنتيّ، وجدتُ نفسي والتنين في الشرق نحو ميدان الحرب السابق، وبدقةٍ أكثر نحو البحر المكان الذي كان فيه أول ظهور للتنين الذي لطالما تساءلتُ ما سبب ظهور التنانين بعالمنا، وأرضنا، أو كوكبنا، أو كوننا لو آثرتُ التعميم، ولمحتُ تلك السفن التي جاء بها القراصنة لمساعدتنا في حربنا، ولكن الغريب أنهم ليست سبع سفنٍ كما يُفترض إنهم ستة؛ فهناك واحدة ليست موجودة.

ثم تابع التنين طريقه في الطيران حتى أصبحتُ فوق منتصف البحر؛ فتذكرتُ قراصنة البحر بسفنهم والحياة التي كانوا يعيشونها هنا بالبحر، وكيف وصل إليهم نوح، وكيف استطاع أن يقنعهم بالانضمام له في حربٍ ليست حربهم.

وفي وسط أفكاري، أثار انتباهي شيءٌ ما، شيءٌ غير مألوفٍ، أو بمعنى أدق لا أعلم بوجوده، وهذا بسبب عدم ذهابي إلى البحر قبل ذلك.

لقد رأيتُ في وسط البحر جزيرةً وأيضًا السفينة المفقودة

كانت على مرسى تلك الجزيرة، وتساءلتُ في نفسي عن نقل السفينة إلى هنا ولكن هذا ليس وقته؛ فالشيء الغريب والمخيف هنا الذي أثار انتباهي هو أن في آخر الجزيرة من الناحية الأخرى لها -أي في حدودها الخلفية يوجد كهفٌ- لقد كان كهفًا كبيرًا، ويبدو عليه أنه واسعٌ كما أنه له مدخلٌ كبيرٌ وضخم مكشوف على سطح الجزيرة أو على آخر رقعةٍ بريةٍ على الجزيرة؛ فمن السهل خروج ودخول أي شيءٍ به مهما كان، حتى وإن كان التنين نفسه بجناحيه العظيمتين.

كأنه يبدو كهفًا للتنانين.

***

كان فهمي في هذه الأثناء تحت الأرض مسجونًا بالسجن السفلي.

***

حشد أيوب تابعيه من مدينته سواء كانوا من المخلصين له من البداية من سكان المدينة الأصليين أو من الآليين الذي يعلمون تعاونه من شهاب، واتجه نحو مدينة المتهورين.

ولكن عند احتشادهم في المدينة، لمحهم أحد القراصنة؛ فذهب مسرعًا ليبلغ قائديه عبد الله وفارس عما رآه؛ فذُعرا في البداية لأنهما ظنا أن البشر احتشدوا معًا ضد القراصنة الذين اغتصبوا مدينة من مدن أرض الظلام، ليستردوا مدينتهم، ولكن هدَّأت مريم من روعهم وحثتهم على التقدم فيما يفعلونه، وأخبرتهما ألا يخافا لطالما قوة الظلام معها؛

فهي تضمن أن هذه القوة السحرية في صفها ولم تخنها لطالما تنفذ ما يحتاجونه منها.

فذهبا ليجمعا قوتهما القليلة، واحتشد الجميع بالفعل في ساعاتٍ قليلة؛ لأن جميع القراصنة كانوا على علمٍ بذلك سابقًا، واتجه الجميع نحو مدينة المتهورين بقيادة مريم.

كان ذلك بعد توجه المجموعة الأولى بقيادة أيوب بساعةٍ واحدة.

أيوب الذي وصل بالفعل إلى مدينة المتهورين وبرفقته تابعيه، لقد وصل إلى النقطة التي يحتشد فيها جميع المرتدين بقيادة وحيد وماجد.

تفاجأ الأخيران حين شاهدا هذا التجمهر الذي يأتي إليهما، ولكن الصدمة الحقيقية كانت في مَن يقودهم؛ فكانت رؤيتهما لأيوب في مقدمة هذا التجمهر أشبه شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يواجههم.

فنظر أحدهما للآخر في ذعرٍ، وقال وحيد في اندهاشٍ:

- أيوب؟!

فردَّ ماجد في تساؤل أيضًا:

- ولماذا يجتمعون هنا؟! أليست مشكلتنا كانت مع القراصنة في مدينة المتهورين؟ لا أرى أي قرصانٍ هنا!

نظر وحيد في ذات التوجس والذعر وقال:

- يبدو أن الأمر أكثر من مجرد قراصنة يستولون على مدينةٍ

من مدن أرضنا؛ فهنا يحضر أيوب، والغريب أنه يتعاون مرةً أخرى مع أعدائنا الحقيقيين.

وهنا لاحظا الاثنان حين رفع أيوب ذراعه من الناحية الأخرى مشيرًا نحوها؛ ففهما أنه يريد التحدث في سِلمٍ، فتقدما إلى الأمام وتقدم هو بدوره وأصبح الطرفان على بعد مسافةٍ لا تقل عن عشرين مترًا.

فبادر أيوب بالكلام وتحدث بصوتٍ جهورٍ يوحي بالتهديد قائلًا:

- لا نريد حربًا.. لقد أتينا في سلامٍ.. فقط أريد أن أعيد مدينتي.

نظر وحيد وماجد إلى بعضهما البعض وقد تملكهما الذعر أكثر؛ لأن حينها علما بأن الأمر أصبح الآن ليس مدينة المعترضين فقط، ولكن تملك وحيد نفسه وقال في ثباتٍ انفعالي:

- ألم تتساءل عن سبب هذا الحشد الذي قابلته للتو؟ أليس من المفترض أن تأتي إلينا بغتةً وتهجم علينا وتعيد مدينتك؟

أجاب أيوب من الناحية المقابلة وهو ساخرٌ:

- لا يهمني هذا الحشد؛ فالآليون الأكثر عددًا هنا سيثورون ضدكم ويتبعوني حين يرون زملاءهم هنا محتشدين.

ردَّ ماجد بسخريةٍ أيضًا وقال:

- هنا يأتي دور المرتدين الذين لم يفرطوا في مدينتهم، كما

أنهم بقوةٍ مماثلةٍ لهؤلاء الآليين الذين تحكي عنهم.

غضب أيوب وكشّر على أنيابه وقال:

- ليس أحدٌ هنا له مدينة سواي.

ثم غيّر ملامح وجهه بسرعةٍ وحولها إلى السخرية مرةً أخرى، وأردف شاعرًا بانتصارٍ:

- هنا أيضًا يأتي دور قائد هؤلاء الآليين.. إنه شهاب، لقد كان سجينًا معي في السجن السفلي، لكنه أصبح حرًا طليقًا مثلي أيضًا، وإنه يتوق للانتقام منكم جميعًا.

كانت هذه اللحظة من أكثر اللحظات رعبًا لهما بل لجميع المرتدين، إنها ذات اللحظة التي كانت سببًا في ولادة تجمع الآليين ساكني هذه المدينة الأكثر عددًا، لقد شرع الجميع في الانتباه من المارة الآليين حين سمعوا اسم شهاب؛ فلاحظ أيوب ذلك وقرر أن يستغل هذه النقطة لصالحه فضغط على الجزء واستطرد قائلًا:

- إنه يجمع تابعيه من مدينة المحافظين.. مدينتكما، كما أن فهمي سجينٌ في السجن السفلي في حراسة أشد الآليين هناك.

بدأ الآليون "ساكنو هذه المدينة الأكثر عددًا" يتجمعون ليكونوا الحشد الثالث في هذه الميدان الذي أصبح ميدانًا للتجمهر؛ فلاحظ وحيد وماجد ذلك وقال في نفسهيما أن المكان أصبح للآليين وكأن العالم السفلي أصبح أيضًا لهم، كما أن خبر سجن فهمي وحشد شهاب للآليين بالشمال أصبح

نقطة ضعفهما، بل نقطة ضعف جميع المرتدين؛ فشعرا لوهلةٍ بأن مدينة المتهورين ستكون المدينة الثانية التي ستسقط منهم.

فلم يجد وحيد سوى أن يقول هذا الشيء الذي أراد أن يقوله في البداية وبداخله رجاء أن ذلك بمثابة نقطة ضعفٍ لأيوب، فقال:

- نحن نريد أن نعيد مدينة المعترضين مرةً أخرى؛ فالقراصنة يستولون عليها.

حدَّق أيوب قليلًا نحوهما.. نحو جميع المرتدين، وقال في خبثٍ وثبات انفعالي:

- إذن، هم أعداؤكم! وكما يقال المثل "عدو عدوي صديقي"، كما أن القراصنة لا يمثلون تهديدًا لي حين يرون أن عليهم مواجهة جميع الآليين هنا بقيادة شهاب، وجميع سكان مدينة المتهورين والمعترضين الموالين لي بقيادتي.

شعر كل من وحيد وماجد أن أيوب يضيّق الحبل على رقبتهما، لقد شعرا أنهما أكثر اختناقًا كلما تماديا في الحديث مع هذا المتحذلق.

فتساءل ماجد في صوتٍ لا يسمعه سوى وحيد بجواره:

- أين أنت يا آدم؟

نظر وحيد نحوه وكأنه يشعر بالهزيمة، فأعاد رباطة جأشه ونظر نحو أيوب في الناحية الأخرى وقال:

- دعنا نتشاور معًا، وسنرد عليك بعد قليل.

قال أيوب من ناحيته:

- لن أبعد سأعسكر هنا بالقرب حتى تأتيا لي بردٍ لا يؤول إلى حربٍ؛ فكما تعلمان أن أرض الظلام لن تحتمل حربًا أخرى، لطالما كانت الحرب الأهلية أكثر فتكًا بأي قوةٍ تظن أنها المسيطرة.

ذهبا الطرفان كل منهما إلى حشده؛ أيوب نحو آلييه ومواليه من مدينته، كما ذهب وحيد وماجد نحو مرتدييهما.

***

فهمي مسجون بداخل زنزانة السجن السفلي بمدينة المحافظين، والمنفيون مسجونون بزنازين أخرى بناها أيوب في مدينته "المعترضين"، ولا أحد يعرف عنا شيئًا سواه وشهاب، القراصنة يشقون طريقهم نحو مدينة المتهورين.

وأخيرًا، نوح استسلم وقرر أن تكون أرض الظلام هي وجهته التالية سيرًا تارة وركضًا بسرعته تارة أخرى، حيث اختار أن ينزل إلى أقرب مدينة له، بالتأكيد ستكون مدينته؛ لأنها كانت الأقرب حين هاجمهم التنين بالأعلى، لقد شق طريقه ليذهب إلى جنوده بمدينة المتهورين.

***

بدأ التنين أخيرًا الهبوط للأسفل حيث بدأ يقترب أكثر نحو هذه الجزيرة، بل لأكون أكثر دقةً بالتنين استمر طيرانه نحو

ذلك الكهف بالتحديد.

لقد كان الكهف ذا تلةٍ عالية مرتفعة عن سطح الجزيرة، ووصفته بالكهف لأنه بدا لي أنه عميقٌ بالداخل ومظلم، كما أشعر أنه عميقٌ للأسفل أيضًا، فمنذ عامٍ ونصف ظهر التنين من أسفل المياه.

انتهزتُ فرصة هبوط التنين للأسفل، وعند أقرب نقطة أستطيع أن أترك قبضتي بقدميّ التنين كانت فوق تل الكهف، ولأن لا أستطيع المقاومة أكثر من ذلك، فأنا ظللتُ بهذه الوضعية لأكثر من ساعتين متصلتين؛ فلا أنتظر أي هبوطٍ آخر على مسافةٍ أقرب من ذلك؛ فهذه المسافة تبدو لي كافيةً إلى حدٍ ما؛ ولذلك عند لحظةٍ معينة من الوقت، أفلتُ قبضتي وتركتُ قدميّ التنين، وجذبتني الجاذبية الأرضية للأسفل كأنني ساقطٌ من طابق عالٍ من تلك المباني الحديثة التي كنتُ أراها في هذا العالم، رغم أن المسافة التي كانت تفصلني من التنين عن تل الكهف لا تزيد عن عشرين مترًا.

وبعد دقيقةٍ من اعتناقي للهواء الذي كان سببًا في تقلص ملامح وجهي وذعري الشديد من عدم مقدرتي لفعل أي شيء؛ فأنا الآن ملك الجاذبية الأرضية فقط. وصلتُ أخيرًا، بل ارتطمتُ أخيرًا بقمة ذلك الكهف المخيف، وأقول أخيرًا لأن ارتطامي كان أهون بكثيرٍ من كوني كشيءٍ ما مستسلم آخذًا طريقه في السقوط دون أي مقاومة أو محاولة لأي حماية من أي نوعٍ يستطيع أن يفعلها، ثم ولحسن الحظ استمر التنين بطيرانه كأنه بدأ يتعود على وجود شيءٍ يتسلق بقدميه،

لدرجة أنه لم يلاحظ أن ذلك الشيء الدقيق بالنسبة له ترك قدميه وسقط.

لم يكن الارتطام بالأمر الهين، فمنذ ساعتين فعلتُ ذلك أيضًا بطريقةٍ أشرس من هذه، كما أني لا أشعر بأي توازن في جسمي نتيجة تحلقي بالمرتفعات.

تألمتُ قليلًا ثم حاولتُ أن أستعيد توازني حتى بالكاد فعلتُ، وبعد أن تأملتُ قليلًا في ماهية هذه الجزيرة التي لم أفهم ملامحها لأن الأشجار تغطيها من جميع النواحي، علمتُ بعد أن ألقيتُ نظرة للأسفل بحذر أنني فوق سطح أرضية الجزيرة على ارتفاعٍ يزيد عن الخمسين مترًا فوق قمة الكهف الكبيرة المسطحة التي تمتد على امتداد الكهف للخلف. وبعد تفكيرٍ، شعرتُ في النزول بحذرٍ إلى الأسفل لكي أهبط على سطح الجزيرة، وهذا لأكثر من سببٍ؛ أولهم: ألا أكون عرضةً لأي تنينٍ آخر في وضعي هذا فوق المرتفعات. وثانيهم: حتى أجد طريقًا كي أعود إلى أرض الظلام مثل أن أذهب إلى تلك السفينة الموجودة على شاطئ الجزيرة، هذا بعد أن أفعل السبب الثالث: وهو أن أمارس قوانين الحياة الطبيعية، وأبحث عن أي مصدرٍ للأكل أو الشرب في وسط أجواء هذه الجزيرة حتى أستعيد قواي وتوازني.

بعد معاناةٍ ومحاولةٍ استمرت قرابة الساعة كي لا أسقط ميتًا على سطح الجزيرة، فخمسون مترًا ليست مثل عشرين خاصةً بعد ارتطامين متتاليين تعرض جسدي له.

وصلتُ وبحذرٍ شديدٍ ولامست قدمي أرض الجزيرة؛ فمنذ

ثلاث ساعاتٍ لم ترتاح قدمي في مثل هذه اللحظة.

نظرتُ حولي لأتمكن من تحديد ملامح هذه الجزيرة، وتقدمتُ بعض الخطوات فرأيتُ الزرع، والأشجار، والمياه، والينابيع، والشلالات الصغيرة كل هذه طبيعة حية على أرض هذه الجزيرة كأنها عامرة بالسكان، فتساءلتُ إذا ما كان القراصنة في حياتهم البحرية يعيشون على نِعم الجزر التي تكون هذه واحدة منهم؟!

وجدتُ ما يكفيني من أكلٍ أسد به جوعي، مثل التوت وبعض الفواكه الأخرى.

ولكن وأثناء فعلي لذلك تذكرتُ شيئًا من الماضي؛ فجال في فكري ذلك السؤال اللعين الذي لم أرَ إجابةً له منذ عامٍ نصف، السؤال الذي لم أجد له تفسيرًا منطقيًا حتى الآن، فلا يستطيع عقل البشر أو حتى الآلي أن يصدقه.

السؤال الذي محتواه: "كيف جاءت هذه التنانين إلى كوكب الأرض؟!"

وهنا التفتُ نحو الكهف الذي تركته خلفي رافعًا نظري للأعلى لأتأمل ارتفاعه، ثم نزلتُ بنظري إلى الأسفل.. نحو مدخل الكهف الذي ينبعث منه الظلام الحالك المخيف، رغم وسع قطره الذي يكفي لإدخال تنينٍ فاردًا جناحيه إلا أنه لا يزال للرؤية البصرية مخيفًا إلى حد الاستفزاز.

كما أن السؤال لا يزال قائمًا بذهني: "كيف أتت التنانين إلى هنا؟! ولماذا في ذاك الوقت بالتحديد؟ بعد انتصارنا على آليي

العالم العلوي، وهل هذا له علاقة بسفر أختي سارة ودينا عبر الزمن؟ هل ذهبتا إلى زمكان آخر غير المقصود أو حتى ذهبتا إلى كونٍ آخر غير كوننا أتت منه هذه التنانين، وأدى هذا إلى فتح بوابة تمر بين الكونين فأتت منها هذه التنانين؟

تساؤلات كثيرة تدور في ذهني حين وقع بصري على مدخل هذا الكهف، وكم أمقت فشل مهمتي التي ذهبتُ لأجلها نحو الغرب العلوي لأنفذها، فلا زلتُ فاقدًا لأختي وصديقتي ولا أعرف مكانهما، وهل لا تزالان أحياء؟

في وسط هذه الأفكار والتوجس، لمحتُ تنينًا هادئًا آتيًا من الجو، فتواريتُ سريعًا عن أنظاره، كان ذلك التنين الذي تسلقتُ بقدميه ثم رأيته يقصد ذلك المدخل، ثم دخل بداخل الكهف فغطس في الظلام الذي يشع من داخل الكهف.

وهنا تيقنتُ أن ما ظننته كان حقًا؛ فهذا كهفٌ للتنانين، أو بمعنى آخر مبيت للتنانين.

ووسط كل هذا كان يعتريني شعورٌ بداخلي ويحثني أن أدخل هذا المدخل، أن أدلف داخل هذا الكهف، أن أذهب خلف هذا التنين لربما يكون بداخل هذا الكهف إجابات لتساؤلاتي.

شرعتُ أتربص بتؤدةٍ نحو مدخل الكهف حذرًا من أن يتم رؤيتي بواسطة تنينٍ آخر حتى وصلتُ إلى المدخل المخيف، وقفتُ قليلًا عند مشارف المدخل.. عند بداية الظلام الذي بانتظاري.

لا أنكر أنني شعرتُ بالخوف؛ فهذا من طبع البشر ولكن كان

هدفي الوحيد الذي يحركني هو أختي سارة وصديقتي؛ فعودتهما على عاتقي لوحدي، فأنا مَن كان السبب في سفرهما عبر الزمن من البداية رغم أنني عالمٌ بمخاطر هذه العملية ليس على أنفسهما فقط بل على البشرية بشكلٍ عامٍ، ولكن هدفي السابق في العودة إلى الأعلى أعمى بصري عن النتائج التي يلحق بها جميع أحبائي، فلم أرى أمامي سوى العالم العلوي فقط.

ولهذا أعتبر ما أنا قادمٌ على فعله هو فقط مجرد عقاب أو مقابل علَيَّ أن أفعله؛ لأقدمه لكل من أراد أن يقدم مساعدتي مِمَن كان يهتم بأمري وجاهد لمساندتي في رغبتي في العودة، حتى لو كانت هذه الرغبة هي رغبة الجميع بالفعل، وحتى وإن كان ذلك يخدم جميع البشرية، ولكن أبقى أنا أول مَن فكَّر في ذلك.

انتشلتُ نفسي من أفكاري وشرعتُ في التقدم بضع خطواتٍ، ودلفت إلى داخل الكهف، وبدأتُ أستقبل الظلام الذي كان بانتظاري.

تقدمتُ بتؤدةٍ حتى لا أصدر صوتًا أثير به انتباه مَن وما يسكن بداخل هذا الكهف.

أبصرتُ أمامي يوجد طريق طويل مظلم منحنٍ لا أرى له نهاية، ظللتُ أتبع هذا الطريق متخذًا مساره المنحني يمينًا تارةً وشمالًا تارةً أخرى حتى انتبهت عيني لضوءٍ أزرق آتٍ من مكانٍ ما أمامي، تقدمت بضع خطواتٍ وانحنيتُ آخر انحناءٍ فوجدتُ ما أشبه بقلب ومركز الكهف الذي كان هائلًا إلى حدٍ

لا يوصف، كان أشبه بفوهةٍ صغيرة العمق، وقطرها واسع جدًا كحفرةٍ في قلب الكهف، يشع منها ضوءٌ ضخمٌ على قدر طول قُطر الفوهة كان لونه أزرق، ضوءٌ يبدأ من عند الفوهة صغيرة العمق ويصل مرتفعًا حتى آخِر الكهف بالأعلى، لقد كان طول القطر يكفي لتنينٍ باسطٍ أجنحته.

انبهرتُ واندهشتُ مما أراه حتى بالكاد سمعتُ ما قطع اندهاشي مما أراه؛ فالتفتُ إلى مصدر ذلك الصوت الذي كان على يميني أشبه بزئيرٍ هادئٍ، فبالكاد لمحتُ تنينًا نائمًا بداخل إحدى الممرات الشاسعة التي لم أرها حين وصلتُ إلى هذه النقطة، إنه ممرٌ كبيرٌ واسعٌ، ثم التفتُ الناحية الأخرى فوجدتُ ذات الممر من الناحية اليسرى الذي لم أره أيضًا، فتقدمتُ نحو هذا الممر اليساري لأرى ما يكمن بالداخل، دلفتُ بداخل هذا الفراغ الشاسع المظلم، لقد كان الممر أشبه بكهفٍ آخر عميق للأسفل حتى بالكاد وقع سمعي إلى صوت خرير مياهٍ بعيد عن أذني حوالي خمسين مترًا للأسفل، ولكن ليس هذا بغريب إنما وجدتُ شيئًا آخر كان كالمفاجأة، فما وجدته في هذا الممر كان بمثابة أكبر الصدمات.

وجدتُ ثلاثة تنانين أخرى تربض فوق ممراتٍ صغيرة منفصلة عن بعضها لتكون بالمنتصف الفوهة الفارغة التي تصل بالمياه بالأسفل، ولكن ليس هذه الصدمة إنني على علمٍ تامٍ بأنه يوجد هناك سبعة تنانين سبق وهاجمتنا منذ عامٍ ونصف، فتوقعتُ أن هناك ثلاثة تنانين أخرى في الممر الآخر بالإضافة إلى السابع الذي مزقته قوتي.

الصدمة حقًا كانت في ما وجدته تحت هذه التنانين، لقد كانت عشرات البيضات راقدة تحتهم، بيضات كبيرة حقًا تحمل بداخلها تنانين صغيرة!!

إنها الصدمة الأكبر على الإطلاق؛ فأخذتُ أفكر في أن العالم العلوي سيصبح معشرًا للتنانين بعد أن كان معشرًا للآليين وكأنه مقدرٌ للبشر أن يبقوا تحت الأنقاض.

لا أنكر أنني تعشمتُ أن نستطيع في يومٍ ما أن نقضي على هذه السبع التنانين ونعود إلى الأعلى، ولكن إن فقستْ هذه البيضات فلا أمل لدينا في ذلك أبدًا، سيصبح هناك العشرات والعشرات من التنانين في انتظار وجبة لحمٍ لتلتهمها.

عدتُ إلى الخلف تلك الخطوات التي تقدمتها نحو هذا الممر، ورجعتُ لأمر هذا الضوء الهائل الواسع الذي يشع من قلب الكهف، وتساءلتُ عن ماهية هذا الضوء، وجال في ذهني أن هذه قد تكون بمثابة بوابة زمن هي التي كانت سببًا في جذب هذه التنانين إلى هنا، هذا استنادًا إلى فكرتي في أن هذه التنانين آتية من كونٍ آخر.

ولكن إن كان هذا التكهن صحيحًا؛ فلماذا لم تستخدم سارة ودينا هذه البوابة في العودة إلى هنا؟ فمن المفترض أن تكون هناك بوابة أخرى في ذلك الزمكان الآخر؟ أم أنهما لا تعلمان أن هناك بوابةً من الأساس؟ ولم يعلما أيضًا بأمور التنانين؟

سأترك هذه التساؤلات لوقتها وأتيقن من كل ذلك بنفسي، فما أنا قادمٌ لفعله هو المقابل الوحيد الذي أستطيع أن أفعله

تجاه ما سببته لهما، وما جعلته يصيبهما.

فما أنا قادمٌ لفعله لا أعرف ما قد يحدث عنه، ولا أعرف إن كان هذا فيه خطر لي أم لا؟ فإن كان تكهني صحيحًا فتنقلني هذه البوابة إلى الزمكان الآخر الذي تتواجد فيه أختي ودينا، وإن كان خطأ فقد أتعرض لخطرٍ وخيم لا أعرف إن كنتُ سأنجو منه.

ثم وجدتُ شيئًا آخر تحت أقدامي.. شيئًا جعل عيناي تجحظ من مكانيهما.. شيئًا جعل القُشعريرة تجري بجسمي.. شيئًا جعل الخوف يدب إلى قلبي.

إنني أرى ما تبقى من جماجم وعظام محروقة، ويبدو من حجم هذه الجماجم والعظام أنها جماجم بشرية، وتساءلتُ ما إذا كان طلعت وناهد والديّ دينا أتيا إلى هنا برفقة آخرين وأحرقتهم التنانين، فمن المؤكد أن هناك مَن أتى إلى هنا ليس من وقتٍ بعيدٍ بل من عامٍ ونصف، والدليل على ذلك وجود سفينة من السبع السفن الخاصة بجماعة القراصنة ليكونوا هؤلاء هم المفقودون الذين نبحث عنهم.

انحنيتُ إلى الأسفل وأخذتُ الجمجمة الأكبر حجمًا من البقية؛ لأن البقية متهدمة وملامحها مفقودة، أخذتُ تلك الأكثر وضوحًا عن غيرها، أعود بها فيما بعد إلى رواد التكنولوجيا من جماعة المرتدين؛ ليؤكدوا ما إذا كانت هذه الجمجمة قديمة أم من عامٍ ونصف، ثم دسستها في حقيبتي التي انتشلتها معي حين كنتُ في الغرب ونهضتُ لأستأنف ما أفعله.

تقدمتُ نحو هذا الضوء الأزرق.. نحو تلك الفوهة الواسعة، أغمضتُ عيناي وسلمتُ نفسي واستسلمتُ إلى ما هو كائنٌ أمامي، ودخلتُ بداخل هذا الضوء وبمجرد أن لامستُ هذا الضوء أخذني بغتةً ودار بي في حلقاتٍ دائرية حتى وصلتُ إلى منتصف الفوهة، ويبدو لي إنني كنت معلقًا؛ فأنا لا أدوس على شيءٍ أسفلي، في الحقيقة لا يوجد شيء من الأساس أسفلي، كأن هذا الضوء يحمل بداخله قوة عجيبة تتحكم بالأشياء وتجعلها طافيةً في الهواء.

وبعد لحظاتٍ، حدث ما جعلني لا أشعر بنفسي أبدًا، لقد حدث أمرٌ عظيمٌ؛ صدرت أصواتٌ مثل البرق والرعد ثم تبعهما اهتزازٌ بالفوهة وكأن شيئًا عظيمًا على وشك الحدوث، ثم شعرتُ بنفسي في دوامةٍ تدور بي بدون رحمة.

وهنا سمعتُ صوت زئير تلك التنانين التي كانت فوق بيضاتها بداخل الممرين، فبالتأكيد ستنهض من مكانها إثر ما حدث للتو، فكان زئيرها آخِر ما سمعته، وأطراف أجنحتها آخِر ما رأيته، واقتراب أحدهم نحو الضوء كان آخر ما لمحته عيناي.

ثم لا أشعر بذاتي لا أرى شيئًا سوى حاجات غريبة لا أعرف ماهيتها، لا أسمع شيئًا سوى الأصوات المتداخلة التي كادت تمزق أذني، والأشياء تتخبط أمامي فلم تكن الرؤية واضحة، لا أعرف حقًا وصفًا يستطيع أن يوصف حالتي الآن.

إنني بداخل دوامة تدور بي سريعًا وستلقيني قريبًا إلى ما

لأعلم به، ولكن لا أعرف حقًا لماذا تذكرتُ خالي، ومستقبل مدن أرض الظلام في هذه اللحظة في وسط هذه الأشياء المجنونة التي تحدث لي.

بلغت مريم وجهتها وهي تقود قراصنة البحر وبجوارها الأخوان عبد الله وفارس، وصلت عند المكان الذي يتواجد فيه الطرفان السابقان: أيوب بتابعيه من الآليين أو البشريين، وأيضًا على الجانب الآخر وحيد وماجد ومن معهما من جماعة المرتدين.

وهناك على جانب ثالث كانت قوات أخرى.. إنها قوات آلية أيضًا، إنهم الروبوتات الأكثر عددًا من ساكني مدينة المتهورين بدأوا يتجمعون حول أيوب وجماعته؛ لتكتمل خطة أيوب الموضوعة.

توقفت قوات مريم على مشرفة من هذا الحشد؛ لتتمعن فيما تراه، فإنها ترى أمامها أيوب في مقابلة الطرف الآخر المكون من وحيد وماجد يتبادلان طرفي الحديث، فيبدو أن الطرف الأخير توصل إلى حلٍ ليخبر به أيوب، فسألها عبد الله:

- ماذا الآن؟

قالت مريم دون أن تنظر إليه، بل تصوّب نظرها نحو ما تراه أمامها وأجابت قائلةً:

- دعونا نرى ماذا هناك.

تقدمت قوات القراصنة نحو ذلك الحشد، فالتفت كلٌ من

أيوب، ووحيد، وماجد وكل مَن كان يقف بالجوار إلى تلك القوات التي تتقدم إليهم.

لم يكن يعلم كل من وحيد وماجد ما الذي أتى بمريم إلى هنا مع جماعة القراصنة، وهل مجيئها إلى هنا بهدف مساعدتهما في مأزقهما أم لهدفٍ آخر؟

بلغت القراصنة الميدان واحتلت مكانًا به لتصطف وتأخذ مريم بقواتها طرفًا ثالثًا، وهنا غضب أيوب ووجّه حديثه إلى وحيد وماجد قائلًا:

- هل أعتبر هذا إعلان حربٍ علينا؟

ثم أحاد بنظره نحو مريم وقال:

- جالبة الضباب.. مَن كانت السبب في إطلاق قوة آدم القاتلة لنخسر الحرب التي كانت من المفترض أن نكسبها، هل تأتين إلى هنا مرةً أخرى بضبابك لتساعدي حلفاءك الضعفاء؟ إنني هنا لأسترد مدينتي التي سرقتموها.

هنا ردَّ فارس بغضبٍ وقال:

- ليس لأحدٍ هنا مدن سوانا.

زمجر أيوب فباداله ذلك فارس، فتدخلت مريم وقالت:

- إنني لا أحالف أحدًا هنا.. فقط أنفذ ما تحتاجه مني قوة الظلام.

تبادل وحيد وماجد النظرات ومعهما أيوب مستنكرًا:

- قوة الظلام؟ إننا في الظلام نفسه ونحن قوته.

فوجّه ماجد لها السؤال قائلًا:

- إذن، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

لاحظ أيوب ذلك السؤال وبدأت ملامح وجهه تتغير ليعقد حاجبيه ويركز فيما يسمعه، فيبدو أنه كان يظن شيئًا وها هو يبدو أنه يرى شيئًا آخر.

فتدخل فارس في أطراف الحديث وقال في فخرٍ:

- إننا هنا لنستولي على جميع مدن أرض الظلام.

الجميع تبادل النظرات المندهشة الغاضبة، فقال أيوب في وسط هذه الأجواء المجنونة:

- ماذا؟

فقال وحيد أخيرًا:

- لا أحد سيستولي على شيءٍ، ونريد منكم أن تسلمونا مدينتنا.. مدينة المعترضين.

تدخل أيوب مرةً أخرى مستنكرًا:

- مدينتكم؟

وهنا علم الجميع أن كل طرفٍ يأخذ صفه بمفرده ولا وجود لتحالفاتٍ هنا، الجميع أتى لنفس الهدف.. وهو الظفر بجميع مدن أرض الظلام، الكل يريد أن يفرض قوته ويسود العالم السفلي.

وبعد الكثير من النظرات المتبادلة من جميع الأطراف قال أيوب نافرًا غاضبًا متعطشًا للحرب:

- إنني هنا أمثل الطرف الأقوى؛ فجميع الآليين في صفي من جميع مدن أرض الظلام، كما أن شهاب قائدهم على مقربةٍ من الوصول إلى هنا ومعه قوة أخرى، إنني هنا مَن أمثل القوة والسيطرة، إننا هنا لأكسب ما أتيتُ لأجله.

تصاعدت الأجواء ولم تعد تحتمل أي حديثٍ آخر، تدب قلوب الجميع هنا الآليو، والمرتدون الآليون على أتم الاستعداد منتظرين فقط الأمر، فردَّت مريم على تهديد أيوب في ابتسامةٍ لاحظها الجميع إنها تدل على الفخر والشعور بالانتصار وقالت:

- يبدو أن الجميع هنا أتى ليخسر، لا أحد هنا سيفوز غيري.

ثم تحولت ملامحها إلى الغضب وكشَّرت على أنيابها وأردفت:

- لا يظن الجميع أنني لم أضع في حسباني هذا، لقد رأيتُ بالفعل سابقًا ما أراه أمامي الآن، وقد أتيتُ على أتم الاستعداد لأجلب على الجميع الظلام.

في الحقيقة لم آتِ إلى هنا لأتبادل الحديث مع أحد؛ لقد أتيتُ إلى هنا فقط لأنفذ مهمتي، وأجلب لكم الشر بعينه.

انتبه الجميع لما تقوله، والكل منصت تمامًا لكلامها الذي استطاعت به أن تنجح في أن تُدب الشك في قلوب الجميع؛ فرآها الجميع تغلق عينيها وتبسط ذراعيها لآخرهما وتقول في

صوتٍ مرعبٍ كأن هناك قوةً شريرةً تتحكم فيه:

- ليأتي الضباب.

وبعد لحظاتٍ، أتى الدخان والضباب الأسود من جميع الأماكن.. من جميع الاتجاهات، وكأن الضباب منتظر إشارتها ليلبي نداءها ويحضر على الفور لها بظلامه.

فبعد لحظاتٍ، أصبح لا أحد يرى شيئًا، الضباب كان يغشي عيونهم، ساد الظلام أرض الظلام كلها وليس هنا سوى السواد فقط.

تشتت القوات.. تشتت جميع الأطراف حتى القراصنة أنفسهم لم يتوقعوا ذلك، الجميع يركض ليحتمي كي لا تأتيه ضربةٌ من العدو تقضي عليه وهو لا يرى شيئًا؛ ففي الحقيقة لا أحد يرى مَن يركض بجواره، فقط جلبت مريم الضباب الأسود مرةً أخرى بسحرها القوي.

أخذ الأمر دقائق لا أشعر بشيءٍ، وكأن رأسي منفصلة عن كياني، كان ذلك أشبه باللحيظات التي تسقط فيها من الفراش أرضًا وأنتَ نائم.

ثم تم دفعي وبقوة وقذفي إلى... لا أعرف إلى أين أو إلى ماذا؟

إنني الآن ملقى أرضًا أحاول أن أستعيد توازني، أحاول أن أنهض من مكاني، رأسي يدور هناك ألم في جميع أجزاء جسمي وبالأخص رأسي فبداخلها أصوات متداخلة، هناك أيضًا طنينٌ بأذني.

ثم بدأتُ أهدأ وأحاول بعيني أرى أين أنا؟ إلى أي زمكان آخر ذهبتُ إليه؟ هل سأرى سارة ودينا الآن؟ أم أين أنا؟

بعد دقائق أخرى بدأتُ أستوعب الأمر؛ راح الطنين، ذهبت الأصوات المتداخلة، وأخيرًا أستطيع أن أقف على قدمي ناجحًا في توزان نفسي، تبدأ عيناي في إبصار ما حولهما، فأخذتُ أنظر حولي لكي أعرف أين قد ذهبتُ، فكانت المفاجأة بل كانت صدمةً أكثر مما هي مفاجأة، إنها أرض الظلام! بالتحديد في مدينتي.. مدينة المحافظين!

وبالأدق إنني وجدتُ نفسي بعد كل هذه الدوامة الذي قذفتني إلى هنا قريبًا من السجن السفلي.

كيف ذلك؟!

كيف لم أسافر إلى الزمكان الآخر الذي من المفترض أن تتواجد فيه سارة ودينا؟ أو الذي أتى منه التنانين؟ أي جنونٍ هذا؟

كيف بوابة الزمن تنقلني إلى مكانٍ آخر دون التغيير في الزمن؟

ثم انتبهتُ لما جاء في فكري من تساؤلي وقلت في نفسي: "أم أنني ذهبتُ إلى زمانٍ آخر في أرض الظلام؟"

لم أجد شيئًا لتساؤلاتي، بل لن يكون أمامي سوى شيءٍ واحدٍ وهو الذهاب من هنا لأجد أي شخصٍ أو أي شيءٍ يجعلني أعلم في أي زمانٍ أنا؟ فكان هذا من منطلق تساؤلي

لِمَ هنا بالتحديد قذفني ذاك الضوء الأزرق؟ لِمَ قريب من السجن السفلي؟

وهنا كان بداية معرفتي لهذا الأمر، وهو الذهاب إلى السجن السفلي.

رحتُ قاصدًا وجهتي، آخذًا حذري، وصلتُ إلى الطريق الذي يؤدي إلى السجن، ولمحتُ هناك ستة أفرادٍ يبدون غرباء بالنسبة لي، وحركاتهم بها شيء أعلم به تمامًا.

هل هؤلاء آليون؟

ولكن كيف؟

ألم يكن من المفترض أن يكون السجن السفلي في حراسة البشر المحافظين، يحرسون أيوب وشهاب؟!

تقدمتُ إليهم وقبل أن أتفوه بأي شيءٍ واجهتُ ضربةً بغتةً من أول الحرّاس كأنهم ينتظرون مجيئي لفعل ذلك، ثم لاحظتُ تشتتهم جميعًا حين رأوني وكأنهم رأوا عدوهم السابق.

وقال أحدهم للآخر:

- انتبهوا.. إنه آدم.

ثم أبصرتُ الستة آليين يجتمعون حولي، وبتلقائية أخذتُ أدافع عن نفسي ولأن سريعٌ مثلهم استطعتُ أن أراوغهم قليلًا.

ولكن بسبب العدد لم أصمد أكثر من دقائق لتخر قوتي

أمامهم ويتغلبوا علَيّ بعد أن فككتُ أجزاء اثنين منهم.

جروني إلى السجن السفلي، بلغوا بوابة الزنزانة الكائنة بسطح الأرضية، فتحوها ليلقوني بالحفرة.

الحفرة التي وجدتُ فيها آخر ما توقعته بل مَن توقعته، كانت تلك المفاجأة إنه خالي فهمي مسجونًا هنا بالأسفل! نظر إلى الأعلى وقال:

- الزمن يعيد نفسه.

فسألته قبل أن يلقوني بالحفرة:

- أليس من المفترض أن أجد أيوب هنا وشهاب بالزنزانة الأخرى؟!

أجابني:

- تم إطلاق سراحهما بواسطة الحكَّام السابقين لمدينتنا.

وهنا علمتُ أنني في نفس الزمن؛ فغضبتُ شعرتُ أن كل شيءٍ كافحتُ من أجله راح؛ ظهور التنانين واحتلالهم العالم العلوي، عودة الآليين بقيادة ريتاج ورامز، استنساخ كل من تفكك أجزاءة بالحرب، وإعادة كل أعداد الآليين كما هي بل وأكثر، عدم العثور على المفقودين، وأخيرًا إطلاق سراح أيوب وشهاب.

لقد ضممتُ قبضتي وارتفع مستوى الأدرينالين وتتدفق الدم بعروقي، وضربتُ بقبضتيّ الاثنين اللذين كانا ممسكين بي، كانتا قبضتين مميتين من البداية، فقصدتُ بضربتي مركز

تشغيلهما الذي يكمن بخلف رقابهم.

تبقى منهم اثنان، استطعتُ بعد مناورةٍ استغرقت دقائق أن أفكك أجزاءهما، بل وأكثر من ذلك لقد فككتهم إلى أجزاءٍ دقيقة جدًا؛ حتى لا يستطيع أحدٌ أبدًا تجميع أجزائهم مرةً أخرى.

حتى بالكاد أحسستُ بوجود خالي بجواري الذي خرج من الحفرة يحثني على التوقف مما أفعله، ولا أستجيب؛ فربَّت على كتفي وضم أصابع يده وقال:

- لما كل هذا الغِل؟

توقفتُ ورفعتُ نظري نحوه وقلتُ له في أسفٍ:

- إنهم لن ينتهوا أبدًا.

بعد أن هدأ روعي حكى لي خالي كل شيءٍ لم أكن أعلم به، كما قصصتُ له ما حدث بالأعلى، كان ذلك بشكلٍ مختصر للغاية لضيق الوقت، شاملًا في سردي أهم حدث وهو فتكي للتنين.

فقال لي شيئًا واحدًا بعد اندهاشه مما حدث بالأعلى:

- على الأقل إنها بوابة زمن بالفعل كما تكهنتَ.

نظرتُ في وسط عينيه في تمعن وقلت بعد تفكيرٍ:

- هل ما أفكر فيه حقًا؟

تساءل خالي:

- ماذا؟

أخبرته في تساؤل:

- هل قذفتني الموجات التي كانت بالضوء الأزرق إلى هذا المكان دون تغيير في الزمن؛ لأنني آخر ما فكرتُ فيه كنتَ أنت ومدن أرض الظلام؟

ثم دققتُ النظر أكثر وضيقتُ جفني واستطردتُ في تساؤل:

- هل تفعل بوابة الزمن تلك وظيفتها عن طريق التخاطر العقلي؟

رفع خالي كتفيه، تلك الحركة التي تدل على الاستسلام لاستنتاجي؛ لأنه لا يوجد تفكير أكثر منطقية من هذا.

ثم قلت له:

- هيَّا بنا لننقذ المدينتين مدينة المعترضين ومدينة المتهورين، ولكن قبل ذلك علَيَّ أن أعيد ابني، فلم أعد أثق بحمايتها له.

عقد خالي حاجبيه وبدا أنه يفكر في شيءٍ ما فقال:

- لم يكن بحوزتها ابنك حين التقينا بها في مدينة المعترضين.

جحظت عيناي وقلت في غضبٍ:

- ماذا؟

أجابني:

- كان الاتفاق أن تذهب إلى مدينتي الجنوب للتحالف ولكنها سبقتنا إلى مدينة أيوب حيث القراصنة، ومن ثَمَّ لم تكن هناك فرصة للعودة إلى المسكن لأرى ابنك.

قلت له في لهفةٍ:

- هيَّا بنا إلى هناك أولًا.

وبسرعةٍ قصدنا أحد المركبات التي تخص هؤلاء الملاعين الآليين وركبناها ووصلنا إلى المسكن، ولكن لا يوجد أحد! وصديقة مريم التي كانت تعولها أثناء وضعها الطفل لم تعد موجودة لا أحد بالمسكن؛ فقصدنا المركبة سريعًا وأخبرتُ خالي يجب أن نذهب إلى مدينة المعترضين أولًا، وأثناء طريقنا في وسط مدينتنا وجدنا ما جعلنا نتوقف بغتةً.

كان حشدًا لا يقل عن مائة شخصٍ، بل مائة آلي إذا صح الكلام، وفي المقدمة يقودهم كان ذلك الأصلع الذي لطالما كرهه صديقي نوح.. إنه شهاب.

كان يقودهم ويحثهم على التوجه لمساعدة أيوب في الاستيلاء على مدينتي المعترضين والمتهورين، ترجلنا من المركبة واقتربنا نحوهم حتى مسافة تبعد عنهم حوالي عشرة أمتار.

وقفنا في مواجهة بعضنا البعض، أنظر في عينيّ شهاب الذي كان يبادلني ذات النظرات، فبادرتُ بالحديث:

- لن يفيدك أيوب بشيء.

ردَّ شهاب:

- وما الذي ستقدمه أنت؟

أجبته:

- أيوب لا يريد سوى السيطرة على جميع مدن أرض الظلام لطالما كانت رغبته منذ أعوامٍ مضت، تلك الأرض التي حوتكم من نيران التنانين.

ثم أشرتُ له بإبهامي محذرًا إياه:

- إياك أن تعتقد إنكم ستعيشون حياةً أفضل هنا تحت قيادة أيوب، لقد أصبحنا جميعًا مطرودين من العالم العلوي.

شهاب:

- سأعود بالآليين إلى عالمنا العلوي، وسيساعدني أيوب في ذلك في مقابلة مساعدته في سيطرته على العالم السفلي.

أثار هذا الحديث غضبي، وقلتُ صارخًا في وجهه:

- لا يوجد عالم علوي.. لا تكن أحمق مثلهم.. هناك كهفٌ بالعالم العلوي فيه تبيت التنانين.. تحتها عشرات البيضات.. بيضات ستفقس عندما تحين موعدها.. وسيصبح هناك الكثير من التنانين بالعالم العلوي التي لن تستطيعوا أنتم الآليون أن تواجهوها.

قال شهاب في غرورٍ وكأنه لا يبالي بشيءٍ:

- سنبتكر أسلحةً بيولوجية وسندمرها جميعًا؛ إننا نمتلك العلم.

تنفستُ الصعداء وأخبرته صارخًا:

- نيرانها ستكون أسرع من الوقت الذي ستستغرقه في ابتكار سلاحٍ جديد، ثم لا يغفل عنك أن العالم العلوي أصبح الآن خرابًا، لن تكون هناك العوامل المساعدة في أجود حالتها.

ثم قلتُ ضاغطًا على صدغي ومشيرًا بإبهامي:

- ولا يغفل عنك أيضًا إننا نحن مَن كنا نمتلك العلم، وأنتم مَن كنتم نتاج العلم، فأنتم ملكنا.

زمجر شهاب وبان عليه الغضب الذي تعلمه من معاملته من البشر؛ فتدخل هنا خالي وقال موجهًا كلامه لشهاب:

- وإن قدمنا لكَ عرضًا يفيدك أكثر من عرض أيوب لكَ؟

نظرتُ له متعجبًا، فما سيقدم خالي على قوله لن نتفق عليه، في الحقيقة لا أستطيع أن أفهمه الآن أو أتكهن بما يدور بخلده، ثم سأل شهاب:

- وماذا لديكم لتعطونا إياه؟ حتى أرض الظلام التي تعتبر الشيء الوحيد الذي تملكونه؛ فقريبًا لن يعد ملككم.

قال خالي في ذكاءٍ وأنا أراقب الحوار:

- لدينا السلاح الذي يقتل التنانين، ولن تكون بحاجةٍ إلى وقتٍ لابتكار واحدٍ جديد.

بدأ شهاب يلين لكلام خالي الذي بدأتُ أفهمه، وتساءل الأول في اهتمامٍ:

- ما هو ذلك السلاح؟

أجاب فهمي:

- لقد قتل آدم بالفعل واحدًا من التنانين السبعة الموجودة بالأعلى، ويستطيع أن يقتل الستة الباقية قبل أن تفقس بيضاتهم، وبهذا تعود إلى الأعلى دون أن تنتظر مساعدة أيوب ودون أن يتطلب منك الأمر التدخل في شئون عالمنا لسفلي.

نظرتُ إلى خالي مندهشًا مما يقوله، كما إنني أحدثُ نظري إلى شهاب الذي كان يرمقني بنظراتٍ متسائلة؛ فأردف خالي:

- وأنت تعلم جيدًا كيف يستطيع أن يقتله.

بدا أن شهاب استجاب لما يقوله خالي فتساءل:

- وما المقابل الذي تطلبونه؟

قال فهمي:

- مدينة صغيرة بالعالم العلوي نعيش فيها بعيدًا عنكم، ونترك أرض الظلام إلى أيوب لطالما رغب بها.

قال شهاب:

- إنه مقابل كبير عما يطلبه أيوب.

قال فهمي في ذات الذكاء:

- لأننا سنقدم أكثر ما سيقدمه أيوب؛ بمساعدة آدم لكَ ستحقق هدفك في وقتٍ أقل ومجهودٍ أقل، وأيضًا ستضمن نتيجة مضمونة، فالأمر مع أيوب مختلف كل الاختلاف عن هذا.

قال شهاب مفكرًا في الأمر:

- هذا سيخلق لي عداوةً مع أيوب.

أكملتُ الحديث نيابةً عن خالي وقلت:

- كما كنت ستخلق عداوة معي.

فبدا شهاب أنه فهم ما أقصده بقولي ذلك.

استمر شهاب في التفكير حتى سمع ذلك الصوت الذي خرج من ذلك الجهاز الصغير الدقيق الذي كان يربطه بأعلى ذراعه قريبًا من كتفه، كان ذلك صوت نوح يقول له:

- أرض الظلام ستصبح أكثر ظلمةً يا آدم.

***

لا زال الجميع يركض ويهرول، لا زال الجميع يحاول أن يحتمي من ذلك الضباب الأسود، لكن الصدمة حقًا كانت فيما حدث بعد جلب مريم الضباب الأسود وكأنها تتحكم أيضًا في سرعة الضباب، لقد أصبح الأمر مثل عاصفةٍ سوداء هائجة تلطم كل ما يقابلها.

ساد الظلام فوقهم.. عمى الضباب رؤيتهم.. لطمت العاصفة أجسادهم.. لقد أصبح الأمر جنونيًا إلى أبعد حد.. لا أحد

يعرف مَن بجواره!!

ثم بدأ الجنون حقًا حين تعالت الأصوات ودوَّت صراخاتهم، ثم تحولت هذه الأصوات إلى تنهيداتٍ وصراخهم إلى عويل.

فاحت بين أنوفهم رائحة غريبة.. رائحة تفوح بالغدر والخيانة.. رائحة الدم.. الدم الذي بدأ يسيل من أجسادهم المطروحة أرضًا تحت أقدامهم.

فلقد بدأ الغدر من فارس؛ حيث كان أول مَن كان يضرب بسلاحه الأبيض، فكان أول قتيلٍ من القراصنة، وذلك لأن فارس قتل أحد أقاربه، لقد قتل أحد القراصنة، وذلك ليشغل الغل والغضب في قلوب بقية القراصنة ليعلنوا عن جام غضبهم على جماعة وحيد وماجد.

وبالفعل تم تعطيل لأكثر من مرتد التابعين لهما عن طريق القراصنة والآليين، كما حدث بالفعل للآليين عن طريق المرتدين والقراصنة، وتم قتل أكثر من قرصانٍ على يد أيوب وآلييه والمرتدين.

وذلك بسبب أول شرارة أشعلها فارس دون أن يراه أحد فلا أحد يرى شيئًا، والجميع يظن أن الكل يحارب من أجل حماية نفسه، وكل منهم يظن أن عدوه هو الذي أسقط منهم قتلى.

وحيد وماجد مرعوبان يقول أحدهما للآخر:

- هل هذه النهاية؟

كان ذلك ماجد فأجاب وحيد:

- ليس قبل أن أرى حبيبتي سارة.

تبعه ماجد:

- نعم، ليس قبل أن أرى حبيبتي دينا.

كانا مذعورين في زِقاقٍ ما، يحتميان بركنٍ بعيدٍ عن هذا الخراب، فقال وحيد:

- لكنها نهاية أرض الظلام.

قال له ماجد:

- لن ندع ذلك يحدث؛ إننا أصحابها وكل مَن يريد خراب هذه الأرض فهو مستوطنٌ غريبٌ لا يبالي لها، يجب طردهم أشر طردة.

أجاب وحيد باسطًا كفه التي استقبلها ماجد بكفه هو الآخر وقال الأول:

- إذن فلنطردهم.

كان فارس مستمرًا في إسقاط الآليين سواء مِن تابعي أيوب أو من المرتدين، حتى كان يراقبه أخوه عبد الله في صدمةٍ ويحثه أن يتوقف؛ فيرفض الأصغر ذلك بقوله:

- إنها فرصتنا للاستيلاء على كل مدن أرض الظلام.

قال عبد الله في مستنكرًا:

- ماذا؟ أرض الظلام؟

ثم أشار عبد الله إلى ما يحدث حوله وأردف:

- لن يكون هناك أرض الظلام لتحارب لأجلها، ما تفعله لن يجعل لأرض الظلام قيمة، فلو مات الجميع ستحكم مَن؟!

صرخ فارس في وجهه:

- لتساندني أو لا تقف في طريقي.. إنهم يقتلون جماعتنا.

قال عبد الله في استنكارٍ آخر:

- جماعتنا؟ هل فعلًا بالنسبة لكَ جماعتك التي عِشت حياتك وسطهم؟

نظر فارس في توجس بعينين حائرتين تتراقص عدستهما لإيجاد اليقين لما يدور في خلده؛ فاستطرد عبد الله في غضبٍ حتى صرخ أخيرًا في وجه أخيه الأصغر:

- نعم، لقد رأيتك، لقد كنتَ أول مَن سفك الدماء، لقد شاهدتك وأنت تقتل أحد جماعتك.

كان هناك أيوب أيضًا متعطشًا لما يجيده منذ ولادته؛ إنه متعطشٌ لسفك الدماء وهذه هي لعبته، إنه يُسقط أمامه كل مَن يعترض طريقه، يسب ويلعن في نفسه بصوتٍ عالٍ يحث فيه شهاب الذي لم يأتِ حتى الآن بالدعم، رغم أنه يعتبر الطرف المسيطر بعد مريم بسبب كثرة أعداده.

مريم التي كانت بمثابة السبب الأول والرئيس في هذه الفوضى العارمة التي سادت المدينة بأكملها، إنها في قلب الحدث... في قلب الساحة.. تلك الساحة التي كانت ولا زالت حتى الآن ساحة إعدامٍ مهما تغير الزمن، ومهما اختلفت

الطريقة ستبقى ساحة إعدامٍ.

لا يستطيع أحدٌ أن يلمسها أو يقترب نحوها، إنها مصدر كل ذلك الضباب العاصف، لا زالت مستمتعة بالأجواء وتضحك ضحكتها الساحرة الشريرة، مرتدية عباءتها السوداء بذلك غطاء الرأس الذي تنصبه فوق رأسها.

وأخيرًا، لقد وصل نوح بالكاد إلى مدينته التي لم تعد مدينة بعد أن تحدث مع آدم من خلال ذلك الجهاز الطريق.. فهو لا يرى شيئًا سوى الضباب.

يضرب ويُسقِط كل مَن يتصدى له إنه يحمي نفسه فقط، لكنه لاحظ أن الذين يسقطهم أغلبهم من الآليين، ثم لمح بالكاد أيوب يفكك في أجزاء المرتدين، وأخذ ينادي على وحيد وماجد بعزم صوته الذي لم يستطع أن يصل إلى آذان وحيد وماجد؛ فيتلاشى الصوت في وسط هذه العاصفة السوداء.

لقد استمر هذا الجنون قرابة الأربع ساعات منذ بدايته، حتى وصل آدم أخيرًا ومعه شهاب وآليوه من سكان مدينة الشمال، وبرفقته أيضًا بعض الشماليين المحافظين البشريين.

وهنا وفي هذه اللحظة بالتحديد شعرت مريم بوجود آدم بالجوار، علمت بداخلها أن رؤيته لها وهي تفعل ذلك ستصدمه، بل وسيحزن جدًا لما أصاب أرض الظلام من لونٍ أحمر.. لون الدماء الذي صبغ المدينة، وإن حزن سيغضب على ما آلَ إليه الأمر، وإن غضب سيطلق عنان غضبه ليدمر

الجميع هنا.

ومن هنا، علمت أنها ستخسر.. ستنهزم أمامه؛ فقررت أن تهدأ وتستوقف ما تفعله، وبالفعل بدأ الضباب يتلاشى شيئًا فشيئًا، حتى بدأت الرؤية تتضح للجميع؛ فاندهش آدم حين رأى اختفاء الضباب عند وصوله.

***

وصلتُ إلى مدينة نوح، كان الضباب يسود المدينة، لا أرى شيئًا على الإطلاق، ولكن الغريب أن الضباب بدأ أن يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى بدأت الرؤية تتضح، يرى كل شخصٍ فينا مَن بجواره.

لقد كان خرابًا عارمًا، فما رأيته يدب الخوف في قلوب الجميع، لقد كانت مذبحةً حقًا، لقد أصبحت المدينة حمراء، رائحة الدم تفوح في الساحة، إنه مكان اسمه حقًا يحمل معناه.. إنها ساحة الإعدام، وأراها الآن مذبحةً مات وسقط فيها من جميع الأنواع.

دب الخوف في قلبي، شرعتُ أنادي على وحيد وماجد، سمعتُ صوتًا آخر ينادي عليهما، لقد تميزت الأصوات حين سكتت العاصفة السوداء.. إنه صوت نوح، وهنا تم الرد علينا، لقد ظهرا من مخبأهما كان في زقاقٍ ما بالجوار.

الجميع ينظر حوله، ينظر إلى الخراب الذي حدث، لقد كانت أطرافًا عديدة، التف المرتدون حول نوح وكأنه مصدر قوتهم؛ فاستعادوا بعودته لهم القوة والسيطرة.

كما أن الآليين يلتفون حول أكثر الأشخاص الذي أكن الكره له.. إنه أيوب.

هناك أيضًا على جانب آخر القراصنة يلتفون حول قائدتهم مريم، التي تسببت في أكبر الصدمات التي تعرضتُ لها في الأيام المعدودة التي مضت مليئة بالأحداث.

ننظر كل منا إلى بعضنا البعض، حتى لمح أيوب أن خالي يقف بجواري وليس محبوسًا كما فعل؛ فامتقع وجهه، ولكن ما أثار غضبه أكثر حيث رأى أيضًا شهاب بجواري.. فبادر بالحديث غاضبًا:

- هل تخونني؟

كان يقصد بسؤاله شهاب، فأجاب الأخير:

- ما معنى الخيانة؟ إننا نفعل ما هو صالح لجنسنا فقط.

وآدم عرض علَيَّ عرضًا أكثر سخاءً من عرضك.

امتقع وجهه مرةً أخرى، فتحدثتُ إليه:

- انظر حولك.. ستكون سببًا في هلاك البشر.

قال في غضبٍ:

- لستُ أنا جالب الضباب.

لقد امتقع وجهي هذه المرة، فما قاله كان أشبه بسكينٍ تقف بسيفها على قلبي؛ فتجاهلت ما تفوه به وسألته:

- أين ابني يا أيوب؟

هنا اعتلت وجهه ابتسامة شيطانية خبيثة شاعرًا بالفخر ولم يجبني، فوجّهتُ نظري إلى مريم التي أتحاشى النظر إليها، وشعرتُ لوهلةٍ أن يتحرك قلبها حين تسمع اسم ابنها، لكنني رأيتها لا تبالي لما أقوله! إنها لا تحرك ساكنًا! تقف مكانها وقراصنتها يلتفون حولها بقيادة الأخوين الأحمقين.

فأعدتُ سؤالي إلى أيوب فأجاب:

- إنه بحوزتي، لكنك لن تراه حتى أستعيد مدينتيّ.

لقد أثار غضبي حقًا فقلت مستخدمًا عقلي كي أسيطر عليه، فتحدثتُ بصوتٍ جهورٍ:

- انظروا أيها الآليون، إنه شهاب قائدكم يقف بجواري، لقد قدمتُ له عرضًا سخيًا، سأقتل لكم التنانين التي بالأعلى، لقد قتلتُ واحدًا منهم بالفعل والجميع يعلم هنا كيف قتلته.

سأقتلهم لكم لكي تعودوا مرةً أخرى إلى عالمكم العلوي، في مقابل أننا سنأخذ نحن البشر مدينة بعيدة عنكم لكي نعيش بها، ويكون هناك سلام بيننا.

كشّر أيوب على أنيابه وشعر بالهزيمة حين رأى كل الآليين الملتفين حوله ينضمون إلى شهاب في صفي.

وهنا نظرتُ له وسألته في الأمر للمرة الثالثة:

- والآن عليك أن تعيد لي ابني.

فأجابني في غضبٍ:

- لن يحدث حتى أستعيد مدينتيّ.

كشَّرتُ عن أنيابي، فتدخلت مريم أخيرًا قائلةً:

- لا أريد مدنًا، ولا أريد أرض الظلام أو العالم العلوي، إنني أريد فقط أن أنفذ ما طلبوه مني، أريد أن أجعل كل شيءٍ يخضع لقوة الظلام التي أكون تحت حمايتها.

هنا عقد فارس وجهه وقال في استنكارٍ:

- ماذا؟! لا تريدين مدنًا؟! ليس هذا اتفاقنا؛ لقد طلبتُ أن أستولي على هذه المدينة كما فعلنا في مدينة أيوب.

غضب أيوب حين سمع ذلك وقال له:

- ليس لكَ مدن أيها الأحمق، ولا تفكر في أنك تعاديني.

زمجر فارس أمام أيوب فبادله الأخير في ذلك حتى تدخل عبد الله قائلًا:

- في الحقيقة معك حق، ليس لنا مدن هنا.

صُعِقَ أخوه فارس لما سمعه من عبد الله؛ فقال غاضبًا:

- ماذا تقول؟

أجاب عبد الله:

- لقد اتخذتَ مسارًا مغايرًا يا أخي، لقد ضللتَ الطريق ونسيتَ أننا غرباء هنا، وهذا ليس عالمنا.

اسمع لما يقولونه سيقتل آدم التنانين، وهذه فرصة لنا أن نعود أدراجنا إلى البحر. أليست التنانين كانت هي مخاوفك؟

احتقن وجه فارس وقال:

- وما ثمن مساعدتنا لهم في حربٍ ليست حربنا؟ ولا تقول أنهم قدموا لنا الحماية، فلولا تلك الحرب لما كُنا هنا من البداية.

كنتُ أراقب الحديث الذي دار بين عبد الله وأخيه، فيبدو أن الأمور تتطور وهناك انقسامًا بداخل صفوفهم، فأجبتُ فارس:

- إنك على خطأ. في الحقيقة إن دخولكم في حربنا كانت السبب في حمايتكم الآن من التنانين، فلولا ذلك لكنتم في وسط البحر مكشوفين لنيرانهم؛ لأن سواء كنتم مشاركين في الحرب أو لا فكانت ستأتي التنانين في النهاية حتمًا.

وما يدعم كلامي هذا هو وجود كهفٍ تبيت فيه التنانين وتبيض بيضاتها على جزيرةٍ في وسط البحر الذي كنتم تعيشون فوق سطحه.

هنا صمت فارس؛ فبدا الاقتناع عليه أنه على خطأ ولكنه كان متكابرًا محاولًا أن يبين أنه لا يبالي، فأتبع عبد الله قائلًا وهو رافعٌ ذراعيه مستسلمًا:

- إنني لا أريد حربًا هنا، لا أريد سوى عودتي للبحر، لقد سالت دماء كثيرة منا وليس لديَّ استعداد أن أفقد فردًا واحدًا آخر من جماعتي.

وهنا تحرك من مكانه واختار أن ينضم لصفنا، فتبعه العشرات معه من جماعته أولئك الذين يؤمنون أن الحرب لن تنتهي دون تضحية، حربًا قد يكونون فيها كبش الفداء، ولكن

ظلت أعدادًا أخرى ليست بكثيرة لا زالت تدعم فارس بجوار مريم، فتحولت السيطرة لتكن حليفتنا؛ فالآليون والمرتدون ونصف القراصنة تقريبًا في صفنا.

وتبقى أيوب مع الموالين له من المعترضين والمتهورين سكان المدينتين الأصليين على جانبٍ، وعلى آخر هناك مريم ومَن يواليها.

فنظر فارس نحو مريم التي لا زالت تقف بجواره فلاحظت هي ذلك، وقالت له:

- إنني لي هدفٌ آخر، أنا لستُ مع أحدٍ.

اغتنمتُ هذه الفرصة وأخيرًا قررتُ أن أوجّه كلامي لها، فقلتُ:

- ولا حتى مع ابنك الذي بحوزة أيوب.

نظرت لي نظرتها الجديدة الشريرة ولم تبدِ لي أي اهتمامٍ، ثم شرعت في الرحيل وما زالت الدهشة على وجهي تزيد لما أراه تفعله، ثم شدت ترحالها نحو الجنوب.

أما فارس فكان مصدومًا ولا يعرف ماذا يفعل حين علم بمغادرتها لها، فهمد مُسلِّمًا أمره.

وحان الوقت لأعود إلى أيوب الذي لا يزال يناضل من أجل أن يعيد مدينتيه فقلتُ له:

- والآن أنتَ مثلهم مهزومٌ، ليس أمامك سوى أن تخبرني بمكان ابني وبالمقابل سأتركك حرًا طليقًا.

لا أعرف ما السبب وراء الابتسامة التي تعلو وجهه، وكأنه يشعر بالانتصار في ذروة انهزامه، فقال لي:

- دومًا أضع في حسباني كل شيء، فلستُ أنا الذي يخرج مهزومًا بهذه الطريقة القذرة.

وهنا ضحك ضحكته الشريرة، وفي أقل من لحظة حدث ما لم يكن في الحسبان أبدًا؛ حدث ما لا أحد يتوقعه بتاتًا، كانت المفاجأة التي حولت مسار المعركة فما حدث كان في قمة الخيانة!

ولحسن الحظ انتبهت لتلك الحركة التي منعتها قبل أن يحدث ما يحدث، فصرختُ بصوتي للجميع قائلًا:

- احتمووووا.

لقد نزل علينا وابلٌ من الرصاص، ذلك الرصاص الذي كان معنا مثله في الأسلحة القديمة التي استخدمناها في حربنا ضد الآليين منذ عامٍ ونصف!!

إنهم جماعة المحافظين.. حكام المدينة السابقين بقيادة كبيرهم "صالح"، في أيديهم ذات تلك الأسلحة القديمة التي ظننا أنها لم تعد موجودة بعد الحرب منذ عامٍ ونصف.

لقد احتمى الجميع حتى الآليين جميعًا.

كل منا.. أنا، وخالي، ووحيد، وماجد، ونوح، وشهاب، وكل مَن كان يقف بالساحة الكل ركض للاختباء، هناك مَن سقط ومات قتيلًا أو جسمًا هامدًا.

كانت تلك الفرصة التي اغتنمها أيوب ومَن معه للهروب، لقد أتى صالح ذلك العجوز الأحمق بالمساعدة التي ستنقذ الأول مِن مأزقه.

لولا وصول صالح في هذا الوقت لكان شعر أيوب بالهزيمة، وأخبرني عن مكان ابني.

اللعنة!

لقد فرَّ أيوب بجلده؛ فصرختُ قائلًا:

- أيوووووووب، أين ابني؟

* * *

الفصل الثاني

بوابات الزمن

البرد والظلام

قبل عامٍ ونصف:

اختفت آلة الزمن التي بها سارة ودينا قاصدتين في وجهتهما عام 2088 حيث بدأ فيه كل شيء.

أخذت المركبة في الدوران والتخبط، حيث كانتا تأملان في ذلك أن تمرا عبر الممر الذي يتجنب النقطة التفردية المركزية، تلك النقطة التي إذا مرتا من خلالها ستنسحقان.

ظلت سارة تحاول بقدر ما استطاعت أن تتبع النجوم النيترونية؛ لتتمكن من العبور بسلامٍ عبر زمكان آخر.

وبعد دقائق من الدوران والتخبط، نجحتا أخيرًا في عبور الثقب الرامي A الأسود بسلامٍ دون أن تمرا من خلال النقطة التفردية المركزية.

ولكن نجحتا في العبور لتواجههما تلك الصدمة التي لم ولن تتوقعاها أبدًا، لقد نجحتا في العبور ولكن لم تنجحا في الوصول إلى الجهة المقصودة.

فالصدمة كانت أنهما ذهبا إلى زمكانٍ آخر غير المحدد! في الحقيقة إنهما وصلتا إلى زمكانٍ آخر في كونٍ آخر غير كونهما، وهذا ما خشاه آدم بالتحديد.

لقد قذفهم حقل الموجات الكهرومغناطيسية عبر الفضاء الواسع إلى خارجه حتى وصلتا إلى منطقة الجاذبية الأرضية، وسبب عدم توازن الآلة لم تستطع سارة التحكم في قيادة

المركبة، ولكن لا زالت المركبة محتفظة بقوة الفعل الذي حدث بها، لازالت تتحرك فيما بين السماء والأرض في حركة خارج إرادة القيادة محتفظة بقوة القذفة.

أخذت الآلة تسقط هبوطًا بشكلٍ منحدر وليس عموديًا حتى وصلت أخيرًا إلى الأرض، وبسبب الهبوط المنحدر لم يلحق بالآلة كثيرٌ من الضرر.

أخذت مركبة آلة الزمن تتخبط بهما على سطح أرض هذا المكان وهذا الزمان الغريب غير المألوف، حتى خسرت الآلة كل القوة التي اكتسبتها من قذف الموجات الكهرومغناطيسية لها، واستقرت أخيرًا بعد تقلبات وتخبطات كثيرة إلى نقطة معينة على أرضية هذا المكان.

لقد تأذت سارة ومعها دينا من أثر الارتطام الأرضي وهما بداخل الآلة، لكن لم يكن أذى كبيرًا؛ فالآلة مزودة بداعمات ووسادات هوائية متطورة.

حاولتا الخروج من المركبة حتى نجحتا أخيرًا آخذتين معهما حقيبتيهما وأمتعتهما وزادهما، وبعد دقائق استعادتا توازنها، وأخذتا تستوعبان ما حدث للتو، بل تتأملان في المكان الذي يبدو لهما ضيقًا بعض الشيء فيشعران باختناق.

ثم بعد، وجدتا نفسيهما بداخل ممر طويل بداخل خندق ممتد لأكثر من اللازم، ليس بعميق على سطح أرض هذا المكان، وهذا بفعل الآلة نتيجة هبوطها على هذا الطريق الأرضي فنتج عن ذلك الممر الذي شكّل حفرة طويلة بالأرض.

وهنا شرعتا تتسلقان بجانبي هذا الممر حتى وصلتا إلى سطح الأرض الأساسي، وبسهولة فعلتا ذلك لأن العمق ليس بكبير، ووصلتا على سطح الأرض واقفتين على أقدامهما، أخذتا تتأملان في هذا الفراغ الشاسع المريب الصامت المخيف المظلم شديد البرودة الذي هما فيه.

شعرتا في البداية بالذهول، ثم تحول الذهول شيئًا فشيئًا إلى خوفٍ، خوفٍ دبَّ بداخل قلبيهما بسبب هذا الصمت الذي يعم الفراغ، بسبب هذا الظلام القاتم الذي يسود المكان، بسبب البرد القارس الذي يعم الأجواء، بسبب هذا الهؤل الذي أمامهما.

نظرتا كل منهما للأخرى وقالت دينا في خوفٍ:

- ما هذا المكان المخيف؟

تأملت سارة قليلًا فيما حولها وقالت بعد تفكيرٍ:

- يبدو أنه ليس العام 2088 م.

تساءلت دينا في غضبٍ:

- فما هذا العام إذن؟

أجابت سارة:

- المشكلة لم تكمن في العام ولا أيضًا في المكان.

ثم نظرت إليها وأردفت:

- إننا في زمكانٍ آخر مختلف.

سألت دينا محاولةً أن تستوعب ما تحاول أن تخبرها به سارة:

- إذن؟

قالت سارة:

- لا زلتُ أقول أن هذه ليست المشكلة.

سألت دينا في توجس وارتجاف تحملق بعينيها في سارة:

- ماذا تقصدين؟

بنظرةٍ ثاقبةٍ ممتدة في الفراغ لا تعرف وجهتها أجابتها سارة:

- يبدو أننا في زمكانٍ آخر في كونٍ آخر ليس كوننا.

لا تعرف دينا إذا كانت شعرت بالذهول أم بالصدمة، لكنها تعرف شيئًا وحيدًا.. وهو أنها بعيدة كل البعد عن الوطن.

شرعتا تسيران تائهتيْن لا تعلمان وجهتهما على أرضٍ قاحلةٍ قاسية غير متساوية، حتى وصلتا إلى درجة أنهما لم تعدا تستطيعان المشي على أقدامهما بسبب طبيعة الأرض التي يسيران عليها، والأهم من كل ذلك أنهما لا تريان شيئًا أمامها سوى سطح الأرض التي تحت أقدامهما.

تملّك منهما البرد القاسي؛ فبيئة هذا الكوكب أو هذا الكون لا تشبه طبيعة بيئتهما بكوكب الأرض لدرجة أنهما شعرتا بالصقيع تحت أقدامهما، فانحنت سارة لتتحسس ما بالأرض يجعلهما يشعران بشدة البرودة، فوجدتا الثلج تحتهما! ثم

تساءلت دينا:

- ثلج؟! كيف؟!

أجابتها سارة:

- لا يوجد كيف لطالما خارج كوكبنا، يبدو أن طبيعة هذا الكون هكذا قاسية وباردة.

ثم استأنفتا مسيرتهما آملتيْن في ذلك أن يجدا أي مكانٍ مغطى غير مكشوفٍ يحميهما من هذه الطبيعة القاسية.

وبعد حينٍ من السكوت والمسيرة، تساءلت دينا في توجس مخلوط بخوفٍ:

- كيف سنعود؟

نظرت لها سارة كأنها لا تواجه بالعودة مشكلة فقالت:

- الآلة لا زالت بحالةٍ تسمح لها أن تعيدنا بعد أن نصلح بها الضرر الذي لحق بها.

فاقترحت دينا:

- دعنا نعود أدراجنا إليها ونصلحها لتقلنا إلى الوطن.

أجابت سارة:

- الأمر ليس بهذه البساطة؛ إننا نبحث عن مكانٍ أولًا لنحتمي به من قسوة هذه الأجواء، ثم ننتظر شروق الشمس لكي تنير لنا فنعرف ما هو الضرر بالضبط وكيف نصلحه، إنني بالكاد أراكِ.

استسلمت دينا لهذا الكلام الذي يبدو منطقيًا لها، واستكملت مسيرتها مع صديقتها حتى شعرتا بالإنهاك التام والبرودة الشديدة التي لم تعدا تتحملانها، أخذت خطواتهما تتأرجح فلم تعرف أقدامهما كيفية اتزانهما على سطحية الأرض المليئة بالثلج التي يسيران عليها، ففي قلبيهما شعرتا بالداخل أنها النهاية، فبدا لهما أن لا وجود للبشر هنا في هذا المكان المخيف.

حتى بدأ توازنهما يختل، والمكان يدور بهما إلى أقصى سرعة، ثم بعد محاولةٍ منهما أن تظلا ثابتتيْن واعيتيْن فقدتا وعيهما وسقطتا على الأرض المثلجة كجسمين هامدين.

***

بعد مرور اثنتي عشرة ساعة من فقدان وعيهما استعادتاه، ففتحت سارة عينيها أولًا لترى أن أعلاها يوجد سقف، وبما أن ذلك فعلمت أنهما بداخل مكانٍ ما؛ فنهضت بغتةً من مكانها لتتفاجأ أنها نائمة على فراشٍ بدائي بسيط غير معتادة عليه، فنظرت بجوارها الناحية الأخرى فرأت دينا تحاول أن تستفيق، فحثتها سارة على فعل ذلك حتى فتحت عينيها وتفاجأت مثل صديقتها، ثم لاحظتا وجود إضاءة خافتة في الحجرة تنبعث من النيران المشتعلة في ثلاثة مشاعل معلقة بجدران الغرفة.

لامست أقدامهما الأرض وأخذتا تسيران نحو الباب الذي تريانه، ثم وبحرصٍ فتحتاه لتختلسا النظر وتعلمان ما الذي أتى بهما إلى هنا، فأبصرتا حجرةً أكبر من التي كانتا بها، وبها

ذات الإضاءة الخافتة التي تفعلها ذات المشاعل الكثيرة أيضًا المعلقة على جدران الحجرة، فعلمتا أنهما لا تزالان بالداخل، كما علمتا أيضًا أن ليس هناك إضاءة تخرج من مصابيح كهربائية متطورة مثل التي في كونهما، ولكن لم تكن هذه المفاجأة، بل كانت المفاجأة هي التي لم يتوقعاها أبدًا بسبب ظنهما الذي ظناه حينما وصلتا إلى هذا الكون.

لقد وجدتا أمامها كثيرًا من العيون التي توقفت محملقةً بهما، إنها نظرات تحمل خلفها كثيرًا من التساؤلات عن ماهية هاتيْن الفتاتيْن الغريبتيْن اللتيْن أتتا على موطنهم.

في الحقيقة، أن الغريب كانت تلك النظرات المتسائلة المتطفلة في وطنٍ أغرب منهما.

فالمفاجأة كانت في رؤيتهما لوجود الكثير من البشر هنا.

شعرتا في البداية بالذهول حين رأتا أن هنا في هذا الكون يوجد بشر بعد أن تيقنتا أن لا وجود لبشرٍ في هذا الكون، ثم أخذتا تستوعبان ذلك حتى بدا تصديقهما لهذا الواقع، بدا تصديقهما أنهما وجدتا أمامهما ناس بالكاد علموا أنهم بشر مثلهم بسبب هيئتهم الغريبة بعض الشيء عن المعتاد عليه في وطنهما.

بالطبع ستكون هيئتهم طبقًا لطبيعة بيئتهم التي يعيشون بها، إنها بيئة قاسية فكانت أجسادهم نحيفة أكثر من اللازم، لكنهم يبدون أنهم يتمتعون بقوةٍ وصلابةٍ قد تجعلهم يتحملون هذه الطبيعة القاسية رغم ضعف بنيتهم.

أيضًا ملبسهم الذي اندهشتا منه في البداية؛ فمن المفترض أنهم يرتدون أشياءً من الصوف أو اللحاف حتى يشعروا بالدفء، لكن الدهشة كانت في أنهم يرتدون الرداء التقليدي العادي المعتاد لكنه قديمٌ؛ فيبدو أن ولّى عليه زمن بل والأغرب من هذا أنها ملابس مهترئة تكشف بعض الأجزاء من أجسادهم.

وبطبيعة الحال وبطبيعة بيئتهم القاسية فكان هذا الشكل الذي يظهرون به هؤلاء البشر أمام سارة ودينا اللتيْن لا تزالان تتساءلان في نظراتهما عن كيف يتحملون هذا الزمهرير؟ هل تكفي هذه النيران لتدفئتهم؟

ثم تحول شعورهم بالذهول إلى الخوف حين شاهدتا اثنين من هؤلاء البشر الغرباء يقتربان نحوهما كانت إحداهما أنثى.

دنا الاثنان نحوهما، ثم بادر أحدهما وقال متسائلًا:

- What's up ؟

نظرت كل من سارة ودينا منهما للآخر وتعجبتا أنهم يتكلمون لغةً أخرى، لقد ظنتا أن جميع اللغات ماتت مع موت عالم البشر منذ أكثر من مائة عامٍ، ولم تتبقَ سوى لغتهم التي تتحدث بها أرض الظلام في كونهم.

ولكن تعجبتا أيضًا أنه تحدث لغة مفهومة ومألوفة اللغة الإنجليزية التي يعرفونها في كونهم؛ فلقد قرأت سارة كثيرًا من الكتب التي كانت باللغة الإنجليزية حين كانت تمكث عند أيوب لتجهز ذلك المشروع الخطير (الآلات المقاتلة).

فيبدو أنه ليس كونًا مريبًا إلى حدٍ ما، فعلى الأقل وجدتا أخيرًا شيئًا يعلمان به ومألوفًا لديهما.

فأجابت سارة:

- We are feeling now !

How long have we been here ?

فأجابت الأنثى:

- 12 hours ago.

ظهرت السعادة على وجه سارة ودينا حين علمتا أنهما كانتا على الفراش منذ 12 ساعة، فهذا يعني لهما أن النهار قد أتى وبالخارج النور حيث يصلحان آلتهم.

فركضتا نحو الخارج، نحو ذلك الباب الكبير الذي يريانه من بعيدٍ خلف كل هذه العيون، لقد فتحاه وكانت الصدمة.

لقد كانت صدمةً أولجت بداخلهما أكثر درجات الرعب، فما شاهداه في الخارج كان من ضمن المستحيلات بالنسبة لهما، فكان هناك بالخارج الظلام لا يزال يسود المكان برمته.

وتساءلتا كيف لا يزال هناك ظلام بالخارج بعد مرور أكثر من اثنتي عشرة ساعة؟!

* * *

أرضٌ قديمةٌ

- ما هذا؟

سألت سارة هذا السؤال وهي جاحظة العينين غير مصدقة ما تراه، فقالت دينا في نفس الاندهاش:

- هل هنا أيضًا عالم بلا شمس؟!

نظرتا خلفهما فأبصرتا نفس الشخصيْن يقتربان نحوها، ثم انتظرت سارة حتى سألتهما:

- How ?

لم يفهم الشخصان في البداية ماذا تقصد سارة بسؤالها، وبعد أن سمعاها تفسر لهما سؤالها استنكرا، ولم يعلما ماهية هذه الشمس، إنها أول مرة يسمعان هذا اللفظ، فما تعني الشمس بالنسبة لهم؟

شرعت سارة ودينا تشرحان لهما ماهية الشمس، وأنها مخلوق خلقه الله لتنير بالأرض وتدفئها وتطهرها، كما أنها تحمل فيتامين د بأشعتها، وكم هي مهمة لاستمرارية الحياة.

وبعد أن فهم الشخصان ماهية الشمس فجال في ذهنهما شيءٌ يعلما به شبيها لما وصفتاه لهما اسمه إنفكتوس، وأن هذا الشيء ليس مخلوقًا بل في الحقيقة إلهًا، وبسبب غضبه منهم وبسبب ما فعله البشر هنا في هذا الكوكب بعد عنهم وتركهم في معاناتهم؛ ولذلك لا يوجد إنفكتوس بعالمهم.

دقيقة أخرى ستقضيها سارة ودينا هنا وسيطير دماغاهما

من رأسيهما، ما هذا الذي يسمعانه؟! ما هذا الجنون الذي يؤمنون به هؤلاء البشر؟ لقد شعرتا أنهما يقرآن لبعض الحضارات الإغريقية.

أخذتا تتساءلان كيف سيخبران هؤلاء البشر أن الشمس في الحقيقة مخلوق؟ كيف سيفسران لهم العلم الذي يعلمان به وأن هذا الكوكب يبدو أنه بعيدٌ عن المجموعة الشمسية لذلك وُجِدَ هكذا.. كوكب مظلم.

كيف أيضًا يخبرهما عن تساؤلهما عن كيفية استمرارية الحياة هنا بلا شمس؟ فما ترياه أمامهما في هذه البيئة القاسية أن ليس هناك أدوية أو أي شيء متطور من هذا القبيل يعوضهم عما تفعله أشعة الشمس، كما فعل شعبهم في كونهم في أرض الظلام.

وظل السؤال قائمًا في ذهنهما: "كيف توجد حياة هنا؟!"

ووسط هذه التساؤلات جال في بال سارة شيءٌ مهم جدًا لكي تتيقن مما تظنه، والذي يبدو مستحيلًا لها، فراحت تسألهما في لهفةٍ:

- We are in which year ?

بدا على الغريبيْن أنهما لا يفهما سؤالها، فقال الرجل في استعجاب شديد اللهجة والتساؤل:

- Year ?

We aren't doing such things.

ما هذا أيضًا؟! كيف ذلك؟! كيف لا يفعلون هذه الأشياء؟! هل هذه أشياء ليفعلوها؟!

يتزايد الذهول ويتزايد معه الاندهاش والتساؤلات الكثيرة عن ماهية هذا الشعب الغريب الذي يظن أن الشمس إله، وغائب عنهم بسبب غضبه عليهم فيعاقبهم بغيابه؟ كيف لا يعلمون لفظ "عام"؟ وأن ردهم كان "لا يفعلون مثل هذه الأشياء!!"

حاولت سارة أن تكف عن ظهور شعورها الذي بات ظاهرًا على وجهها، فاختلقت ابتسامةً كاذبةً وهزّت رأسها ثم جال في ذهنها شيءٌ آخر مهمٌ؛ لكي تتيقن مما يدور في رأسها ويتحول ذاك المستحيل إلى حقيقةٍ لا تستطيع أن تصدقها، فسألتهما في لهفةٍ أيضًا عن اسميهما:

أجابت الأنثى:

- I'm Agenus, we are Feoderati people.

اندهشت دينا ناظرةً إلى سارة متعجبةً:

- آجينوس؟

تبادلا النظرات المتسائلة وقالت سارة:

- المشكلة ليست في الاسم فقط، إنها تقول أنهم شعب الفيوديراتي.

ظلت دينا ناظرةً إليها منتظرةً أي إضافةٍ من صديقتها كأنها لم تفهم بعد ما تحاول أن تقوله سارة، ثم نظرتا إلى

تلك الأنثى التي اسمها آجينوس تحملق بهما؛ لأنها لا تفهم ما يتحدثان فيه بلغتهم، وتنتظر أن تجيبها واحدة منهما، فابتسمت لها دينا وقالت مجيبةً باسمها:

- I'm dina.

ثم تبعتها سارة قائلةً بالمثل:

- I'm sarah.

والرجل قال بدوره:

- I'm Albertus. how were your coming here and from where ?

اسمه البيرتوس، لقد توترتا من سؤاله ولم تعرفا بماذا تجيبانه، أو هل من الجيد أن تقولا الحقيقة لشعبٍ غريبٍ مثل هذا أم لا؟ هل من الجيد أن تجيباه على سؤاله كيف أتيتا ومن أين؟ شكوك كثيرة بداخلهما، توتر واضح عليهما، خوف كامن بقلبيهما من الحقيقة، لكن اختارتا في نهاية المطاف أن تبقيا صامتتيْن.

لاحظت آجينوس ذلك فوخزت هذا الرجل الذي يُدعى البيرتوس، وقالت له:

- Let them rest.

لقد أنقدتهما آجينوس حين أخبرت البيرتوس أن يدعهما يرتاحان، ولكن في الحقيقة هما لم تكونا بحاجةٍ إلى الراحة، بل هما بحاجةٍ إلى العودة، هم بحاجةٍ لهؤلاء الناس

لمساعدتهما في إصلاح الضرر بالآلة لتعودا أدراجهما.

بعد ذلك كانت دينا جاحظة العينين، وسألت سارة قبل أن يغادر الشخصان:

- إنكِ سألتِهما عن العام الذي نحن فيه الآن، وأجاب أنهم لا يفعلون مثل هذه الأشياء، فما معنى هذا؟

أحادت سارة بنظرها ووجهته نحو دينا وقالت بعد تفكيرٍ عميقٍ واندهاشٍ عظيم يعتلي وجهها كأنها تيقنت أخيرًا عمَّا كانت تظنه، عمَّا كان مستحيلًا بالنسبة لها، تأكدت مما كان يدور في رأسها ليصبح واقعًا لا يصدقه أحدٌ، فقالت لدينا:

- إننا هنا في زمن قبل الميلاد.

***

كان ينظران إليهما كل من البيرتوس وآجينوس في نظراتٍ متسائلة ولا يفهمان شيئًا مما يسمعانه، فيبدو أن لغة سارة ودينا غريبة عليهما ولا يفهمانها.

كانت دينا في حالةٍ من الصدمة مما سمعته من سارة، إنهما في زمكان قبل الميلاد، فكيف يعقل هذا؟! ثم استنكرت غير مصدقة وقالت:

- ماذا؟

ثم نظرت إلى سارة بنظراتٍ متسائلةٍ مندهشة وأردفت:

- وكيف يتكلمون اللغة الإنجليزية؟! إن لغتهم عصرية لزمننا الأصلي، وعلى حسب علمي لم تكن هذه اللغة موجودة في

زمن قبل الميلاد.

أجابت سارة:

- هذا هو سؤالي الذي سأوجهه لهما.

فوجهت نظرها نحو البيرتوس وآجينوس اللذيْن لا يزالان لا يستوعبان فيما تتكلم كل من سارة ودينا، وسألتهما:

- How are you speaking English ?

أجابها البيرتوس:

- This isn't our language.. our original language is Latin Roman.. and we are speaking English because it's universal language.

جحظت أعينهما حين سمعوا هذا الجنون كيف يعقل هذا؟ كيف يعقل أنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية الحديثة في عصرٍ قديمٍ؟ كيف تكون اللغة الإنجليزية عالمية في زمنٍ ما قبل الميلاد؟ أليس من المفترض أن اللغة العالمية في هذا العصر هي اللغة الرومانية؛ لأنها كانت تفرض سيطرتها على كل العالم حينذاك؟ أم أن هذا ليس زمنًا قديمًا؟

لكنهما يقولان لهما أن لغتهما الأم هي اللغة اللاتينية الرومانية، فهذا دليلٌ على أن هذا الزمن في عصر قبل الميلاد.

لقد شعرت سارة ودينا بالجنون، تساؤلات كثيرة تدور برأسهما لا تعرفان إجابتها، لكنهما كيف سيتناقشان مع شعبٍ يقتنع أن الشمس إلهٌ ويعاقبهم بغيابه عنهم؟

تركاهما البيرتوس وآجينوس في الأخير، ثم دخل كل من سارة ودينا إلى غرفتهما السابقة تحاولان أن تجدا تفسيرًا لما يحدث هنا، تحاولان أن تبحثا في معلوماتهما الثقافية عن أي منطقٍ يجعل ما يحدث هنا حقيقة.

ثم بادرت دينا بالحديث وقالت مستسلمةً لهذا الجنون:

- أتظنين أننا في حُلمٍ؟

أجابتها سارة:

- بلى، إنها حقيقة، وما يجعلني أتقبل الأمر قليلًا هو أننا في كونٍ آخر غير كوننا، وهذا يعني أن ليس من الواجب أن يكون كل شيءٍ يحدث هنا هو نفسه الذي يحدث في كوننا.

بدأتُ أقتنع بفكرة تعدد الأكوان التي قرأتُ عنها الكثير في روايات الخيال العلمي وبعض الأفلام السينمائية القديمة، لم أتخيل أبدًا أن هذا سيكون واقعًا وعلينا أن نخوضه.

في البداية، لم أصدق الأمر ثم لاحظتُ أنه لا يوجد مصابيح أو أي شيءٍ كهربي، إنما مصدر إنارتهم من النار فقط، كما أعتقد أن النار هي السبب في تدفئتهم من الثلج بالخارج؛ فخمنتُ أننا في عصر قبل اختراع الكهرباء، لكن لم أتوقع أن يكون عصرًا قديمًا لهذه الدرجة، فأسماؤهم كما أعلم من قراءتي في كتب خالي في مكتبته من أعوامٍ أنها أسماء قديمة، بل لأكون أكثر دقةً إنها أسماء لاتينية، وحين أخبرانا هذان الشخصان عن أن الشمس إله فزاد يقيني أننا في عصرٍ أقدم مما توقعتُ حتى قالا كلمة (إنفكتوس)، فعلى حسب

علمي أن هذا لفظ روماني قديم كان يطلقونه على الشمس، أو نسبة لعيدٍ يُعرف باسم سول إنفكتوس والذي يعني (الشمس التي لا تقهر) بالضبط مثل المصريين القدماء حين كان يطلقون عليها (رع).

ولكن تأكدتُ من يقيني عند شيءٍ آخر، لقد أخبرانا أنهم شعب الفيوديراتي، وهذا اسمٌ لاتيني قديم كان يطلق على الدول التي منحتها روما القديمة امتيازات خاصة مقابل دعم عسكري للجيش، وهذا اللفظ نسبةً إلى معاهدة (فيودس) التي كانت تتم بين روما وأي قبيلةٍ أخرى.

وكل هذه المعلومات قرأتها في كتابٍ اسمه الدولة الرومانية القديمة،

وما ثبت كل هذا هو إخبارنا في نهاية المطاف أن لغتهم الأم هي اللاتينية الرومانية، فنحن حتمًا في زمنٍ ما قبل الميلاد وبالتحديد قبل الميلاد بأكثر من مائة عام.

كانت تستمع إليها دينا في إنصاتٍ، ثم قالت لها:

- إنني نادمة كل الندم، إنني لم أجرب ولو لمرةٍ واحدةٍ أن أقرأ كتابًا كاملًا، الآن علمتُ مهمة القراءة فكما أن الشمس لا بد منها لاستمرارية حياتك فالقراءة لا بد منها لزيادة ثقافتك.

وهنا وحين سمعت سارة آخِر ما قالته دينا طرقعت بإصبعيها، كأن كلامها جعلتها تنتبه لشيءٍ مهمٍ، فقالت الأولى:

- ويبقى هنا ثلاث أسئلةٍ نحتاج لمعرفة إجابتهم رغم أننا لن نحصل عليها لطالما نتعامل مع شعبٍ من قبل الميلاد: "كيف

تستمر الحياة هنا بلا شمس؟"، "ولِمَ هذا الزمان بالتحديد اخترته آلة السفر لتقذفنا به؟"، "وكيف سنتعامل مع هذا الشعب ويساعدونا في تصليح هذه آلتنا؟"

سألت دينا في توجس والخوف يخرج مخالبه من نظراتها الضالة:

- ما معنى هذا؟

نظرت سارة لها في نفس التوجس والخوف وأجابتها:

- إننا سنُعلق في هذا الزمن.

***

كوكب التنانين

انتفضتا من نومهما المُرهِق مذعورتيْن خائفتيْن من سماعهما صوتًا غير مألوفٍ لديهما، إنه صوتٌ مرعبٌ، إنها المرة الأولى التي تسمعان صوتًا مثل هذا الصوت، وكأن هناك غارة بالخارج تقصد هذا المكان؛ نهضتا في ذات الانتفاضة من فراشهما العجيب وقصدتا باب الغرفة وخرجتا إلى الخارج إلى الغرفة الكبيرة، فوجدتا الشعب الذي كان يحملق فيهما محتشدين عند الباب الكبير الذي أشبه ببوابةٍ ضخمة، ومن خلال نافذتها يحملقون البعض منهم في شيءٍ يحدث بالخارج، ويبدو من نظرات هؤلاء من خلال النافذة أن ما يحدث يحدث بالأعلى في الهواء، ركضت دينا في ذعرٍ قاصدةً آجينوس التي رأتها تمكث في ركنٍ من أركان هذه الغرفة الكبيرة وسألتها:

- What's happening ?

وكانت إجابة آجينوس له التي سمعتها أيضًا أشبه بأكبر صدمةٍ بالنسبة لهما، بل أعظم مستحيل قد يكون ممكنًا، فكل ما تعرضتا لهما في كفٍ وما سمعتاه للتو في كفٍ آخر، لقد سمعتا للتو أسطورة من الأساطير الخيالية التي تعودت أن تقرأها سارة في بعض الروايات.. فكيف يعقل هذا؟

فكانت الصدمة هي أنهما يسمعان الآن صوتًا لتنينٍ كبيرٍ يحلق في الأفق بالخارج، إنهما يسمعان صوت زئيرٍ حاد مرعب لدرجة الموت، فكيف يشاهدان الآن البعض منهم

يهرول نحو النافذة ليروا التنين الذي قد يفتك بهم؟ كيف يظل البعض الآخر في عدم اكتراثٍ لما يحدث بالخارج وكأنهم اعتادوا على سماع هذا الصوت المخيف؟

إنهما في الجنون ذاته، نظرتا لبعضهما البعض في ذعرٍ لم يسبق له مثيل، إنه الشعور الذي يصل لأقصاه من الخوف من الإحساس أنهما في عداد الموتى، فقالت سارة موجهةً كلامها إلى آجينوس في استنكارٍ شديد:

- What ?

Dragons ?

How ?

فأتى إليهم البيرتوس من بعيدٍ وقال:

- It's planet of dragons.

نظرت دينا إلى سارة في ذات الذهول وقالت في سخرية:

- كيف نقول في عالمنا على الجنوب أنها مدينة المجانين؟ وهنا الجنون نفسه.

أجابتها سارة:

- إنه كلامٌ خطير يا دينا، إنهما يخبراننا أنه كوكب التنانين، هذا يعني أنه ليس كوكبهم من الأساس.

جحظت عينا دينا إلى آخرهما حتى يكادا أن يخرجا من مقلتيهما، ثم قالت آجينوس بالصدفة مؤكدةً ذلك:

- We are here.. strangers.

سألت سارة في اندهاشٍ:

- How ?

* * *

نظرت سارة في عيني دينا ثم نظرت أسفلها إلى الأرض كأنها مُقدِمةٌ على فعل شيءٍ جريء، وقالت:

- إنني لا أصدق أي من هذه الثُّرهات.

ردَّت دينا بسؤالها:

- ألا تسمعين هذا الصوت المخيف؟

أجابتها سارة:

- إنني أسمع ذلك حقًا، لكنني أستطيع أن أجزم أن الصوت الذي نسمعه بالخارج ما هو إلا صوتٌ لطائرٍ جارحٍ كبير ويقولون عليه تنينًا.

اندهشت دينا وقالت في تعجب:

- ولكن كيف؟ ألم يعرفوا التمييز بين التنين وأي طائر آخر؟

أجابتها سارة بطريقةٍ مباشرةٍ كأنها تجهز ما ستقوله:

- إنهم يعتبرون الشمس إلهًا، فليس من العجيب أن يعتبروا أي طائرٍ جارحٍ كبيرٍ تنينًا، إنهم من زمنٍ قبل الميلاد فليس من الغريب أن يؤمنوا بأشياءٍ غريبة خيالية أسطورية.

إنني أؤمن أن التنين طائر خيالي ليس له أي صحة من وجوده على أرض الواقع.

قالت دينا في حماسٍ:

- أليس وجودنا في كونٍ آخر أمرًا مستحيلًا؟ لكننا نعيشه واقعيًا الآن.

أليس وجودنا وسط شعبٍ من زمنٍ قبل الميلاد بأكثر من مائة عامٍ أصبح واقعًا نحياه في عصرٍ بعد مائتي عامٍ من الألفية الثانية الميلادية حدثًا عجيبًا؟

أليس من الغريب أن شعبًا لاتينيًا رومانيًا قديمًا من زمنٍ قبل الميلاد يتحدث اللغة الإنجليزية المعاصرة؟ لكننا نراه ونسمعه الآن أمام أعيننا في عصرٍ أصبحت فيه التكنولوجيا وعلم النانو هما السائدان.

صمتت سارة قليلًا كأن بدا لها أن حديث دينا مقنع قليلًا بالنسبة لها، وظلت ساكنةً تفكر بعمقٍ ثم نظرت نحو البوابة الكبيرة وإلى الأعلى إلى مصدر ذلك الصوت، حتى قالت ما هو أجرأ شيءٍ ستفعله بحياتها:

- ليس هناك إلا حل واحد لقطع الشك باليقين.

ثم عادت إلى الصمت لحظات لتقول قرارها الحاسم، وكأنها ستقدم على فعل شيءٍ يبدو أنه أحمق للبعض، أو غبي للبعض الآخر، أو جريء مثالي لها ولكل مَن يجلس بجوار نافذة هذه البوابة ليرى أجنحة ذلك التنين الوهمي.

ثم تقدمت بعض الخطوات إلى الأمام نحو البوابة والجميع ينظر إليها، الجميع يفسح لها المجال ليشاهدوا ما ستفعل من أمرٍ مجهولٍ غريبٍ لهم، البيرتوس يناديها، آجينوس تناديها، دينا تتبعها، تتقدم نحو البوابة، أمسكت بمزلاجه الضخم، زاحته بعد معاناةٍ، أمسكت مقبض الباب، سحبته نحوها بقوةٍ، ثم دلف الظلام السائد بالخارج وتسرب إلى الميدان الواسع المضيء قليلًا بفعل النار، دخل الظلام ومعه البرد القارس، دخلا ومعهما موجات ذلك الصوت المخيف بالخارج ليصبح أكثر وضوحًا ورعبًا إلى آذان الشعب الجاهل.

ولكن كانت المفاجأة.. كانت الصدمة.. كان كل شيءٍ لم تتوقعه رأته.. كان كل علمٍ تتسلح به ملقى أرضًا في هذه اللحظة فما رأته كان مخيفًا ومرعبًا بكل المقاييس.

فما حدث هو وبشكلٍ مباغت أصبح الظلام الحالك بالخارج يتسلله وميضٌ من بعيدٍ من الضوء الحاد، بل توهجٌ ناري أصبح أكثر قربًا مخيفًا يرمي نورًا وسط العتمة.

وبعد لحظاتٍ أخرى، أصبح سيلًا من النيران المخيفة تتراقص بألسنتها في الهواء مع الأصوات المخيفة، إنه بالفعل زئير، إنه بالفعل طائر جارح ضخم يبسط جناحيه ويشق بهما الهواء.

فما رأته سارة وبجوارها دينا من المستحيل حقًا.

إنه بالفعل تنين!!!

تنينٌ ضخمٌ جدًا لم ترَ مثيلًا لحجمه في تلك الأساطير

القديمة التي قرأتها أو شاهدتها، ينفث نيرانه على أولئك البشر المتواجدين بالخارج الذين يحاولون أن يصيبوا التنين ببعض الرماح التي لا تفعل أي شيءٍ على الإطلاق في جلد هذا التنين الصنديد الباطش عليهم، ثم يأكل ويلتهم البعض الآخر كوجبةٍ له إلى حين يعود مرةً أخرى لينفث نيرانه على البقية.

فما رأته سارة ودينا كان مشهدًا من فيلمٍ خيالي قد شاهداه على واحد من شاشاتهم المتطورة الحديثة، لا تزالان تستوعبان أن ما يحدث أمام أعينهما ليس بمشهدٍ في فيلمٍ أسطوري، بل هو أكثر من واقع إنه حقيقةٌ تتجسد أمامهما لا يزال مخيهما يحاول تصديق الأمر.

كانت علامات الذهول وصلت إلى أقصى دراجاتها على وجهيهما، ينظران إلى بعضهما البعض حتى شعرتا بالخوف يدب بقلبيهما، اهتزا بداخلهما، كادتا أن تؤمنا أن العاقل هنا هو غير الطبيعي الغريب في هذا العالم المجنون.

عادتا أدراجهما إلى الداخل في فزعٍ مغلقتيْن البوابة خلفهما، كانتا جاحظتيْن العينين، تتساءلان في دهشةٍ، فقالت دينا:

- ما هذا؟

ثم قالتها بالإنجليزية:

- What's this ?

اقتربت نحوهما آجينوس وقالت:

- We told you , but you didn't believe.

سألت سارة:

- But , how ?.. it's fantasy.

قال البيرتوس:

- On this planet.. it's virtual.

بالطبع كانتا تتساءلان في نفسيهما كيف لشيءٍ خيالي مثلما كانتا تعتقدان أصبح على هذا الكوكب واقعيًا كما يقول كل من البيرتوس وآجينوس.

فقالت آجينوس لهما بلغتها:

- لقد أخبرناكما إننا غرباء في هذا الكوكب وأن الكوكب هو للتنانين، ولكننا نشعر عكس ذلك، بل أكاد أجزم أنه كوكبنا وأن التنانين هي الغرباء، أشعر أننا بتنا فجأة نعلم بالتنانين هنا.

ثم أضافت في يأس:

- ولكن يبقى هذا شعورًا لا أكثر.

أي جنونٍ هذا؟ لقد كادا يعتقدان أنه ليس سواهما المجنونيْن في هذا الكوكب؛ لأن كل شيءٍ يحدث هنا يبدو غريبًا لهما لكنه -كما يريان- شيءٌ عادي جدًا لهذا الشعب.

نظرت دينا إلى سارة في توجس وقلق وقالت:

- وآلة الزمن كيف سنخرج لإصلاحها؟

نظرت سارة لها في ذات التوجس والقلق وأجابتها:

- لقد أخبرتك من قبل إننا علقنا هنا، وإن لم يكن بسبب هذا

التنين فسيكون بسبب الزمان والمكان والشعب.

لا يوجد أي عامل هنا سواء كان من العوامل الطبيعية أو البشرية يساعدنا في ذلك.

قالت دينا وهي ترفض الاستسلام:

- لا أستطيع أن أتقبل هذا.

قالت سارة في استسلامٍ:

- انسي الأمر.

نزلت الدموع من عيني دينا ساندةً ظهرها على تلك البوابة، تنزل رويدًا زاحفة ظهرها بجسم باب البوابة حتى جلست أرضًا وهي ترى في خيالها أن جميع آمالها راحت في مهب الريح بل في نيران التنين، وكأنها نادمة كل الندم أنها فكرت مجرد فكرة أن تذهب مع سارة في رحلةٍ خطيرة مثل هذه.

وجميع شعب الفيوديراتي ينظر إليها.

سارة في ثباتٍ انفعالي لكنها تنظر إلى الأرض في ذات الندم، ترى أمامها كل المسئولية التي يضعها شعبٌ كونها راحت إلى الجحيم، تحطمت في هذه اللحظة كل آمال شعب أرض الظلام.

لقد فكَّرت فيهم.. فكَّرت إذا تمت هزيمتهم وفي انتظار أي شيءٍ يتغير في الزمن؛ لكي تعود آمالهم مرةً أخرى في إحياء جميع الجنس البشري.

ولكن الآن وبعد أن فقدت الأمل في أي وسيلةٍ مساعدة

في هذا الكوكب لتصليح آلة الزمن لن تكون قادرة على إتمام مهمتها، لن يحيا الجنس البشري مرةً أخرى.

وفي الأخير وضعت كل آمالها في آخِر شيءٍ، شيء ليس مستحيلًا لكنه صعب المنال، وهو انتصار آدم وشعبها على العالم العلوي والآليين.

انقضى يومٌ آخر بلا جديد، سارة ودينا في ذات الغرفة برفقة النار التي تشع منه التدفئة التي تحميهم من ذاك البرد القارس الموجود بالخارج، لا زالت دينا تأخذها الصدمة في خيالٍ واسعٍ تخلقه بنفسها وترسخه بقليلٍ من الواقع الذي ترفض أن تصدقه، شاردة في تفكيرٍ بعيدٍ نتج عن أحداثٍ مجنونة بالنسبة لها، وأخذ عقلها يختزل كل ما جرى أمامها من وجودها هنا في هذا الكون الغريب، ثم أخيرًا قررت أن تتحدث إلى سارة الجالسة بجوارها وتقول لها:

- أتظنين أن هذه النهاية؟

لم تجبها سارة بل كانت في ذات الوضعية ناظرةً أسفلها إلى الأرض تحاول أن تسيطر على انفعالها، شاعرةً بالأسف والتمني أن يعود بها الزمن لكي تفعل كل شيءٍ من المفترض أن تفعله بشكلٍ صحيحٍ.

لم تكرر دينا سؤالها فهي الأخرى ليس لديها الطاقة لتتحدث، ولكن بعد لحظاتٍ أخرى أجابتها سارة دون أن تنظر إليها:

- لقد ظن البشر من أكثر من مائة عامٍ أن هذه النهاية، ولكن

بدأ أجدادنا من جديدٍ واختلقوا حياةً لكي يعيشوا فيها.

لقد ظننا نحن أن هذه النهاية حين علم الآليين بوجودنا، لكنها كانت بدايةً لإحياء فكرة العودة من جديد.

لقد ظن خالي أن هذه النهاية حين قتلوا أبي وأمي، لكنه تكفل بأمر آدم ليصبح الصاعد الذي في يديه مستقبل الجنس البشري.

لقد ظن أخي حين قُبِضَ عليه بالعالم العلوي وحُكِمَ عليه بالإعدام في العالم السفلي أن هذه النهاية، لكنها كانت بداية لقيام حربٍ انتحارية تكاد تكون ندًا لقوة الآليين.

ظننتُ أنا أن هذه النهاية حين جرفتني الظروف إلى أقاصي الجنوب، لكنها كانت بدايةً لحياةٍ جديدة حميتُ فيها عائلتي ونفسي من الأشرار.

ثم صمتت للحظاتٍ ونظرت إليها وأردفت:

- ما أريد أن أقوله أن هناك ما يحدث لنا من أشياءٍ مهولة نظن فيها أن هذه النهاية، لكنها لا تكون سوى بداياتٍ لشيءٍ أعظم من كوننا نفكر بهذه الطريقة الساذجة.

قالت دينا:

- هل تحاولين أن تُحيي بداخلي أملًا قد مات؟ لا أعرفك حقًا ألستِ أنتِ مَن أخبرتِني أن أنسى؟

أجابتها سارة:

- بل أحاول أن أُوقظ أملًا قد نام، ثم تقبَّلي بالواقع الذي

أواجهه ليس معناه الاستسلام.

أتقبل فكرة أننا علقنا بهذا الزمان والمكان، لكن ربما يكون هناك شيءٌ عظيمٌ يكمن في هذا.

ربما وجودنا هنا من البداية له هدف آخر قد يُقلب الموازين، هدف أعظم من كوننا نمكث هنا للتحدث في تحديد مصيرنا.

سندت دينا رأسها على الحائط القديم خلفها وتقول ناظرةً لسقف الحجرة:

- لقد اشتقتُ لهم.. اشتقتُ لهم جميعًا، أريد أن أعود إلى ماجد، أريد أن أستأنف كتابة السطور في حكاية حبنا.

ثم سالت منها الدموع، فأسندت سارة هي الأخرى رأسها على الحائط خلفها وقالت:

- لا أستطيع أن أخبرك كيف ومتى ستفعلين ذلك؟! لكنك ستفعلين؛ فحكاية حبكما العظيمة ليست من تلك الحكايات التي تنتهي بهذه طريقة؛ فحكايتكما من تلك الحكايات التي تتمتع بطول النفس.

اعتدلت دينا من وضعيتها ونظرت إلى سارة قائلةً:

- إذن، فلماذا تريدين أن تُقصري من حكايتك مع وحيد؟

اعتدلت سارة متبادلة الأنظار مع دينا وهي تقول:

- بالعكس، لا أريد ذلك إنني أحبه، ولسبب حبي له لا أريد أن أؤذيه في مشاعره، أخاف عليه ألم الفراق.

سألت سارة في توجس:

- أهذا يعني أنني أؤذي ماجد؟!

قالت سارة في نظراتٍ تائهةٍ في عيني دينا وأجابتها:

- ربما وجودي هنا هو الذي له هدف آخر لا نعرفه، ربما وجودي هنا يكون سببًا لإعادتك إلى كتابة سطور حكايتك معه.

دينا في قلقٍ وتوجس أكثر:

- لا تتفوهين بالثُّرهات، أريدك أن تكوني شاهدةً على كتابة هذه السطور، كما أريد أن أشاركك كتابة سطورك الخاصة بكِ.

أحادت سارة بنظرها عن دينا لتعود إلى وضعها السابق الحزين، ناظرةً أسفلها إلى الأرض صامتةً للحظاتٍ حتى قالت بعد حين:

- إنني أحترق شوقًا لهذا، لكنني مقتنعة تمامًا أن أضع أفكاري قبل مشاعري، لا بد وأن يسبق العقل القلب؛ فالواقع الذي نعيشه الآن يريد منا التصرف بعقلٍ صافٍ وأفكارٍ لا تشوبها المشاعر.

ضيّقت دينا عينيها اللامعتيْن وتساءلت:

- كيف تفلعين ذلك؟! كيف تتمتعين بثباتٍ انفعالي؟ كيف تجعلين قلبك يخدمك لا العكس؟

أجابت سارة في عمقٍ:

- لا تظنين إني باردة المشاعر، إن بداخلي بركانًا يحاول أن يحرق كل طاقةٍ كامنة تكون سببًا في دفعي للأمام.

كل ما في الأمر أنني لا أريد أكون الشخص الذي يفكر في تلبية مطالبه دون أن آخذ في الاعتبار النتائج التي قد تتسبب في خلق حاجزٍ كبيرٍ بيني وبين كل مَن أحبهم، ومِن ضمنهم قرة عيني وحيد.

إن وضعك مختلف عني يا دينا، إنني مسئولة، لا عليكِ أن تفعلي شيئًا لستِ مطالبةً به.

قطعت دينا حديثها وتساءلت:

- أليس وضعي معكِ هنا يجعلني مسئولة مثلك؟ أليس وجودي برفقتك يجعلني مطالبةً ببعض الأشياء التي قد تكون سببًا في تحقيق شيءٍ عظيم؟

لقد أخبرتك من قبل لا أريد آخذ دور المتفرج على الأحداث، لا أطيق جلسة الجماهير.

ابتسمت لها سارة ابتسامةً توحي بالامتنان ولم تنبس ببنت شفة فقط مدت يدها نحو صديقتها، فبادلتها دينا ذلك وقالت:

- سنكتب معًا سطور حكايتنا، حتى وإن كانت هذه النهاية سيكون هناك ثغرة نهرب من خلالها بجزءٍ جديدٍ للحكاية لإحيائها مرةً أخرى وكتابة سطورٍ جديدة بها.

وهنا سمعتا أحدًا ما يطرق باب حجرتهما، فسمحتا له بالدخول كانت آجينوس، اندهشتا في البداية من مجيئها، ثم

قالت لهما في ابتسامةٍ مشيرة بكلامها إلى التنين الذي كان يطير بالخارج:

- It's gone.

اعتدلتا من جلستهما في لهفةٍ وفرحٍ بعد أن علمتا أن التنين ذهب بعيدًا، وقالت دينا لها:

- حان وقت الذهاب إلى آلة الزمن.

أجابتها سارة:

- ألم أخبرك أن المشكلة لم تكن في التنين، بل في البيئة نفسها.

أنزلت دينا نظرها إلى الأسفل في استسلامٍ وتهاون، ثم قالت لهما آجينوس دون أن تفهم شيئًا مما دار بينهما للتو:

- Didn't you want going to fix your time machine?

نهضتا بغتةً في فزعٍ ذهولٍ ما الذي يسمعانه الآن منها؟ ما الذي تقوله آجينوس لهما؟ كيف؟ كيف ذلك؟ كيف تقول أنهم يريدون تقديم المساعدة في إصلاح آلة الزمن؟ كيف سيعرفون تصليحها؟

سألتها سارة عن ذلك فأجابتها آجينوس أنهم لديهم التقنيات لفعل ذلك، ويعرفون بأمر السفر عبر الزمن لكنهم غير مؤمنين به.

عادت سارة تتساءل عن كيف لديهم التقنيات وهم في زمنٍ

قبل الميلاد؟ هذا ليس الواقع كما هو مفترض، وكيف يعلمون بهذه الأمور التي تخص التكنولوجيا في حين إنهم لا يزالون يضيئون بالنيران وليس بالكهرباء؟ أليس من المفترض أنهم يعلمون بهذا الأمر أيضًا، الحياة في هذا الكون مختلفة كل الاختلاف عن الحياة في كونهما، وكيف لا يفعلون أشياء مثل حساب الأيام والأعوام وفي نفس الوقت يعلمون بأمر السفر عبر الزمن؛ فالأعوام هي الزمن بعينها. ما هذا التناقض؟

أخبرتها آجينوس إنهم لا يحسبون الأيام؛ فهذا يغضب آلهتهم باعتبار أن هذا يعني أنهم يعجلون من مرور الزمن في حياةٍ أعطتها الآلهة لهم كنعمةٍ من المفترض أن يثابروا فيها ولا يسألون عن كم يومًا انقضى؟ وكم يومًا سيأتي؟ فذلك يعني أنهم يتذمرون ويتساءلون عن مرور الزمن.

أما عن الكهرباء فهذا بسبب اعتقادهم أن الشمس هي إلههم، فإذا فكروا في صنع الكهرباء فهذا يعني للإله أنهم قادرون أن يستغنوا عنه وعن ضوئه المحرومين منه، فلكسب رضا إلههم فيجب أن يفعلوا كل شيءٍ يجعل إلههم يرضى عنهم ويعود لهم، فإنهم في حاجةٍ إليه هو فقط وليس لأي أمرٍ آخر، لقد اختاروا ضوء الإله وليس الضوء المصنوع بأيدي البشر، ولكسب رضا إلههم يجب العمل على ذلك سنوات عديدة.

أشياء أخرى جديدة مجنونة لكل شيءٍ سبب يبدو أنه مقنع لسارة ودينا من وجهة نظرهما التي تقول بأن الحياة هنا من الطبيعي أن تكون مختلفة عن الحياة التي في كونهما، لكنهما لم يكونا يتوقعان أن الاختلاف سيصل إلى هذا الحد من اللا

عقلانية على الأقل بالنسبة لهما؛ لأن هذا أيضًا يعني الواقع المعاش المصدق بالنسبة لشعب الفيوديراتي.

ولكن لم يجعلا التساؤلات تنسيهما فرحتهما أنهم حقًا يعلمون كيف سيصلحون مركبة الزمن.

فهذا شيءٌ آخر لم ولن تتوقعاه، هنا.. آمنتا حقًا أن هناك دومًا أملًا ينبعث من جديدٍ حتى لو مات، في الحقيقة إنه كان آخر شيءٍ يتوقعونه، لقد أصبح ممكنًا بعد أن كان مستحيلًا.

***

ذهبت سارة ودينا إلى الخارج بحذرٍ شديدٍ وبرفقتهما آجينوس، والبيرتوس، وبعض من الأشخاص الأشداء ومعهم ما يحصنهم من أي خطرٍ قد يواجههم بالخارج، كما أخذوا معهم المشاعل المشتعلة بالنيران التي تضيء لهم في طريقهم، كما ارتدى الجميع بعض الملابس الثقيلة من ذاك البرد القارس.

كانت آجينوس تسير برفقة سارة ودينا، فسألت الأخيرة الأولى عن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يحاربون التنين ويحاولون أن يقتلوه.

فأجابتها آجينوس وفسرت لها أن هؤلاء من نفس الشعب شعب الفيوديراتي، وبسبب ضيق القلاع هنا فاتخذت كل مجموعةٍ مكانًا على هذه الأرض وجهزوها لأنفسهم ليعيشوا فيها، القلاع هنا كانت قريبة من بعضها، فأشارت لهما آجينوس بإصبعها عن وجود تلك القلاع، فبالكاد رأوا البعض

منها بالجوار من شدة الظلام الملون بالأبيض من كرات الثلج المتطايرة.

هناك البعض يرفض فكرة أن عليهم أن يتنظروا مغادرة التنين إلى هنا حين يعود بعد كل بضعة أيامٍ، فيشبهون ذلك بالسجن الهيّن، لكنه أبدي فيخرجون ليحاولوا محاولاتٍ فاشلة لقتل التنين.

فسّرت لهم أنهما تستطيعان أن تقولا أن الشعب هنا بمثابة قطاعاتٍ لكنهم ينتمون في النهاية إلى ذات السلالة.

وبعد مرور فترةٍ زمنيةٍ ليست قصيرة سيرًا على الأقدام؛ فيبدو أنهم بعدوا عن قلعتهم بمسافةٍ لا تقل عن نصف كيلو متر، وصل أخيرًا الجميع إلى مكان سقوط الآلة.

وكانت هنا المفاجأة.

الصدمة.

الذهول لم يغادر سارة ودينا منذ وصولهما إلى هنا.

فما رأياه أنهى أي أملٍ كان بداخلهما قد كان يحاول أن يحيي من جديدٍ لينبعث مرةً أخرى ويبث فيهما الروح الحالمة، ولكن ما رأياه قتل تلك الروح قتلًا.

لم يروا مركبة الزمن.

في الحقيقة أنهما لم يروا سوى بقايا منها متفحمة سوداء ينبعث منها الدخان الكريه!!

فآلة الزمن أخذت نصيبًا وافرًا من نيران التنين، لقد أحرقها

ذاك التنين اللعين!

فقالت سارة في أسفٍ:

- هنا، لقد مات الأمل حقًا.

نظرت دينا إليها في حزنٍ قائلةً:

- لا تقولين أننا علقنا في هذا الزمن للأبد.

لم تجبها سارة بل ظلت ناظرةً إليها في يأسٍ وحزنٍ حتى دمعت أخيرًا عيناها، فاغرورقت عينا دينا ثم خرّت باكيةً تقول:

- لا.. هذا مستحيل.. لن نراهم مجددًا.. لن نشعر بالأمان ونحن في وسطهم مرةً أخرى.. لن نحتضنهم بعد الآن.. لن يكون بوسعنا أن نقول لهم كل الكلام الذي نرفض أن نخبرهم به فنؤجله.. لن يكون بوسعنا أن نقول شيئًا لهم إلى الأبد.

أصعب شعورٍ حين تؤمن بأن المستحيل أصبح في وقتٍ ما ممكنًا، ثم يخذلك ليعود مرةً أخرى كونه مستحيلًا وإلى الأبد.

وبعد دقائق أخرى يحاول البيرتوس وبرفقته آجينوس وكل مَن أتى معهم أن يقللوا من روع وحزن الاثنتيْن الحزينتيْن.

ووسط هذه الأجواء، لاحظ الجميع في هذا الظلام الحالك الذي بالكاد تنيره نيران المشاعل، يتسرب في ثناياه المظلمة نورٌ آخر يكسر عتمة هذه الظلمة، لكنه نورٌ مخيفٌ وحشيٌ تصحبه صوتٌ أكثر رعبًا، يدب في قلوبهم الذعر، إنه صوت الزئير أتيًا من بعيدٍ أعلاهم.

نهضت دينا في فزعٍ، ونظرت سارة في توتر، وجّه الجميع أنظاره إلى هذه الأنوار المخيفة وإلى الأصوات الأكثر خوفًا، فيجدوا أكبر الصدمات رعبًا أكثر المشاهد وحشيةً، فما رأوه كان في قمة الرعب.

لقد رأوا العشرات من التنانين تنفث النيران المتوهجة في الجو، تحلق بأجنحتها في الهواء، تطلق عنان غضبها في زئيرها؛ تملكهم الذهول جميعًا، تساءل البيرتوس:

- How ?

يتساءل كيف تعود هذه التنانين بهذه السرعة؛ فالمعتاد أن يأتي تنينٌ أو أثنين وبالأكثر ثلاثة يعودون كل ثلاثة أو أربعة أيام، وإن كانوا غاضبين للدرجة من هؤلاء الحمقى الذين يحاولون قتلهم لكنهم يفشلون فيأتون بعد يومين للانتقام منهم.

لكن.. في هذا الوقت يعودون بعد ساعات؟! وبهذا الكم الهائل؟! أكثر من خمسة عشر تنينًا.

فكيف؟

ولماذا؟

فمال الذي تغيّر؟

أسئلة كثيرة تدور في ذهنهم، كل الشعب الفيوديراتي يتساءل مذهولًا خائفًا.

كما أن قالت دينا لسارة في ذهولٍ وخوفٍ بعد أن مسحت

دموعها:

- لم أكن أتوقع أن يكون مثل هذا العدد من التنانين في هذا الكون!

قالت سارة في عمقٍ:

- إنه كوكب التنانين.

* * *

لعبة الزمن

تقترب التنانين إليهم، تهبط في لهفةٍ لالتهام فرائسهم، يشقون الهواء بأجنحتهم في سرعةٍ، ينفثون النيران من أجوافهم في غضبٍ، وكأن هناك شيئًا ما حدث جعلهم يعودون بعد ساعاتٍ قليلة على غير عادتهم.. يعودون في أعدادٍ كثيرة، يتساءل الجميع ما الذي حدث يجعلهم هكذا؟!

ليس هناك مجال للهروب، ليس هناك مخبأ للحماية، ليس هناك سلاح للدفاع، في الحقيقة ليس هناك أي شيءٍ سوى الفراغ الشاسع بين قلعةٍ وأخرى، والظلام الذي بالكاد تكسره نيران المشاعل.. والزمهرير.. وأصوات الزئير المرعب.

فالساحة أمامهم مكشوفة مهما حاولوا أن يفعلوا للهروب فليس هناك مفر بتاتًا، ظل الجميع واقفين، التنانين تهبط في عنفٍ تدنو منهم.

أغلقوا أعينهم مستسلمين، علموا بداخلهم أن هذه هي النهاية، لقد كُتِبَت الآن وستكون نيران التنانين آخِر من يكتب آخِر سطرٍ في حكاياتهم، سيختمونها بنهايةٍ حارقة.

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، ما لم يتوقعوه حتى شعب الفيوديراتي، لقد سمع الجميع صوتًا آخر أحدث ضجةً كبيرةً بين القلاع، وكأن هناك شيئًا ضخمًا انفجر بغتةً.

كان صوتًا عاليًا جدًا، حتى جذب انتباه التنانين.

وهناك نظرت كل التنانين إلى مصدر ذلك الصوت؛ فكان ذلك

الصوت هو المنقذ الوحيد الذي خلّص هؤلاء البشر من هذه التنانين المفترسة.

غيّرت التنانين اتجاهها والتفوا بأجنحتهم في الهواء لتغيير مسارهم ليعودوا أدراجهم نحو ذلك الصوت.

كما أن الجميع أيضًا نظر إلى مصدر ذلك الصوت الذي يبدو كالانفجار؛ فوجدوا هناك على بعد مسافةٍ لا تقل عن مائتي مترٍ ضوءًا أزرق شديد الحِدة يتركز في شكلٍ دائري كالأسطوانة التي تصل حتى السماء.

فَذُهِلَ الجميع حين رأوا ذاك الضوء الذي ينبعث من الأرض حتى السماء عاليًا، وكأن هناك شيئًا عجيبًا حدث.

ينظرون نحو هذه الحزمة من الضوء الأزرق المرتفعة عاليًا بذهولٍ، ويتساءلون ماهية هذا الشيء العجيب؟

ولكن ليس هذا مهمًا الآن، فالأهم أنهم لم يتم أكلهم أو حرقهم بواسطة هذه التنانين الملعونة، وهنا قالت سارة لدينا:

- حين تقتنع بداخلك أن الذي تتمناه أصبح مستحيلًا وإلى الأبد، فيحدث ما يجعله ممكنًا ولو بشكلٍ مؤقتٍ ليبث لك الأمل من جديد.

قالت دينا غير راضيةٍ نافرة:

- ولو بشكلٍ مؤقتٍ...

قطع سؤال البيرتوس حديثهما قائلًا:

- What's this ?

من الواضح من ذهول شعب الفيوديراتي أن ما يرونه أمامهم الآن ظاهرة لم تحدث من قبل.

هنا قالت سارة لدينا تجيب على جملتها السابقة:

- ولِمَ لا تقولي أن هذه الظاهرة ليست إلا مجرد بداية لشيءٍ أعظم من أن نعرف ماهيته باكرًا.

قالت دينا في استسلامٍ من مجاراة سارة في المناورة في الحديث:

- حسنًا، من كلامك هل هذا يعني أن هذا الدائرة التي تشع ضوءًا أزرق له علاقة بوجودنا هنا؟

أجابت سارة:

- لا أستطيع أن أجزم ذلك، ولكن بما أن ليس هناك طريقة أخرى بعد حرق آلة السفر عبر الزمن خاصتنا، فما علينا سوى المبدأ الذي يؤمن به أخي آدم، وهو الفضول الذي يقتل الخوف بداخلنا.

قالت آجينوس بصوتٍ عالٍ تحثهم على العودة:

- Go to home !

* * *

عاد الجميع إلى قلعتهم التي تبدو محصنةً ضد هجوم التنانين كما يعتقدون هم، وظلت التساؤلات عند وصولهم

بالداخل عن ماهية ذلك اللون الأزرق؟ وما قد حدث نتج عنه ذلك؟ وهل هذا له علاقة بغضب التنانين وعودتهم في غير معادهم؟

أخذت المناقشات والمحاورات قرابة الساعة حتى انتهت على ألا يتدخل شعب الفيوديراتي في هذا الحدث، أو على الأقل جماعة الفيوديراتي الموجودة في هذه القلعة؛ فلا يعلم أحدٌ ما قد يكون هذا الحدث العجيب؟ ولا يقطعون الظن أن هذا الضوء لا يؤذي مَن يقترب نحوه.

ففكر البعض أن هذا الضوء قد يكون سلاحًا جديًا فتّاكًا قد يؤدي إلى هلاكهم إذا عبثوا به بالخطأ.

لا تُعجب هذا المناقشات كل من سارة ودينا؛ فيحاولان أن يخبراهم كيف يتركون أمرًا كهذا إذا كان حقًا سلاح فتّاكًا، فقد يؤدي إلى هلاك هذه الأرض، وإن كان الأمر كذلك فلا بد عليهم أن يتحركوا لا يختبئون هنا خلف الجدران دون محاولة فهم ما يحدث في أرضهم، ففسرا لهم أن هذا أشبه باللا مبالاة في كونهم والهروب من المسئولية.

كما أخبراهم أنهما لن يمكثا هنا مكتوفي الأيدي دون أي شيءٍ يفعلوه؛ فعليهما أن يبحثا عن أي طريقةٍ أخرى ويجدا أي وسيلةٍ قد تنقلهم من هذا المكان، ولا يجدا سوى هذا الضوء الأزرق آملتيْن أن قد يكون هذا الحدث سبيلًا لرغبتهم في العودة؛ فالحدث أشبه بمعجزةٍ خيالية تحدث أمامهما على أرض الواقع.

ولكن دون جدوى، فلم يتأثروا أبدًا بمحاولة سارة ودينا لهم في النهوض وفعل أي شيءٍ.

فقالت هنا دينا لسارة:

- لو كان آدم موجودًا هنا لكان وحَّد كل هذه القلاع وجعلهم شعبًا واحدًا يجاهد في سبيل البقاء، كما فعل مع الشماليين والجنوبيين في عالمنا.

ردَّت سارة:

- هذا شعبٌ غريبٌ، لديه كل ما هو قديمٌ منذ آلاف السنين وكل ما هو متطور من مستقبل مجهول، حقًا نحن هنا نعيش الجنون.

ثم تابعت:

- كما أنني أتساءل عن شعورهم أن هذا الكوكب كوكبهم وأن التنانين دخلاء عليهم، هذا عكس واقعهم الذي يعيشونه، لما يشعرون بذلك؟

دخلتا غرفتهما، وحزمتا أمتعتهما، وأخذتا معهما كل ما قد يحتجانه من مشاعل تضيء لهما الطريق أو ملابس ثقيلة يرتدونها من ذلك البرد الذي بانتظارهما بالخارج؛ فهما على اختلافٍ مع شعب الفيوديراتي، إنهما ليستا معتادتيْن على هذا الصقيع.

خرجتا من غرفتهما واتجهتا نحو البوابة؛ فلاحظ كل مَن كان حاضرًا ثم دنا منهما البيرتوس وسألاهما عن وجهتهما،

فأجابته سارة أنهما ليستا معتادتيْن على الهروب وانتظار البلاء إن كان هذا سلاحًا فتّاكًا، أو إضاعة فرصة قد تُحيي لهما أملًا قد مات.

وبعد مناقشاتٍ أخرى لم يستطع البيرتوس ومعه آجينوس وكل الشعب الفيوديراتي أن يوقفهما؛ ففتحتا البوابة وقصدتا وجهتهما، وهي الضوء الأزرق الذي يبعد عنهم أكثر من مائتي متر، هذا الضوء الذي تجهلان ماهيته وغير متيقنتيْن من أنه شيءٌ خطيرٌ قد يودي بحياتهما أم لا!

كان البرد والظلام في انتظارهما، تنير بالكاد نيران مشاعلهما الطريق أمامهما فقط، لكنهما لا يزالان لا يران أي شيءٍ يكون على بعد مسافة عشرة أمتارٍ منهما، فمدى الرؤية لديهما ضعيف.

كما أنها لا تزالان تشعران بالبرد؛ فتلك الملابس الثقيلة التي أحضرتها لهما آجينوس في بداية وصولهما لهذا المكان لحمايتهما من ذلك الصقيع لم تكن كافية بالشكل المطلوب لتدفئتهما، فلم يجدا سوى نيران المشاعل الضعيفة يقربانها نحو جسديهما أو وجهيهما لتشعرا بقليلٍ من الدفء.

ظلتا مستمرتيْن إلى وجهتهما حذرتيْن للغاية من أن يهجم بغتةً عليهما تنينٌ فيحرقهما أو يلتهمهما، فلم تغفلا عن أي شيءٍ قد تتعرضان له.

يسيران تارةً ويقفان تارةً يتأملان هذه الحزمة الدائرية التصاعدية إلى الأعلى من الضوء الأزرق الجديد، ثم لاحظت

سارة أثناء تأملهما في مرةٍ من المرات في هذا الضوء شيئًا عجيبًا.

لقد لاحظت أن التنانين يلتفون حول هذه الحِزمة الضوئية الزرقاء ويصرخون بزئيرهم، يقتربون تارةً نحو الضوء ويبعدون بغتةً كأنهم يشعرون بالخوف من هذا الضوء ويخشون الاقتراب نحوه.

فتحدثت دينا عمَّا لاحظته، فأكدت هي أيضًا على ذلك، ثم سألت في شكٍ:

- هل تؤمنين بما نفعله؟

نظرت لها سارة مجيبةً:

- ما نفعله الآن أشبه بإمساكنا بطرف حبلٍ ضعيفٍ، لكنه بمثابة الأمل الوحيد الذي قد ينقذنا، فعلينا الإمساك بالحبل لعلنا نصل إلى النهاية قبل أن يُقطع.

دينا:

- ألا تظنين أن هذه التنانين القوية قادرة على قطع حبلٍ ضعيفٍ قبل أن نصل إلى النهاية؟

أجابت سارة:

- لذلك علينا العمل في الخفاء وبحرصٍ شديدٍ.

دينا:

- ماذا لو إمساكنا بالحبل الضعيف أوصلنا قبل أن تقطعه تلك

التنانين القوية إلى نهايةٍ سوداء؟

أجابت سارة متحايلةً:

- لا أستطيع أن أضمن لكِ عكس ذلك، لكن أخبريني أنتِ.. ماذا لو كانت نهاية متمناة لكننا فضَّلنا البقاء دون فعل الشيء؟

أجابت دينا بذكاءٍ:

- حينها سيكون الندم.

قالت سارة مراوغةً بالحديث:

- حينها سأفضل الموت عن الندم، لن أقبل وجودي هنا وأتحمل على أكتافي مستقبل عالم بحاله، إنني أتحمل مسئولية كل البشر المتبقين في كوننا.

استأنفتا مسيرهما وتقدمتا بذلك الاتجاه الذي يؤدي إلى ذلك الضوء، تنتقلان من القلاع، تبصران أحيانًا أناسًا قليلة من قلاعٍ مختلفة يخرجون من مخبأهم حيث أن التنانين بعيدة عنهم، كما أن هناك شيئًا يلهيها عن هذه المنطقة.

وبعد أن بلغتا أكثر من ثلاثة أرباع الطريق وجدتا أن التنانين لا تزال منشغلةً فيما تحاول أن تفعله؛ وهو اختراق ذلك الضوء الذي يبدو مرعبًا لهم، فلم تثيرا غضبهم أو حتى لم تلفتا انتباههم.

كان هذا من حسن حظهم، استكملتا مسيرتهما حتى شارفتا على الوصول، أصبح الضوء الأزرق لا يبعد عنهما سوى

عشرات الأمتار.

الغريب أن الضوء لا يؤثر في رؤيتهم؛ فرغم الحِدة الصادرة منه إلا أنهما لم يضيقا جفونهما، ينظران إلى الضوء كأنهما لا يوجد شيء يضوي بشدة أمامهما، اندهشتا من ذلك، ولكن الدهشة الحقيقة لم تكن تكمن هنا.

فما شاهدتاه كان أكبر حدثٍ يجعلهما في قمة الذهول، الذهول الذي يستمر في الزيادة لطالما لا تزالان موجودتيْن في هذا الكون المجنون.

لكن سرعان ما تحول الذهول إلى سعادةٍ غريبة، فأصبحتا لا تفهمان شعورهما هل هما سعيدتان؟ أم مذهولتان؟ ما الذي يحدث بالضبط؟ وكيف ذلك؟ كيف يصدقان ما يرانه أمامها، بل مَن يقف أمام بصرهما الآن؟

كيف أتيتا إلى هنا؟

كانت السعادة لدى دينا أكبر بكثيرٍ من سارة، فهما تريان شخصين من المستحيل تواجدهما هنا.. إنهما طلعت وناهد.. والديّ دينا!!

غمرت السعادة الوالدين، ركضا نحو ابنتهما، ركضت هي نحوهما، تقابلت الأحضان، التحموا ببعضهم، لا يصدق أحد منهم، تشاهد سارة المشهد عن قربٍ.

وبعد وقتٍ من الأحضان والشوْق أخذ وابلٌ من التساؤلات يدور في رأس الجميع، فسأل طلعت:

- ما هذا المكان؟

سألت ناهد:

- ماذا حدث؟

سألت دينا:

- كيف أتيتما إلى هنا؟

وبعد وقتٍ كافٍ من الحديث عرفت سارة ودينا أن الوالدين في كونهما لم يطيقا الحياة دون ابنتهما التي لم تعد بعد، رفضا العيشة تحت الأرض دون فعل شيءٍ فصعدا إلى العالم العلوي الذي أصبح مكانًا للتنانين.

وهنا جحظت عينا كل من سارة ودينا حين علمتا أن التنانين أصبحت في عالمهما، كما فعل ذلك أيضا الوالدان حين علما أن التنانين مصدرها هو ذلك المكان الذي وصلا إليه منذ قليل.

وتباعًا لحديث طلعت وناهد فبعد أن صعدا إلى عالمٍ أصبح خرابًا لم يجدا أمامهما سوى أن يأخذا سفينةً من سفن جماعة القراصنة الأغراب، وهنا علمت سارة ودينا أمر القراصنة الذين أتوا بالمساعدة في الحرب.

فرحت الصديقتان حين علمتا أن عالمها البشري انتصر على العالم الآلي، ولكن لم تلحقا أن تأخذا كفايتهما من السعادة حين علمتا ما حدث بعد ذلك من وجود التنانين في كونهم كان قد خرج أولها من البحر.

فأكمل الوالدان سردهما لما حدث لهما بعد أن أخذا السفينة برفقة بعض الأفراد من سكان مدينة المحافظين، هؤلاء الذين لم يعودوا يطيقون حياة العالم السفلي، كما أن العالم العلوى بالنسبة لهم أصبح خرابًا محروقًا، فأحبوا أن يجربوا شيئًا جديدًا في حياةٍ جديدةٍ بعيدةٍ عن أي شيءٍ يحدث هناك في ذلك الوقت. أبحروا بالسفينة على سطح البحر حتى وصلوا إلى مكانٍ أشبه بجزيرةٍ، فترجلوا وتوغلوا داخل هذه الجزيرة، كان الأبوان يبحثان عن ابنتهما المفقودة.

وهناك وجدوا الكهف الكبير المظلم حيث تتواجد فيه التنانين، فدخلا للبحث آملين أن يجدا ابنتها وبرفقتهما هؤلاء الأفراد، فلم يستطيعا أن يصدقا أمر السفر عبر الزمن أو بُعدها عن هذا العالم من الأساس، لا بد وأنها في مكانٍ ما قريب ويعجز عليها الوصول إلى أبويها.

ولكن كان في وسط ذلك الكهف يوجد ضوء أزرق دائري يصل من الأرض حتى سقف الكهف المغلق.

ثم قالت ناهد آخر ما حدث واختتمت به الحديث:

- لم نكن نعرف حينها ماذا نفعل؟ كل ما كان نفكر فيه هو أنتِ يا ابنتي، تساؤلات كثيرة كانت بداخلنا ولا بد أن نعرف إجاباتها فدخلنا هذه الدائرة الزرقاء، وبعد تخبطاتٍ كثيرة بداخل حزمة الضوء هذه تم قذفنا إلى هنا؛ حيث وجدنا التنانين آتية من بعيدٍ نحو مكاننا، وكأن ذلك الضوء قد أغضبها ولفت انتباهها وناداها إلى المجيء، وقبل أن يأتوا إلينا فيحرقونا أو يلتهمونا خرجنا بالكاد من ذلك المكان حتى

رأيناكِ واقفةً أمامنا وبرفقتك سارة.

ولحسن الحظ أننا لم نلفت انتباه التنانين، وكأنها عالمة وجهتها نحو الضوء فقط.

أما عن الأفراد الذين كانوا برفقتنا فلا نعلم عنهم شيئًا؛ لقد كانوا خائفين أن يدخلوا إلى ذلك الضوء، كانوا يخشون أن يكون هذا الضوء شيئًا يقتلهم، فتركناهم وعبرنا نحن وجئنا إلى هنا.

وبدور دينا حكت لأبويها كل ما حدث لها منذ أن قذفتهما آلة الزمن إلى هذا الوقت الحاضر، كما أنها غمرتها السعادة حين أصبح الجميع على يقينٍ بأن وُجِدَت طريقة أخرى للسفر عبر الزمن غير تلك الآلة المتفحمة من نيران التنين.

وهنا قالت دينا إلى صديقتها ويغمر وجهها السعادة:

- انظري.. كان معكِ حق حين أخبرتِني بأن في كل نهايةٍ بداية لشيءٍ أعظم من أننا نعلم به.

وها هو الآن فُتِح لنا طريقٌ آخر لنعود من خلاله، ولم يعد هناك مهمة لتنفيذها؛ لقد انتصروا بالفعل.

وأخيرًا تحدثت سارة بعد صمتٍ ومراقبةٍ للمشهد قائلةً:

- لكن حدث ما هو أسوأ؛ انتصرنا ولم نظفر بالغنيمة، ثم إننا لا نعلم كيف تم الأمر مع والديكِ، والمحاولة هنا محفوفة بالمخاطر؛ فهناك خمسة عشر تنينًا يحاصرون ذلك الضوء الأزرق، ويعيقون طريقنا للعودة، سيلتهموننا قبل أن نصل إلى

قلب الضوء.

اقترح طلعت:

- سننتظر حتى يبتعدوا، فلن يظلوا في فِعل هذا طوال الوقت.

أجابت سارة:

- وما الضمان أن هذا الضوء الأزرق هو عبارة عن بوابة زمنٍ تنقلنا من مكانٍ إلى مكانٍ نريده؟

قالت ناهد:

- وجودنا هنا من خلال ذات الطريقة هو ضمانٌ قوي.

سارة:

- ماذا لو كان كل ذلك محض صدفة؟ يجب ألا نغفل أنكما لم تكونا تعلمان حينها أن دينا ستكون في هذا المكان والزمان تحديدًا. أما الآن فالوضع مختلف؛ نحن نريد زمانًا ومكانًا معينًا نذهب إليه، فما الضمان إن تلك البوابة ستنفذ ذلك بنفس تلك الطريقة؟

صمت الجميع وكأنه تراءى لهم أن ما تقوله سارة منطقي إلى حدٍ ما، ولا يجب أن يتسرعوا، فتساءلت دينا في غضبٍ:

- في الحقيقة لم أعد أعرف إذا كنتِ تخلقين أملًا من العدم؟ أم تقتلين تفاؤلًا خارجًا من حبة خردل؟ ألم نكن ذاهبين على هناك من البداية؟

أجابت سارة مغرورقة العينين وكأن ما قالته دينا للتو جرح مشاعرها:

- لقد أخبرتك سابقًا أنني أفكر بعقلي قبل عاطفتي، ولن أجعل شعوري الشامخ نحو العودة يعميني عن نتائج أي فعلٍ سنقدم عليه قد يكون فيه خطر ولو بنسبةٍ ضئيلة.

أما عن ذهابنا في البداية، فأصبح الآن الأمر مختلفًا تمامًا بعد وجود أبويكِ هنا من خلال ذات الضوء الذي كُنا نقصده.

دنت منها دينا وربَّتت على كتفها واعتذرت على ما تفوهت به للتو، ثم تساءلت مُسلِّمة الدفة لسارة لطالما رأتها هنا العقل المدبر الراجح قائلةً:

- ومال العمل إذن؟

قالت سارة مجيبةً بعد تفكيرٍ:

- سنعود أدراجنا، وهناك سنفكر في طريقةٍ لفك هذه الشيفرات.

ونظرت نحو بوابة الزمن تلك التي تشع الضوء الأزرق وقالت في نظرةٍ ثاقبةٍ بعيدة المدى:

- يبدو أننا بيادق في لعبة الزمن.

* * *

بعد أن تفاجأ شعب الفيوديراتي من وجود شخصين آخرين غريبين ليسا من عالمهم علموا بعد ذلك أنهما أبويّ دينا.

دخل الأربعة الغرفة، وتساءل الوالدان عمَّا يرونه أمامهم من عدم وجود كهرباء، وجن جنونهم أكثر حين علما أنهما في زمنٍ قبل الميلاد، وأن لا وجود للشمس هنا، والشمس إله في هذا الكون وما إلى ذلك من جنونٍ عاشتاه سارة ودينا سابقًا، ولكن تبقى سؤالان هنا لا يعرف أحدٌ إجابته، وهما:

- ما الذي كان سببًا في غضب التنانين ليفعلوا ما فعلوه؟

- وهل ستنقلهم بوابة الزمن ذات الضوء الأزرق إلى حيث يريدون؟

ظل الأربعة حائرين يتساءلون: هل من المفترض أن يعودوا إلى بوابة الزمن؟ وإن حدث ذلك فهل يتفادون وجود التنانين المفترسة هناك؟ لا يعرفون ماذا يفعلون؟! وبعد وقتٍ كبيرٍ من الصمت أخذ الأربعة يفكرون، قالت سارة -ما كان أشبه بصعقةٍ للجميع- بعد تفكيرٍ عميقٍ:

- إنني أتساءل ما الذي فتح بوابتي الزمن: واحدة هنا وأخرى في عالمنا في خلال تواجدنا في هذا العالم؟

أيعني هذا إن سفرنا عبر الزمن هو المسئول عن كل اللا منطقية التي نعيشها هنا؟

هل تسببنا في خطأ جعل شعبًا من زمنٍ قبل الميلاد يعلم بالتكنولوجيا؟

ظل الجميع يستمعون في قلقٍ وخوفٍ مما يسمعونه، حتى قالت سارة الأخطر على الإطلاق:

- صار أكبر مخاوفي الآن هو ما كنت أخشاه منذ البداية، وهو أن قد يكون تسببنا في إحداث خللٍ في الخط الزمني جعل التاريخ يتغير وتتغير ملامحه؛ ولهذا وجِدَت التنانين في عالمنا، ذلك العالم الذي ليس من المفترض أن تتواجد فيه تنانين من الأساس.

كما أن بناءً على كلام آجينوس أنهم يشعرون بأن هذا كوكبهم وأن التنانين هم الغرباء، وقد يكون هذا حقيقيًا إذا افترضنا أن هذه التنانين من عالم ثالث، وجاءت إلى هنا بسبب تخبط في الخط الزمني وتغيير في مجرى الأحداث قديمًا كانت من المفترض أن تبقى كما هي، وبسفرنا غيرنا كل شيء.

ثم أضافت في تنهدٍ:

- حقًا لعبة الزمن هي أشرس وأسخف لعبة على الإطلاق.

وظلت تساؤلات كثيرة تدور في رؤوسهم، فلا يعرفون من أي نقطة يبدأون؟ حتى قالت دينا في آخِر المطاف:

- إذن، ليس أمامنا سوى أن نذهب إلى تلك البوابة لعلنا نجد أجوبةً لتساؤلاتنا هناك.

بدا على سارة أنها وافقت دينا أخيرًا على شيءٍ، فأجابت في ثباتٍ:

- وفي هذه الحالة تظل التنانين هي عقبتنا الوحيدة.

* * *

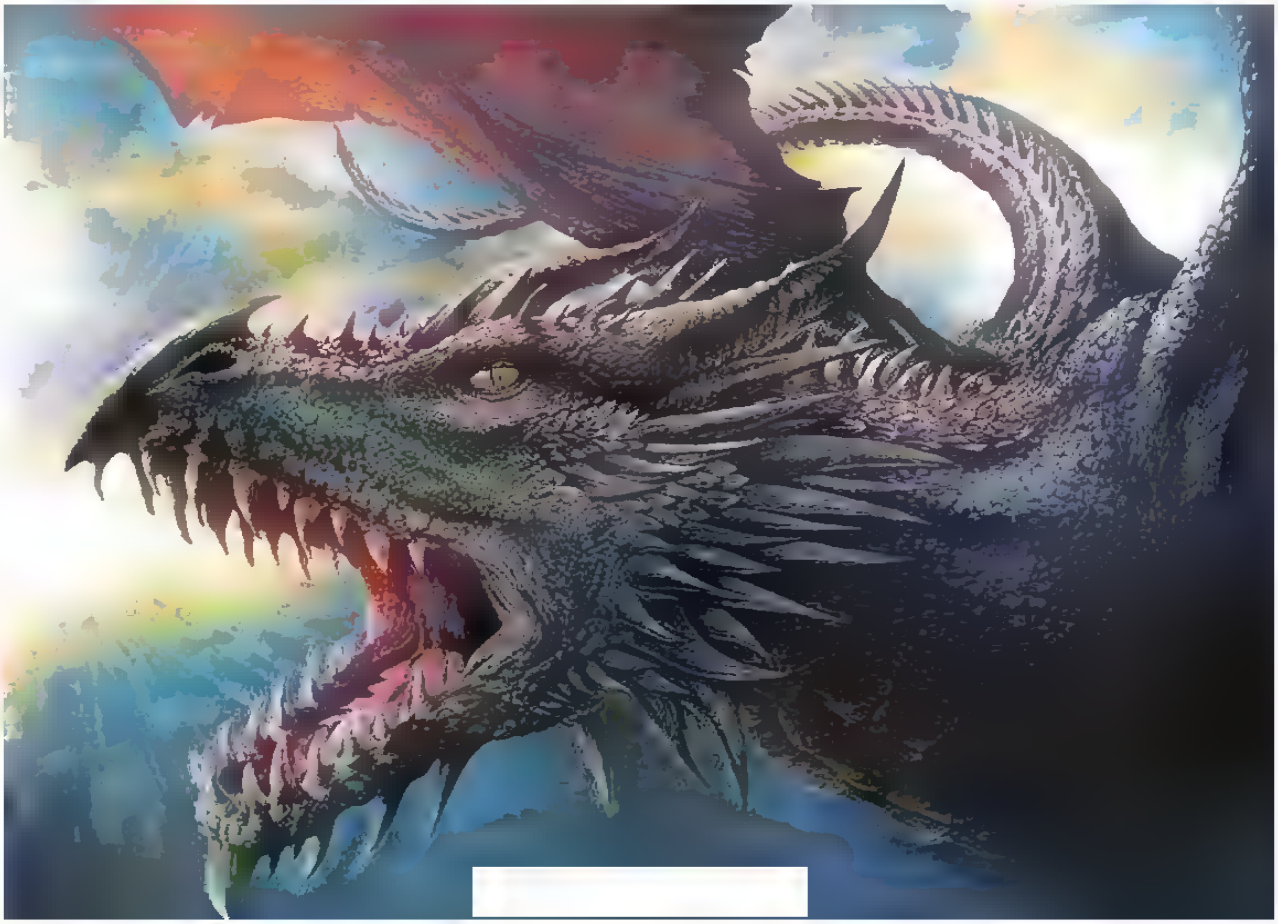

على حافة الموت

كان عليهم الانتظار حتى تعود التنانين إلى حيث تكون، فمن المفترض أن تفعل هذا كما تفعل دومًا وتعود مرةً أخرى بعد بضعة أيامٍ.

طال الانتظار، ومرت أيامٌ أخرى ولن تفعل التنانين أي شيءٍ سوى أنها تحاول أن تهاجم هذا الضوء، أو تكون حارسةً له حين تنزعج من عدم قدرتها على اختراقه بسبب خوفهم منه.

لقد ضاق بسارة ورفاقها الحال، لا يفعلون شيئًا سوى الانتظار.. انتظار المجهول فقط.

حتى جاء اليوم الذي قررت فيه سارة أن تفعل شيئًا؛ إنها رفضت قبول الواقع المفروض عليها، لن تستطيع أن تنتظر أكثر من ذلك، قررت أن تفعل هذا الشيء بمفردها بل أرادت ألا تخبر ذلك، وبالفعل فعلت ذلك.. فلو كانت أخبرتهم ما كان ليتركونها تفعل ما ستقدم على فعله؛ لأنه الجنون نفسه، سوف تفعل ما هو أكثر رعبًا حدث لها.

إنها ستذهب إلى بوابة الزمن بمفردها، وستخترق التنانين وحدها، وستعبر إلى ذلك الضوء كي تجد أجوبة على تساؤلات الجميع.

لقد حسبتها جيدًا، وكان لها مبرر قوي؛ إنها في أمس الحاجة إلى تصحيح كل ما هو خطأ حدث للخط الزمني، ولا تعرف كيف يتم ذلك؟ وليس أمامها سوى هذه البوابة التي قد تصل

من خلالها إلى البوابة الأخرى المفتوحة في كونها الأصلي. فليس عليها سوى الذهاب إلى هناك؛ لتضع حدًا وتعرف كيف ستبدأ في تنفيذ مهمة جديدة لها، وهي تصحيح المسار الزمني وكتابة التاريخ المفترض حدوثه دون أي تدخل بشري، وهذا هو الخطأ بعينه الذي فعلته بالضبط حين سافرت عبر الزمن من خلال آلتها، وإن لم تفعل هذا فليس عليها سوى الانتظار فقط، الانتظار الذي يعني لها مرور الكثير من الوقت، الوقت الذي ليس في صالح آدم أخيها أو كل البشر في كونها، إنهم يواجهون خطرًا أقوى وأشرس من السابق؛ إنه عدوٌ لا يعرف سوى الحرق والدمار، كان عليها أن تتحرك حقًا.

لقد انتهزت الفرصة، واستغلت الوقت الذي كان الجميع في غفلةٍ عنها وتسربت حتى وصلت إلى البوابة، وفتحتها وخرجت إلى الخارج وقصدت وجهتها.. وهي تلك البوابة الزرقاء.

تسير في الظلام والبرد، تحمل على ظهرها حقيبتها، ترتدي اللباس الثقيل.. خائفة.. مرتعبة.. بمفردها.. ينتظرها مصير مجهول.. ينتظرها الموت أو النجاح.

وبعد ساعتين من السير تارةً والراحة تارةً أخرى لم يتبقَ أمامها سوى القليل من الأمتار، تنظر أمامها إلى التنانين ستة منهم يهاجمون على الضوء الأزرق في خوفٍ ينفثون النيران من أفواههم على الضوء لكن دون جدوى، والبقية يحرسون سواء في الجو يطيرون بأجنحتهم، أو على الأرض يرتاحون.

ليس هناك طريق لتعبر منه دون أن تلفت انتباههم، التنانين

موجودة في كل مكان، عليها أن تبتكر طريقةً ما تحاول اختراقهم حتى تصل إلى مبتغاها.

توقفت تفكر؛ جلست على صخرةٍ والبرد ينهش في جسمها، والظلام يُرعِب قلبها، والمهمة تُصحّي كيانها؛ إنها في شعورٍ لا تُحسَد عليه ولا يتمنى أحدٌ أن يكون في مكانها، هكذا قالت في نفسها لنفسها.

استأنفت مسيرها وكأنها ذاهبة إلى هلاكها، ليس لها وسيلة ولم ترد أي مساعدة لكي تتحمل أي نتائج خطيرة قد تؤدي إلى هلاك الجميع على عاتقها وحدها، لم ترد أن تؤذي أحدًا، كان كل ما تفكر فيه هو إنقاذ عالمها وأخيها، تريد أن تتأكد من سلامة هذه البوابة الزمنية على البشر في استخدامها، وإن نجح الأمر معها تعود مرةً أخرى لتقل صديقتها وأبويها إلى عالمهم.

أي شجاعةٍ تكمن بداخلها؟ لقد أرادت أن تتحمل النتائج وحدها، إنها على وشك مواجهة شيءٍ قد يكون خطيرًا ويؤدي إلى هلاكها، ولكنها أرادت إنقاذ البشرية من العدو الأخطر على الإطلاق، وليس أمامها طريقة سوى مواجهة هذا العدو، إنها على بعد أمتارٍ قليلة منه عليها أن تجتاز هذه التنانين، كان موقفها أشبه بجملٍ يعدو من ثُقب إبرة.

وصلت وجهتها تشق التنانين الهواء أعلاها بأجنحتها، تتنفس أخرى بشكلٍ مرعبٍ كأنها لا تريد أن يزعجها أحد، وتهاجم مجموعة ثالثة ذلك الضوء الأزرق في خوفٍ وغضبٍ كأن هناك ما حدث جعلها غاضبةً بهذا الشكل.

كان خوفها من تلك المجموعة التي تراقب الأجواء في الجو بالأعلى أكثر من خوفها من تلك المجموعة التي تهاجم، فلم يروها بسبب انشغالهم، كما الحال مع المجموعة النائمة التي إذا نجحت في عبورها دون أن تفعل شيئًا يوقظ منامهم.

على أطراف أصابعها تسير في تؤدة؛ لكي تعبر بين التنانين النائمة، ثم تعود تنظر إلى الأعلى داعيةً ربها ألا يراها تنينٌ من تلك المجموعة الطائرة، ثم تعود تنظر أمامها حذرةً كل الحذر أن يصدر منها أي شيءٍ أحمق يقلق منام تنينٍ آخر نائم. لقد اختارت أوسع ممرٍ تعبر من خلاله بين تلك التنانين، ولكن لسوء حظها كان هذا الممر بجانب أكبر تنينٍ حجمًا من بين كل هذه التنانين، فعليها أن تكون حذرةً على قدر ما تستطيع بل وأكثر من ذلك.

لا زالت تعبر في تؤدةٍ لا تُخرج أنفاسها، تكتم بداخلها كل ما تشعر به حتى أنها لا تشعر بالبرد رغم وجودها وسط هذا الصقيع، مستوى الأدرينالين لديها في أقصى درجاته.

ثم حدث ما لم ترده أن يحدث، حدث ما كانت تخشاه من البداية، ما كانت تتجنبه لتنفذ مهمتها حتى هذه اللحظة، ما جعل عينيها تجحظ لآخرهما حتى كادتا أن يخرجا من مقلتيهما؛ ففي هذه اللحظة أطلقت أنفاسها، أخرجت كل ما كانت تكتمه بداخلها.

فلقد حدث ضجيجٌ بالجوار، سمعت أصوات أناسٍ!

نظرت خلفها وجدت هؤلاء مَن يسكنون القلاع الأخرى

من شعب الفيوديراتي آتيين نحوها، لا يبعدون عنها سوى الأمتار القليلة حاملين في أيديهم تلك الحِراب التي لا زال هذا الشعب يعتقد أنها قد تؤذي تلك التنانين العظيمة، إنهم يتهامسون ويصدرون الضجيج الذي أيقظ ذلك التنين الرهيب الذي بجوارها.

فتح عيناه بغتةً، رفع رأسه بثقةٍ، بسط جناحيه ببطءٍ، ثم قام نهض على قدميه، أما سارة فتقوقعت مكانها أرضًا بجواره كي لا يراها أو يقذفها أحد جناحيه بعيدًا، وتبعه بقية التنانين الأخرى النائمة.

لكن خوفها وأنفاسها المرتعبة التي أخرجتها لفتت انتباه ذلك التنين؛ فنظر إلى الأسفل فرآها!!

وهي بدورها شعرت بذلك، فأظهرت وجهها المخبأ بين ذراعيها ورفعت عينيها للأعلى فرأته يزمجر بزئيره.

إنها بالتأكيد على حافة الموت؛ لقد شعرت في داخلها بذلك، فما فيه الآن هو بمثابة النتيجة التي كانت تخشاها من البداية، إنها تلك المخاطرة التي أرادت أن تخوضها بمفردها حتى لا تؤذي أحدًا غيرها من هؤلاء البشر، وخصيصًا صديقتها وأبواها الذين لو علموا بمجيئها إلى هنا ما كانوا ليتركوها.

وها هي الآن في مواجهة ذلك العدو الأشرس على الإطلاق وجهًا لوجهٍ، ها هي الآن في قلب الخطر الذي كان أكبر مخاوفها.

نهضت من مكانها ووقفت على قدميها لتستقبل الموت وهي واثبة، فما كان يشغل بالها أنها ستموت وهي فاشلة، لم تستطع أن تنفذ مهمتها أو تنقذ البشرية في عالمها، وهنا لم تقدر أن تكتم دموعها، لم تقدر أن تكون ظاهرةً في قوة الشخصية التي اعتادت أن تفعله، لقد نزلت دموعها من عينيها التي ترى جمرة النيران بجوف التنين تزيد اشتعالًا بداخله، ثم فتح فاه وهو على أتم الاستعداد ليحرقها في مكانها.

هذه هي حافة الموت ذاتها التي تراها أمامها بل أسفلها.. ستسقط في حفرة الموت.

وهنا.. ولا تعلم سارة إن كان هذا من حسن أم من سوء حظها لقد تلقى أحد التنانين الرماح على رأسه، تلك الرماح التي لا تُهز سنتيمترًا واحدًا منه، فلفت ذلك انتباهه وزمجر أكثر من قبل، وعلا زئيره وأصبح أكثر غضبًا، فالتفت إلى الناحية الأخرى حيث جاء منها الرمح وهو جاهزٌ على إطلاق تلك الجمرة التي بداخله، والتي قادرة على حرق كل هؤلاء البشر الذين يعتقدون أنهم قادرون على مواجهة نيران التنين.

لاحظت ذلك سارة، وارتفع مستوى الأدرينالين أكثر، وأصبحت أكثر خوفًا، وهنا صرخت بأعلى صوتها وقالت:

- لاااااااااااااااا.

توقف التنين عمَّا سيفعله فجأةً، لم يطلق نيرانه، لم يهاجم، لم يفعل شيئًا، لم تفعل بقية التنانين شيئًا، جميع التنانين مَن كانوا في السماء، ومَن كانوا يهاجمون، ومَن كانوا نائمين

جميعهم يوجهون أنظارهم نحو أولئك البشر، وتنين وحد منهم لا يفعل شيئًا كأنهم في انتظار الإشارة من ذلك التنين الكبير؛ لأن قبل ذلك بثوانٍ كانوا جميعهم يحضرون جمراتهم النارية يوجهونها نحو شعب الفيوديراتي ليطلقوها مع التنين الأكبر حجمًا كأنه قائدهم.

كل مَن كان يقف ممسكًا رمحًا كان واثبًا مندهشًا لا يصدق ما يراه بعينيه، وعلى بعد أمتارٍ أخرى هناك كانت دينا، وأبواها، والبيرتوس، وآجينوس، وكل مَن يسكن تلك القلعة التي كانت بها سارة ودينا آتين في لهفةٍ وقلقٍ، مسرعين نحو سارة المفقودة بالنسبة لهم ولا يجدونها منذ ساعات.

توقف التنين الكبير عمَّا كان يفعله، ولكن ليس بسبب صرخة سارة بكلمة "لا"، لكنه توقف لشيءٍ آخر.. شيءٍ لم يشعر به من قبل.. شيءٍ جعله يشعر بالأمان.

لقد نظر أسفله.

نحو سارة.

رآها تضع يدها المرفوعة لآخرها حتى بالكاد لمست صدره من الأسفل؛ لأن ضخامة حجمه لم تدع سارة قادرة على أن تتمكن من لمسه أكثر من ذلك.

لقد رآها تضع رأسها جانب رِجله كأنها تتوسل إليه ألا يفعل شيئًا يؤذي بها هؤلاء الناس، لأن ظل أولئك الناس قادرين على الاختباء من أنظار التنانين طويلًا فلن تقبل أن تكون السبب الآن في موتهم بواسطة تلك النيران المميتة، ثم إنها

شعرت للحظةٍ أنها هي السبب في كل شيءٍ يحدث الآن بسبب سفرها عبر الزمن؛ لأن لولا فعلتها هذه ما كان من المفترض أن يكون هنا شعب فيوديراتي في هذا الكون دون شمسٍ يعتبر شعبه إلهًا غائبًا عنهم بسبب غضبه منهم، ما كان هنا شعب من زمنٍ قبل الميلاد يعلم بأمورٍ أخرى مستقبلية بالنسبة لهم مثل السفر عبر الزمن أو التكنولوجيا، ما كان من الأساس يوجد هذا الشعب في هذا الزمكان الذي به تنانين، فإن هذا المكان ليس مكانهم وهذا الزمان ليس زمانهم.. إنه فقط كوكبٌ للتنانين.

إنه سفرها عبر الزمن هو المسئول الوحيد عن تغيير التاريخ، وحدوث خطأ في الخط الزمني للشعوب وللحضارات ولكل شيء منطقي يؤمن به أي عقل بشري.

لقد شعر التنين ولأول مرة بالأمان حين لمسته سارة، لقد هدأ من غضبه، أعاد تلك الجمرة النارية إلى جوفه، ناظرًا نحو سارة كأنه مندهشٌ من هذا الفِعل.

ولكن لم تفعل ذلك لتتوسل إليه، بل في الحقيقة فعلت ذلك قاصدةً أن تجعله يشعر بالأمان و...

هنا نظرت سارة بدموعها نحو عيني التنين وكأنها هي الأخرى تشعر بالأمان.

كان الجميع مندهشًا، وصلت دينا ومَن معها إلى الميدان، جحظت عيونهما، لا يصدق أحدٌ ما يراه.

وفي وسط هذه الأجواء حدث شيءٌ آخر غريب جدًا

للجميع.

إنه شيءٌ لا يتوقعه أحد، وما كان يخطر على بال أحدٍ من هؤلاء البشر.

شيءٌ تفاجأت به أيضًا سارة، لكنه كان شيئًا ما كانت تريده أبدًا أو تتمناه دينا أو أبواها، إنه شيءٌ لم يصنع فارقًا لشعب الفيوديراتي.

لقد اختفى ذلك الضوء الأزرق، اختفت بوابة الزمن التي علقت عليها دينا وأبواها آمالهم في العودة، كما وضعت عليها سارة رغبتها في إنقاذ عالمها، كل شيءٍ راح لقد ماتت كل الآمال.

لفت هذا الحدث انتباه التنانين؛ جميعهم نظر إلى مكان ذلك الضوء الأزرق؛ فلم يجدوه! وهنا بسط التنين الكبير جناحيه وأخرج زئيرًا عاليًا لكنه غاضبٌ، لكنه ليس شرسًا مثل أي طريقةٍ سابقة يسمعونه به التنانين تزأر، بل هذه المرة كان وكأنه مخلوطًا ببعض الحزن، كأن الضوء الأزرق كان يعني شيئًا لهم واختفى. فهل التنانين كانت غاضبةً بسبب اختفاء بعض رفقائهم من خلال الضوء الأزرق وذهابهم إلى عالم سارة ودينا؟

طارت كل التنانين بأجنحتهم للأعلى وبشكلٍ دائري ظلوا يحومون حول أثر الضوء، وهنا كانت الفرصة ليهرب جميع البشر إلى مخابئهم، لكن سارة ظلت تنظر للأعلى نحو التنين، وخصيصًا ذلك التنين الضخم.

دنت منها صديقتها وأبواها وحثوها على التحرك والهروب فإنها فرصة، فمثل أن اختفاء بوابة الزمن اختفى معها كل الآمال فإنها أيضًا سمحت للتنانين أن تنشغل بذلك؛ مما يكسب البشر الوقت للهروب من أنظارهم في مثل هذا الميدان المكشوف.

وبالفعل فعلت سارة ذلك، وبالكاد تحركت من مكانها، وشرع الجميع في الركض نحو قلاعهم، وكانت سارة تنظر خلفها للأعلى كل حين نحو التنين الضخم، وكأنها لا تريد أن تتركه حزينًا.

* * *

دخل الجميع قلعته؛ سارة ومَن معها بداخل قلعة البيرتوس وآجينوس، يتحاور الجميع مع الأولى حول ما فعلته، وبررت لهم سارة سبب فعلتها، ولكنهم أخبروها ألا تفعل ذلك مرةً أخرى، وأنها ليست مطالبة أن تحمل المهمة على أكتافها لوحدها.

كانت دينا حزينةً فسألتها والدتها سبب حزنها، فأجابتها الأولى:

- لقد اختفى الطريق الذي كان بمثابة ممر نمر به لعالمنا، لقد راح آخِر أمل للعودة.

قال لها أبوها:

- من المفترض أن وجودنا هنا معكِ يجعلك تتحملين بعدك عن موطنك.

نظرت دينا لأبيها في عينين مغرورقتين ولم تنبس ببنت شفة؛ ففهم الأخير ما بها وأردف:

- سنعود يومًا ما يا دينا، وستلتقين به.

سألت دينا في أسفٍ:

- ولكن متى؟

لا يجيبها أحدٌ، كان صمتًا رهيبًا استمر دقيقة من الزمن، قررت سارة أن تجيبها قائلةً:

- علينا أن ننتظر.

سألت والدة دينا:

- ننتظر ماذا؟

قالت سارة في تمعنٍ:

- ننتظر أن يذهب أحدٌ ما من عالمنا جسورًا لا يخاف إلى ذلك الكهف الموجود في تلك الجزيرة على البحر، ويدخل فيه ويتجرأ ليدخل في قلب الأزرق، يجب أن ننتظر أحدًا ما يذهب إلى بوابة الزمن من الجانب الآخر.

ثم مرت الأيام، والأسابيع، والشهور حتى انقضى عامٌ ونصف في الانتظار في عالمٍ بلا شمس، بل به البرد والظلام فقط.

***

لا زلنا في مدينة نوح (المتهورين سابقًا) غادرنا الساحة التي

تحولت من ساحة الإعدام إلى ساحة الدم والضباب لما فعلته بها مريم، إننا بداخل مسكن من المساكن القريبة من الساحة.

كنتُ جالسًا حزينًا، وبجواري خالي وأصدقائي يحاولون أن يخففوا من حزني على غياب ابني الذي بحوزة أيوب، وبعد حين بدأتُ أستقبل الأمر بشكلٍ آخر؛ كي لا أضيع في عالم الغياب عن الوعي، فكنتُ عالمًا بداخلي أن إذا كنتُ أريد استعادة ابني فيجب الخطو قدمًا.

فأحضرتُ حقيبتي التي كانت معي في رحلتي، وأخرجتُ منها تلك الجمجمة وأعطيتها لنوح؛ فالجميع سألني عن ماهية هذه الجمجمة فأخبرتهم:

- أريد أن أعرف عمر هذه الجمجمة؛ فإذا تبيّن أن عمرها عام ونصف أو أقل فهذا يعني أن تلك الجماجم والعظام التي وجدتها في الكهف كانت لأولئك المفقودين الذين كنتم تبحثون عنهم.

تساءل ماجد في توجس وقلق وكأنه يخشى ما يفكر فيه:

- ماذا يعني هذا؟

نظرتُ له وأجبته:

- إن تأكدت صحة ما قلته، فهذا يعني أن والديّ دينا أموات.

جحظت أعين الجميع؛ هم لا يتوقعون أبدًا ما قلته للتو، أو بالأدق لا يريدون أن يصدقوا هذا.

فقال نوح:

- سأرسلها للمختصين.

وذهب وحيد لصديقه ماجد ليواسيه ويخبره أن هذا شك لا أكثر، وأن من الممكن أن تكون عمر الجماجم أكثر من ذلك بكثير.

تعلقت آمال ماجد فيما قاله وحيد؛ لأن لو كان صحيحًا فهذا يعني أن الشيء الذي حرَّكه منذ أيامٍ ولم يطق الانتظار لتنفيه راح في مهب الريح.

ومن ثَمَّ أخبروني بكل ما حدث لهم بالتفاصيل، وأخبرتهم بدوري بما حدث في ذلك الكهف، وكيف أن ذلك الضوء الأزرق أو تلك البوابة نقلتي ودفعتني إلى المكان المتواجد فيه خالي مجرد تفكيري فيه أو في أرض الظلام.

وتساءلنا إذا كانت هذه البوابة تنقل الأجسام عن طريق التخاطر العقلي.

وبعد ذلك ساد الصمت حتى دنا نحوي خالي وسألني في حكمةٍ وثقلٍ:

- كيف ستكون الخطة إذن؟

نظرتُ في عينيه دون أن أنبس ببنت شفة، وظللتُ أبحث عن الكلمات التي من المفترض أن أقولها لأجيب سؤال خالي؛ ففي الحقيقة ليس هناك خطة لا خطة برأسي، لا أعرف ماذا أفعل؟ ومن أين أبدأ؟ ولكن ما أعرفه حقًا هو ما قلته للتو لخالي وللجميع:

- يجب ألا نثق بالآليين.

قال نوح متسائلًا:

- إذن، لماذا رفضتَ أن يكون أحدنا برفقة شهاب بالأعلى حين يفعل مهمته الموكلة إليه؟

أجبته ولا أنوي الإقناع:

- لقد أخبرتكم أنني سأوضح لكم سبب رفضي حين يأتي الوقت المناسب.

تساءل وحيد:

- أليس من المفترض أنهم بحاجةٍ إليكَ لتقتل لهم التنانين، وعلى ذلك لن يفعلوا شيئًا أحمق يجعلونك تنقلب عليهم؟

أجبتُ وحيد:

- نعم، ولكن يجب الحذر منهم.

ولكن ما يرهقني الآن هو غياب ابني، لا أعرف كيف سنبدأ الأمر، تركيزي الآن مشتت وأريد أن أستعيد ابني؛ لكي أوجّه نفسي بعد ذلك لما هو هام.

وبعد مرور ثلاثة أيامٍ، جاء نوح بما سيؤكد شكي وأخبرنا جميعًا أن عمر هذه الجماجم يقارب من عام ونصف! وهنا تأكدت من شكي، ونظرت نحو صديقي ماجد الذي بدا حزينًا وكادت الدموع تنزل من عينيه وقلتُ له:

- قد أبدو قاسيًا فيما سأقوله لكَ، ولكن سيجدي نفعًا معكَ،

اجعل الأمر وكأن هناك حملًا ثقيلًا كان عليك أن تنحني لحمله، ولكنه أصبح الآن أقل وزنًا عمَّا سبق، وهذا سيجعلك أكثر اعتدالًا.

ما أريد أن أقوله لكَ أنك كنتَ مطالبًا أن تجد والدي دينا؛ كي تسعدها عن رجوعها، ولكنك الآن أصبحتَ حرًا من وعدٍ قطعته على نفسك لتسعد غيرك.

نظر نحوي ماجد وكأنه يريد أن ينهض ليستوقف فمي عما يقوله من أشياءٍ قد تبدو قاسيةً له، نزلت الدموع من عينيه وقال في عذابٍ:

- الحب هو مَن يجعلنا نفعل أشياء ما كنّا نتخيل أن نفعلها حتى لو كانت تلك الأشياء كحملٍ ثقيلٍ على أكتافنا يجعلنا منحنين له، حتى لو كانت تلك الأشياء وعدًا عنيدًا يقيد حريتنا.

أجبته فخورًا بما يقوله:

- أؤمن حقًا بما تقوله؛ ربما هو الحب الذي يجعلني لا أكره زوجتي رغم كل ما فعتله، أعرف أنني قد أبدو جاف المشاعر حين أخبرك ما قلته للتو، لكنني كنتُ أريد أن أخفف من ثقل قلبك.

وقبل أن يجيبني حدث شيءٌ مرعب، شيءٌ قطع حوارنا الذي لما كان سينتهي، لقد سمعنا ما لم نتوقع أبدًا أن نسمعه هنا تحت الأرض.

كيف ذلك؟ كيف أتى هذا الصوت إلى هنا؟

جحظت عيوننا جميعًا، دب الخوف بقلوبنا جميعًا، جالت في فكرنا صورةٌ لما تسمعه آذاننا، والدموع ستحضر في ذهنه نهاية مدن أرض الظلام لما نسمعه الآن.

إنه ذات الزئير!

ذهب شهاب مع عشرات الآليين، وصعد إلى الأعلى نحو الشرق؛ كي يتفقدوا العالم العلوي، ويتتبعوا مسيرة التنانين، ومن أي اتجاهٍ يأتون؟ وأين يتمركزون؟ وأي مسارٍ يأخذون؟ وما هي تحركاتهم؟ وأي مكانٍ يحبون أن يطيروا فوقه؟ كان كل هذا إثر الاتفاق الذي حدث بين شهاب والآليين، وآدم والعالم السفلي. فعلى شهاب وجنوده أن يدرسوا الموقف، وعلى آدم ومساعديه أن ينفذوا الضربة، ويساعدان الطرفين بعضهما ضد عدو مشترك بعد أن كانا أعداء.

كانوا يفعلون هذا دون أن يكون عرضةً لأنظار التنانين، لقد كان عالمهم فيما سبق ويعرفون تمامًا ما هي الأماكن التي من المفترض أن تكون أكثر أمانًا من نيران التنانين.

طلب شهاب أن يأخذ معه بعضًا من رفاق آدم؛ ليشعروا بالأمان من هذا التحالف، لكن رفض آدم واندهش الجميع من ذلك ولكن كان هناك سبب بداخل آدم ولا يريد أن يبوح به، ولا يعلم أحدٌ ما هو هذا السبب؟ ولماذا لا يريد أن يبوح به؟

كان عليهم أن يبقوا بالأعلى بضعة أيامٍ؛ كي يفهموا تحركات التنانين، فيجب أن يدرسوا ذلك على أكثر من يومٍ بشكلٍ متتالٍ؛ كي يحفظوا تلك التحركات بالإضافة إلى أنهم لرغبتهم

في معرفة إذا كان هناك أي تغير فيما يفعلونه؟ أم أنه نفس الأسلوب يوميًا؟

وبعد مرور ثلاثة أيامٍ، في اليوم الرابع كان هناك شيء غريب لم يحدث في خلال الثلاثة الأيام الماضية؛ هناك تحركات غريبة تأتي من ناحية الغرب، ولكن ما اندهش له شهاب ومَن ومعه أن هذه التحركات غير المألوفة لم تكن في الجو، بل كانت أرضية، لا زالوا لا يرون ما الذي يصدر هذه الأصوات لكنهم يسمعونها جيدًا.

في الحقيقة بدأ شهاب يستوعب أسلوب هذه الأصوات، وأصبحت ليست بغريبة بالنسبة له، وكأنه سمع هذه الأصوات من قبل بل واعتاد عليها، الأمر بالنسبة له أكثر من ذلك؛ فبعد دقائق أخرى أصبحت هذه الأصوات هو مَن كان يأمر بها من قبل ويعلمها للآليين.

نظر جميع الآليين المتفرقين على الأماكن الآمنة نحو الغرب، وظهر ما يصدر تلك الأصوات.. إنهم آليون، لكنهم تساءلوا هل هم مرتدون؟ فبعد مرور دقائق أخرى رأى مَن يقودهم، أو بالأحرى مَن تقودهم.

أنها ريتاج في مقدمتهم، وما لم يعلموا به وكأنهم اندهشوا حين رأوه هو أن بجوار ريتاج كانت يارا والتي من المفترض أنها مفككة ولم يعد لها وجود، ثم وكأن تملكهم الذهول حين رأوا بخلف ريتاج ويارا كل الروبوتات التي تفككت أجزاءها في الحرب منذ عامٍ ونصفٍ.

بعد ذلك رأى شهاب ورفاقه أنهم ينقسمون، يتفرقون إلى مجموعاتٍ صغيرة، وكل مجموعة تأخذ مسارًا معينًا ليكملوا به طريقهم.

يبدو أنهم آتون بخطةٍ محكمةٍ، ويعلمون ما الشيء الذي في مواجهته هنا، فهم على علمٍ بوجود التنانين. نظر شهاب إلى رفاقه كأنه سعيدٌ، فبعد مرور عامٍ ونصف أخيرًا كأنه شعر بوجود مَن يحميه.

وبعد مرور كثيرٍ من الوقت، نجحت ريتاج وقواتها في الوصول إلى النقطة التي يتواجد بها شهاب، وأصبح جميع الآليين الذين بلغ عددهم الآلاف متواجدين. يتمحورون بشكلٍ تمركزي تفرقي في المنطقة، وهذا التكتيك الجهنمي يساعدهم كثيرًا؛ فالتفرقة تساعدهم في أنهم ينجحون في الاختفاء من أنظار التنانين، كما أن التجمع يدعم قوتهم ويزودها.

والتنانين تطير أعلاهم تبحث عن أي شيءٍ لتسد بها جوعها، أو تنفث فيه غضبها.

وصلت ريتاج في نجاحٍ باهر بمجموعتها وبرفقتها يارا إلى النقطة التي يتواجد بها شهاب ومجموعته.

وهنا وقفت ريتاج بمقابل شهاب ووسطهم يارا، وكأن الشمل كان ينقصه وسامٌ الذي من المستحيل إحياؤه مرةً أخرى، ورامز المتواجد بالغرب بأمرٍ من ريتاج ليحمي القاعدة هناك حيث يتواجد بقية قوتهم، بالإضافة إلى أن الغرب أصبح

قاعدتهم المركزية التي بها كل شيءٍ من أسلحةٍ، أو أجهزةٍ، وآلاتٍ متطورة التي من خلالها نجحت ريتاج ومعها رامز في استنساخ كل مَن تفككت أجزاءه بالحرب.

اجتمع الثلاثة معًا، وسرد شهاب كل ما حدث معه حتى هذه اللحظة، وتبادلت ريتاج ذلك وحكت له عن كيف استطاعت أن تجمع كل الآليين المنتهين وتستنسخهم مرةً أخرى، كما ذكرت الجزء الخاص بآدم ونوح وما حدث معهما وكيف قتل الأول التنين.

فقال شهاب:

- إذن، الأمر حقيقي!

أجابت ريتاج:

- آدم أصبح أكبر عدوٍ لنا، إنه خطرٌ علينا أكثر من هذه التنانين.

قالت يارا وكانت هذه أول جملة لها بعد أن أخرجتها ريتاج من بوابتها الخاصة بها لعملية الاستنساخ:

- لن نعرف نحيا كما في السابق لطالما آدم موجود بهذا العالم، إن قوته أصبحت أقوى مما سبق، ولن نستطيع أن نتصدى لها.

قال شهاب بدوره:

- ولكن لقد أجريتُ معه اتفاقًا.

تساءلت ريتاج في استنكارٍ:

- اتفاق؟! مع بشري؟

أجاب شهاب:

- كما قلتما إنه أكبر خطرٍ بالنسبة لنا، ولكن لن نستطيع أيضًا أن ننعم بالعالم العلوي مرةً أخرى مع وجود هذه التنانين، لا يستطيع أحدٌ فتك قوة هذه التنانين سوى قوة مثلها بل وأقوى منها، وآدم هو الوحيد القادر على قتل هذه التنانين كما فعل في الغرب أمام أعينكما.

قالت يارا:

- ولكن إننا نعلم جميعًا أن آدم لا يستطيع استخدام قوته دون أن يحزن.

ريتاج:

- إذن، علينا خلق الدافع لجعله يفعل ذلك ليطلق قوته على هذه التنانين.

وهنا بدا وكأن هناك ابتسامة نصرٍ وخداعٍ على وجه شهاب وقال:

- وهذا بالضبط ما أخطط له، سأضغط عليه عن طريق تهديده بأحد أقاربه مثل: خاله فهمي، أو ابنه الذي بحوزة أيوب، أو عقد اتفاقٍ مع زوجته الساحرة مريم. بالتأكيد لن أنوي أيضًا أن أنفذ دوري في الاتفاق، لن أجعله يسكن العالم العلوي ويشاركنا إياه، إنه من حقنا وحدنا.

وهنا حكي شهاب له الجزء الخاص بما حدث بأرض الظلام

والانقسامات التي صارت بينها.

تفاخرت ريتاج وقالت:

- لطالما كانت الانقسامات بداية ضعف قوة جبارة، وهذا سيساعدنا في مسعانا والظفر بعالمنا مرةً أخرى.

قال شهاب في قوةٍ:

- عقب قتل آدم للتنانين سنتخلص من جميع أعدائنا البشريين.

***

خرجنا مهرولين جميعًا إلى الخارج نحو الساحة، ووجدنا المصيبة الأكبر؛ رأينا الرعب الأعظم.. لم نصدق حتى الآن.. شاهدنا أمام أعيننا نهاية الجميع هنا قبل أن تبدأ.

إنه تنينٌ.. تنينٌ يهرول بالمكان!

تنينٌ يبسط جناحيه ويطير في ضيق، كأنه لا يعرف أن يتحرك بحرية، وهذا بسبب أن التنين ليس معتادًا أن يكون تحت الأرض مقيدًا في حركته بسبب عدم وجود الفراغ الشاسع المعتاد عليه.

يركض برجليه يمينًا وشمالًا، وتصطدم جناحاه بكل ما يقابله فينزل متهدمًا بسبب قوته.

إنه يزأر.. غاضبًا.. خائفًا.. حانقًا.. ملتهبًا..

وهنا وبعد لحظاتٍ، سيحدث ما هو أسوأ شيءٍ يحدث بمدن

أرض الظلام؛ لقد كوّن التنين جمرة النار بجوفه وفتح فاه وعلى أتم الاستعداد ليحرق كل ما يقف أمامه.

لقد أتى التنين بغتةً، لم ولن يتوقع أحدٌ أبدًا أن يتواجد هنا، وكيف ذلك؟! كيف سينزل إلى تحت الأرض من الأساس؟!

وهنا شعرتُ بأنني السبب في جلب هذا التنين إلى هنا؛ لأنني تذكرتُ آخِر شيءٍ رأته عيناي حين كنتُ في وسط ذلك الضوء الأزرق، تذكرتُ أن كان هناك تنين يقترب نحوي.. نحو حزمة الضوء.

لقد علمتُ أن التنين تمكن في اتباعي، لقد نجح في أن يخترق الضوء الأزرق من بعدي وقذفه إلى هنا في خلفي.

لقد علمتُ بداخلي أنني السبب فيما سيحدث بعد لحظاتٍ معدودة من دمارٍ بعالم أرض الظلام.

لقد مرّت الثواني، وكان كل شيءٍ بالجوار تحول إلى النار، ثم أشياء محروقة، ثم رماد.

لقد أخرج التنين بالفعل جمرة النار من جوفه، وفتح فاه وأطلقها على كل ما ومَن يقابله، لقد مات بشرٌ آخرون، واحترق آليون عديدة، وظل التنين يُحرق ويلتهم، ويزأر ويغضب.

لقد تحولت مدينة ساحة الإعدام إلى ساحة الدم والضباب، ومنها إلى ساحة النار، المهم أن في كل مرةٍ تكون هذه المدينة هي ساحة الموت، وهذا أكثر اسمٍ يليق بها.

الجميع هنا على حافة الموت.

فبعد أن راح ضحايا من البشر والمرتدين إثر هجوم التنين المباغت نجح البقية في التواري من أنظاره، لقد اختبأ الجميع تاركين الساحة الخارجية فارغةً يرمح فيها التنين.

لا يستطيع أحد أن يخرج إلى الخارج، شعروا بأنهم مسجونون، حتى أنا رغم قوتي الخارقة لا أستطيع أن أفعل شيئًا، لستُ حزينًا الآن كي أفجر قوتي في ذلك التنين، لكنه ظل بالخارج يطير يمينًا وشمالًا ينفث النيران، ويبحث عن لحمٍ ليلتهمه.

إنني مسجونٌ الآن، الجميع عاجز أمام هذه القوة، يوجه الجميع أنظاره نحوي، وكأنهم في انتظاري لفعل أي شيءٍ أمام هذا التنين، وكأنني الوحيد القادر على إنهاء هذا الخطر، أشعر من خلال أنظارهم أنني المسئول عن موت هؤلاء الضحايا وإنقاء هؤلاء الأحياء.

هل أحاول أن أتذكر أي شيءٍ يجعلني أحزن؟ ما هذا الحمق؟ لا تجيد معي هذه الطريقة، إنني مشتت الآن فليس هناك ما يشغل تركيزي سوى ابني، فرغم كل ما نحن فيه الآن إلا أنه ليس هناك سوى صورة ابني الحاضرة أمامي؛ ربما يصف البعض أن هذه نرجسية بي أفكر فيما يخصني رغم الخطر الذي يهدد الجميع هنا، بل يهدد العنصر البشري بالعالم السفلي، لكني لا أستطيع أن أغفل عن ابني يوسف.

ربما غياب ابني يحزنني بالتأكيد، لكنه ليس الحزن الذي

يجعلني أغضب، فلا بد أن أغضب بعد أن أحزن؛ ربما هذا لأنني متأكدٌ أن لن يؤذي أيوب ابني، ربما لأن هو عالمٌ أن لو فعل هذا سيفتح على نفسه أبواب قوتي المغلقة وأدمره، ربما يخلق من هذا دافعًا ليضغط به علَيَّ لنترك له مدينتيه كما يرغب.

ووسط أفكاري التي لن تنتهي أبدًا جالت في فكري خطةٌ نُخرج بها هذا التنين الذي لو بقى أكثر من ذلك لجعل كل سكان أرض الظلام جثثًا محترقة.

دخلنا إلى مسكن واحد أنا، وأصدقائي وحيد، وماجد، ونوح، وأيضًا خالي؛ فدنوتُ من نوح بحذرٍ ألا أفعل شيئًا أحمق ألفت به انتباه التنين بالخارج فيهجم على مساكننا يحرقها.

الجميع هنا في كل المساكن سواء بشر، أو مرتدين، أو آليين ملتزمين الصمت والهدوء والتحرك بدقةٍ وفي حذرٍ تام.

وقلت له:

- لقد أتتني فكرة نخرج بها التنين.

سألني:

- ما هي؟

أجبته:

- يجب أن نخلق فجوةً كبيرةً عبر السقف تكفي حجم التنين حيث يطير خلف أحدٍ منا لمطاردته، وليس هناك ما سيفعل

هذا سوى مركباتكم الحديثة المزودة بطلقات تهدم الأشياء، كما أنها تطير في الجو مثل التنانين.

ركض نوح في خفاءٍ وحذرٍ متواريًا عن أنظار التنانين عن طريق أخذه الممرات الضيقة، أو ركضه خلف بعض الجدران والأثاث وخرجنا خلفه، وأحضر مركبةً حيث يتواجد منها الكثير؛ لأن هذه المدينة هي مدينة المرتدين فتوجد بها كل أشياؤهم المتطورة الحديثة ومركباتهم الطيّارة.

ثم ركبها واقترب نحو الساحة الموجود بها التنين، وأخذ زاويةً معينةً بعيدةً عن أنظاره، وشرع يطلق الأشعة الليزرية المدمرة، فبعد طلقتين استطاع نوح أن يخلق فجوةً لكنها لا تكفي لحجم ذلك التنين.

وقبل أن يطلق طلقته الثالثة كان التنين جُذِبَت أنظاره، فأطلق الثالثة فثار هذا انتباه التنين أكثر، ثم أخذ في الركض نحو ما يسقط من ذلك السقف، بسط جناحيه وطار ليحلق نحو لك الفجوة التي تشع ضوءًا (ضوء الشمس آتٍ من الأعلى) أكثر مما كانت تشعه قبل الضربة الثالثة.

لم يعلم التنين بوجود نوح، لا يرى أمامه سوى ضوء صادر من فجوةٍ تتوسع مع الوقت يسقط منها ترابٌ كثيفٌ يغشي الرؤية.

لاحظتُ ذلك وعلمتُ بداخلي أن لم يسبق نوح التنين ويخلق فجوة أكبر من هذه، لا بد من إثارة التنين لكي لا يصل للفجوة قبل أن يجعلها نوح بحجمٍ أكبر من هذا؛ فإذا

وصل التنين قبل ذلك لم تكن هناك فرصة لنوح أن ينقذ نفسه سيكون مكشوفًا أمام التنين ولن يكون أسرع منه.

فهنا ركضتُ إلى الخارج واحدًا مِمَن كان بجواري لم يتوقع أن أفعل هذا، فلم أعطهم الفرصة ليمنعوني؛ فحاول أن يعيدني خالي ببعض الكلمات كي أرجع عما سأقدم لفعله، ولكني استمررتُ ووصلتُ إلى منتصف الساحة وصرختُ كي ألفت انتباه التنين الطائر نحو الفجوة؛ وبالفعل نجحتُ في ذلك فحول التنين رأسه إلى الخلف أسفله، ووجّه أنظاره نحوي، فغّير التنين مساره وولى جسمه في مسار نصف دائري حتى أصبحتُ في مواجهته، توقف التنين في الهواء بالكاد يبسط جناحيه، نظر نحوي، غيّر اتجاه رأسه نحو الأسفل بشكلٍ عمودي، ورأيتُ جوفه يتحول من الداخل إلى اللون الأصفر؛ فعلمتُ أن هذه هي الجمرة النارية وبعد ثوانٍ فتح فاه وأطلق ما بداخله من نيران وصلت إلى أرض الساحة بأسفله.

من حسن حظي أنني لم أكن أسفله بالضبط لكنت جثةً محترقة، لا أعرف لماذا فعل هذا؛ ربما أغضبته فأراد أن يعرض قوته لأخشاه، في الحقيقة إنني مرتعبٌ منه.

وبعد ثوانٍ أخرى لوّح بجناحيه وجعلهما خلفًا تأهبًا لبداية الطيران أو الهبوط، لقد اندفع نحوي بكل قوته نازلًا للأسفل بشكلٍ منحدرٍ.

فهم نوح اللعبة وأطلق طلقته الرابعة حين غيّر التنين مساره نحوي، فاتسعت الفجوة أكثر ولم يبقَ سوى القليل

لتكفي خروج تنين؛ فنحن بحاجةٍ إلى طلقةٍ خامسةٍ أخيرة، ولكن قبل أن يفعلها نوح كان التنين غيّر أنظاره مرةً أخرى إلى الخلف حيث المكان الأول الذي ركض نحوه، وطار نحو الفجوة التي تشع ضوءًا مرةً أخرى لكنه فرَّ بسرعةٍ أكثر مما سبق.

فبدوري أخرجتُ تلك الصرخة مرةً أخرى لألفتُ انتباهه مرةً أخرى؛ فيطير نحوي مرةً أخرى مما تتيح الفرصة لنوح لإطلاق ضربته الأخيرة.

ولكن حدث ما لم أتوقعه، وهذا بالتأكيد نتاج العمل دون خطة، فما نفعله كان ارتجاليًا، وهذا ما يجعلنا نقع في أخطاءٍ لم نضع حسبانًا لها أو لم نتوقعها على الإطلاق.

لم ينتبه التنين إلَيَّ، ولم يسمع صرختي؛ فكررتُ ذلك مرةً أخرى لكنه لا ينظر نحوي، بالتأكيد يسمعني لكنه اختار أن يتجاهلني، فما أمامه الآن هو الأهم بالنسبة له؛ فهذه المرة الثانية يطير نحوه، كأنه كان على عزم أن يهجم على هذا الشيء الذي يخرج منه الضوء، لا بد وأنه تهديد بالنسبة له.

وهذه كانت أكثر لحظة كان نوح فيها في أشد الخطر، إن لم يتحرك الآن فلا سبيل لديه، فصرختُ بأعلى صوتٍ لنوحٍ أحثه ليترك مركبته ويركض متخفيًا بين المساكن.

بالفعل علم نوح بالخطر آتيًا نحوه فترجل بسرعة وأخذ يركض بين الزقاق، ولكن لمحه التنين وترك انتباهه للفجوة وصوّبه نحو نوح، فأخذ يطير فوقه وهو ينفث النيران على

كل ما يقابله من جدران مبانٍ؛ ليخلق أمامه طريقًا فارغًا يطير فيه فوق المساكن المهدمة، كان يتعطل تارةً ويستأنف طيرانه مرةً أخرى، وهنا أصبحت المدينة عبارة عن كتلة نارية تحترق من كل جهة، وبالطبع كل مَن كان مختبئًا بداخل هذه المباني أحترق، فلا يتوقع أحدٌ ذلك أبدًا.

لقد أطلق التنين عنان غضبه على المدينة بأكملها وهو يطارد نوح، أما أنا فلم أترك صديقي فركضتُ نحو ذات الاتجاه وأصوّب أنظاري للأعلى لأفعل أي شيءٍ ألفتُ به أنظار التنين نحوي؛ فيترك نوح كي يطاردني أنا فتتيح الفرصة لنوح فعل أي شيءٍ لينقذني بدوره، ولكن لم يلتفت نحوي التنين وكأنه اختار أن يكون نوح هو فريسته ولا أحد سواه، كأن نوح هو مَن أثار غضبه.

بطبيعة نوح الآلية ساعدته في الحركة بخفة؛ فسرعته ساعدته أن يركض أمام طائرٍ يطير بجناحيه أعلاه يتعرقل أحيانًا بسبب ضيق المكان ارتفاعًا وما يقابله في طريقه من مبانٍ.

أصبحت المدينة عبارة عن مساكن متهدمة، أنقاض مشتعلة، بشر موتى، آليين محترقين.

لقد فشلت خطتنا وفشلنا في إخراج التنين إلى الأعلى، وهنا وفي هذه اللحظة توقفتُ عن ركضي أنظر حولي، هنا بدأتُ أحزن حزنتُ بمرارةٍ على الدمار الذي عمَّ على أحد مدن أرض الظلام، حزنتُ على كل مَن أصبح ضحيةً لهجوم تنينٍ مباغت.

لقد استغرق الأمر منا عامًا ونصف لكي نتخفي من أنظار التنين بالأعلى، وما زال الأمر مستمرًا، ولكن ما النتيجة في نهاية المطاف؟

لقد جاء تنينٌ إلينا بالأسفل بسببي؛ فكل مَن احترق للتو كنتُ أنا السبب في موته، كنتُ السبب في كل الدمار الذي أراه أمامي.

لم أكن أتوقع أبدًا أن يأتي التنين خلفي بمنتصف تلك البوابة الزرقاء، لقد أتيتُ إلى هنا عن طريق التخاطر العقلي الذي استقبلته أشعة الضوء الأزرق من دماغي، ولكن كيف أتى التنين؟ هل بسبب أنه كان يتبعني ويطاردني وأنا بدوري أتيتُ إلى هنا؟ ويكون بتلك الطريقة التخاطر العقلي أيضًا؟

لم أفكر أبدًا ولا يفكر أحدٌ بتاتًا أن يطاردني التنين بتلك الطريقة، مَن كان يتوقع أن يدخل التنين إلى الضوء الأزرق؟ لقد أخذتني دوامة البوابة قبل أن يقترب التنين إلى الأشعة بشكلٍ مباشر.

تألمتُ واحترق قلبي على كل مَن فقد حياته إثر هجوم التنين، أشعر بذلك، أشعر بكم الندم والأسى والحزن القاسي بداخلي.

وهنا وفي هذه اللحظة أحسستُ بذلك، أحسستُ أن هذا الحزن المرير الذي يتملكني يتحول إلى شيءٍ آخر، شيءٍ أكثر دمارًا من دمار التنين للمدينة.

* * *

- ماذا سنفعل الآن؟

قالها صالح أحد الحكام القدامى لمدينة المحافظين موجهًا إياها لأيوب؛ فأجاب الأخير في غضبٍ عارم:

- لقد خسرتُ أهم حليفٍ لي، لقد تمكن آدم وخاله من إقناع شهاب لينضم له.

تساءل صالح:

- ماذا عن القراصنة؟

أجابه أيوب:

- إنهم قِلّة، بالإضافة إلى أن هذه القِلّة انقسمت إلى جزأين، وأحدهما في صف آدم.

قال صالح في تحذلق:

- لكنهم ليس بحليفٍ لهم، إنه مجرد اختلاف بين أخوين نستطيع أن نعالجه.

نظر أيوب لصالح وظهر على ملامحه أنه يفكر فيما قاله الأخير، فردَّ الأول مؤكدًا:

- نعم، معك حق.

أكمل صالح:

- هذا بالإضافة إلى أنهم يأخذون هذه المدينة مأوى لهم في الوقت الحالي، تستطيع من خلال هذا أن توحد بين الأخوين مرةً أخرى لينضما في صفك، وإن رفض الأخ الكبير فعلى

الأقل ستضمن الجزء الآخر.

قال أيوب:

- لا زلت أحتاج إلى المزيد؛ فقوة الآليين المنضمين لآدم أكبر من كل هذا، لا بد وأن أكسب هذه الحرب.. يجب أن أعيد مدينتيّ.

قال صالح في ابتسامةٍ ماكرة:

- لا تغفل عن امتلاكك أهم عنصر في كل هذا.. إنك تملك طفله.

أيوب:

- نعم، أملك طلفه وهذه نقطة كبيرة جدًا لصالحي، ورغم ذلك إلا أن آدم يعلم تمامًا أنني لا أستطيع أن أؤذي ابنه؛ فلو فعلتُ هذا سأمزق قلبه ويغضب، وإن فعل هذا فلن يكون هناك أي مدينة لأعيدها، الطفل مجرد أداة ضغطٍ لا أكثر لأسبقه بخطوة.

نظر إلى صالح بنظرةٍ ثاقبةٍ وأردف في ثقةٍ:

- نحن نمتلك قوةً أخرى ليست في صفنا لكننا نحرمهم منهم، إنهم المنفيون، يجب أن أجبرهم على الانضمام لي، سأجعلهم يوافقون بطريقةٍ أو بأخرى، مثل أن آخذ منهم أطفالهم أو نساءهم وأهددهم بقتلهم إن لم يلبوا أوامري.

ابتسم صالح في فخرٍ وقال:

- نعم، أنتَ هو الأحق أن تملك على أرض الظلام جميعها.

ثم سمعا طرقًا على الباب الخارجي لمسكن أيوب؛ فذهب صالح لفتح الباب ويتساءل مَن الطارق؟ ففتح الباب وكانت المفاجأة؛ اندهش حين رآه صالح، فولى خلفه وقال بصوتٍ عالٍ ليسمعه أيوب بالداخل وقال:

- إن الحلفاء يأتون إليك بنفسهم.

فمَن كان يطرق الباب.. هو فارس.

* * *

كانت مريم في مدينتها الأصلية.. مدينة المجانين، أخذت تحاول أن تجعل مدينتها محصنةً ضد أي هجمة، حاولت أن تؤمن نفسها بشعبها، فلا زالت هي القائدة المباشرة والأعلى، وباستطاعتها أن تأمرهم بما تريد، لقد أولجت بداخلهم الخوف على ضياع مدينتهم مستعينة بالواقع الحادث؛ فمدينة المعترضين أخذوها القراصنة، وأصبحت مدينة المتهورين عبارة عن مدينة الموت.

لقد تهيأ الجميع، لقد أخلقت الذعر بينهم، وتسرب بداخلهم التوتر والقلق، ولا يعرفون أنها ليست مريم القديمة، ليست مريم الساحرة العقلانية ذات الضمير اليقظ، بل إنها مريم جديدة يستحوذ عليها الشر وتتحكم فيها قوى الظلام، ويحركها السحر الأسود كلعبةٍ بين يديه.

بعد أن أمّنت مدينتها واطمأنت على حالها من أي هجمةٍ تأتي بغتةً قصدت مسكنها، وأخذت تبحث عن شيءٍ يبدو أنه في ذات الأهمية بالنسبة لها، ظلت تبحث في كل أركان

المسكن حتى وجدته أخيرًا، وجدته في الحجرة التي كانت تمارس فيها سحرها، إنه مع الأشياء القديمة التي كانت تستخدمها حينذاك، إنه الكتاب القوي، إنه ذات كتاب السحر التي استخدمته في جلب القوة التي تتمتع بها الآن.. قوة جلب الضباب.

أخذته، فتحته، بحثت فيه بشراهةٍ، وكأن هناك شيئًا مهمًا ضائعًا منها ولا بد أن تجده؛ حتى ينقذها من قوة آدم المطلقة التي لا تستطيع أن تواجهها بمفردها حتى لو كانت جالبة الضباب الأسود.

شرعت تفعل نفس عادتها؛ الشموع التي تنير بإضاءتها الخافتة متوزعة بشكلٍ منظم داخل وخارج رسمة رسمتها على الأرض، إنها ذات الرسمة المثلثان المتقابلان وفي وسط جميع الفراغات حروف بلغةٍ غريبة ساحرة، تقف في منتصف الرسمة على ركبتيها، تغلق عينيها تتمتم بأشياءٍ غير مفهومة، ثم تأتي بما هو جديد؛ لقد جلبت معها سكينًا؛ فمدت ذراعها باسطةً كف يدها ممسكةً باليد الآخر السكين، ثم وضعت السكين على باطن ساعد ذراعها، وأخذت تجرح نفسها، فسالت الدماء من ذراعها أرضًا في وسط الرسمة الملعونة؛ فيبدو أنها طقوس جديدة هذه المرة وأكثر قوةً وعنفًا وشرًا عما فعلته من قبل.

مقتنعة أنها تنفذ ما تطلبه منها قوى الحق التي ستغيّر مجرى العالم، وتستقبله بمستقبلٍ جديدٍ باهرٍ يصلح لجميع البشر والحفاظ عليه.

هذه ما أوهمته لها قوى الظلام؛ إنها تفعل ذلك من أجل الحفاظ على الجنس البشري، ولكن الحقيقة لم تعرفها بعد، ويبدو أنه لن تعرفها قبل أن يستحوذ عليها السحر الشرير حتى لا يتبقى منها شيء.

وظلت تسيل الدماء على الأرض كأنها تروي ما تطلبه الطقوس منها على هذه التعويذة المرسومة على الأرض.

وبدأت تفقد نفسها شيئًا فشيئًا حتى اقتربت أن تفقد نفسها ولن يتبقى منها شيءٌ، أسفرت على أنها تذهب مريم القديمة دون رجعة.

***

غادرت التنانين المحلقة فوق الآليين بالأعلى مما أتيحت الفرصة لشهاب، وريتاج، ويارا ومَن معهم للتجمع مرةً أخرى لأول مرة منذ الحرب التي أسفرت على انعدامهم.

تجمعوا في منتصف النهار، كان موقعهم في الشرق عند البحر، في ذات الميدان الذي شهد على هزيمتهم منذ عامٍ ونصف.

جعل منهم شهاب صفوفًا كمشاة الحرب، التفوا حول قوادهم الثلاثة، وكانت ريتاج هي القائدة الأعلى لهم جميعًا.

وهنا تقدمت ريتاج وقالت بصوتٍ جهورٍ:

- نتجمع اليوم ولأول مرة منذ هزيمتنا، لا نستطيع ننكر أنهم استطاعوا التغلب علينا في الحرب، لقد باغتونا بأشياءٍ

كانت مدهشة بالنسبة لنا، لكنهم لم يستطيعوا أن يظفروا بمسكب تلك الحرب، وهذا ما أخذناه نقطة تحول لنا لنتجمع مرة أخرى على ذات الأرض لنعيد ما سُلِبَ منا. لقد كان ولا زال العالم العلوي يخصنا، ولن نفرط فيه مرةً أخرى، سنحارب من جديد إنهم في أضعف وقت الآن، حتى وإن كان لديهم آدم، سنجلب عليهم حربًا في منتصف النهار لكي لا يستطع أن يستخدم قوته، أما عن مَن تجلب له الضباب لكي تخلق له ظلامًا ليستخدم قوته فلن تكون موجودة برفقته، لقد أخبرنا شهاب أن صفوفهم منقسمة، ولدى آدم عداوة مع جالبة الضباب.

ولكن لضمان عدم تسوية الخلاف بينهم أثناء هجومنا عليهم سنفعل ما هو أكثر من ذلك.

ثم نظرت إلى شهاب ثم إلى يارا وبعد ذلك إلى المئات، وأضافت في حسمٍ وقوةٍ:

- سنقتل مريم.

وعند قولها لهذا القرار حدث ما هو غريبٌ وغير متوقع على الإطلاق، إنهم على علمٍ أن التنانين ذهبت بعيدًا ولن تعود قبل ست ساعاتٍ أخرى حسب ما علم شهاب من مراقبته لهم منذ أيام.

ولكن كيف يحدث ذلك؟

لقد كان ظلًا يرقص على وجوههم.

كان ظلًا ضخمًا كبيرًا استطاع أن يحجب عليهم ضوء

الشمس.

ظلًا يتحرك آتيًا من الشرق يتراقص على وجوههم ببطءٍ وثقة.

لقد كان ظلًا لشيءٍ أكبر من هذا الظل.

شيءٍ مخيفٍ أكبر من ظِله.

شيءٍ آتٍ في الجو.. يشق الهواء.

حيث نظر الجميع للأعلى.

وكانت المفاجأة الصادمة.

لا زلت أحترق بداخلي من أجل ما أراه، وكأن التنين يغتصب أرضنا ويحرقها وينفث النيران دون رحمة، لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا، حزنتُ من أجل مَن مات، وغضبتُ على ذلك التنين المغتصب.

ولكن ما يفعله هذا التنين الآن أثناء مطاردته لنوح بمقارنته بما أخشاه فهو لا شيء، سيكون ذلك التنين أقل رحمةً مما أنا سأقدم على فعله الآن، لا أستطيع أن أكبح نفسي.

إن جميع سكان مدينة المتهورين على حافة الموت، ولا أرى سوى الموت والدمار، لأول مرة لا أستطيع أن أتحكم في قواي، لا بد وأن أجعل هدفي فقط هو الذي أمامي كي أطلق قوتي نحوه، ولكن عدوي هذه المرة طائر في الجو يتحرك في جميع الاتجاهات ليس له مسار محدد، ولا أستطيع أن أمنع نفسي مما أشعر به لأول مرة أخشى من قوتي، أخاف على

بني جنسي من نفسي.

كانت كل هذه الأفكار في أقل من ثانية مرت أمامي سريعًا، وما سيحدث الآن ليس سوى الدمار والموت.

وصلتُ لأعلى درجات غضبي أحاول أن أمنع هذا، أجاهد بكل قوتي البشرية أن أكبح قوتي اللا بشرية، لاحظ خالي، شاهدني وحيد وماجد، إنهم يقتربون نحوي، أصرخ في وجوههم وأقول لهم:

- ابتعدوا عن هنااااا.

يتراجعون.. يتقهقرون.. يخافون.

أكره نفسي ولا أستطيع تحمل نظراتهم الخائفة مني وكأنني وحش، ولكن هذه هي الحقيقة إنني لا أرى نفسي الآن سوى وحش سيعصف بكل مَن يحبه ومَن لا يحبه، سأدمر الجميع.

لقد انتهت محاولاتي في أن أتحكم في قواي في أقل من ثانية، وسأطلقها على الجميع، إنني سأطلقها الآن.

وقبل أن أفعل ذلك لمحت نيرانًا عند الفجوة التي خلقها نوح، وجهت نظري نحو تلك الفجوة، ثم إلى التنين الحارق فأراه يترك مطاردته لنوح ويلتفت عمَّا لفت انتباهه.

غيَّر التنين مساره والتف بجسمه وجناحيه في شكل نصف دائري، واتجه نحو تلك الفجوة التي تثير غضبه من البداية.

طار نحو الفجوة.. نحو هذه النيران، وقبل أن يدنو منها زادت النيران وتعالى توهجها، وصار أجيجها أكثر رعبًا.

تدمرت تلك الفجوة، وتساقطت الأنقاض مشتعلة لتنزل على الأرض محترقة، وصل التنين الحارق إلى تلك الفجوة التي صارت أوسع مما سبق حتى كانت تكفي لإخراجه.

وهنا وعند وصول التنين إلى تلك الفجوة وسط النيران المشتعلة حدث شيءٌ كان في منتهى الرعب بالنسبة لنا.. في منتهى الصدمة، لقد وقفنا جميعنا في قمة الذهول الذي لا يوصف وكأننا نشاهد فيلمًا فانتازي.

لقد ظهر من تلك الفجوة من الناحية العليا رأس تنين آخر! تنين ضخم للغاية! فيبدو من رأسه التي لم تظهر سواها من بقية جسمه من تلك الفجوة الكبيرة أن ذلك التنين يفوق حجم التنين الذي بالأسفل ثلاث أضعاف حجمه.

لقد انقض على عنق التنين الحارق السفلي بأسنانه الحادة الشرسة، وانغرزت أنيابه في عنق الأخير، ثم سحب التنين الضخم التنين الآخر إلى الأعلى فإن الأخير من آلمه، وبعد ذلك أخرجه إلى الأعلى حتى تملك من عنقه وقضمه قضمةً واحدةً فانقسم التنين الصغير إلى قسمين: القسم الأول هو الجزء العلوي من التنين الذي ما زال بين فكيّ التنين الكبير، والقسم الآخر هو بقية جسم التنين الذي سقط من بين فكيّه إلى الأسفل ومنها عبر الفجوة؛ فسقط تحت الأرض، على أرض المدينة الوسطى.

كان ذلك في منتهى الرعب للجميع، ولكن كان بالنسبة لي في منتهى السعادة؛ لأن ما حدث ذلك مهما كان غريبًا ومخيفًا إلا أن ذلك الحدث هو الوحيد الذي استطاع أن يكبح قواي

المدمرة من أن تنطلق، قد منع ذلك التنين الضخم الدمار الذي كان سيعم على مدينة نوح بأكملها.

ركضنا جميعًا إلى هناك، يصوّب الجميع أنظاره إلى الأعلى نحو الفجوة، كنتُ في مقدمتهم، ورأينا بالأعلى عبر هذه الفجوة ذلك التنين الضخم الذي كان أكبر تنين رأيته؛ فقلتُ لكل مَن كان بجواري خالي، نوح، ماجد، وحيد:

- لم أرَ هذا التنين من قبل.

نظر نحوي خالي في توجس وتساؤل:

- ماذا تقصد؟

أجبته بل أجبت على تساؤلات الجميع هنا في عمق:

- أقصد أن هذا التنين ليس من السبعة تنانين التي اخترقت عالمنا.

رفعنا أنظارنا جميعًا إلى الأعلى فرأيناه يرفرف بأجنحته متعلقًا بالجو دون أن يهجم علينا، وكأن هذا التنين أتى خصيصًا لإنقاذنا، ولكن ما رأيناه بعد التدقيق كان غير متوقعٍ إطلاقًا.

ما رأيناه جعلنا نشعر بالذهول والمفاجأة.

مفاجأة كانت بمثابة الحدث الأعظم الذي حدث من بعد حربنا ضد الآليين.

ما رأيناه جعلنا جميعًا نتساءل "كيف ذلك؟!"

فيبدو مما رأيناه أن هناك مَن يمتطيه.

نعم، هناك مَن يمتطيه.

جحظت عيوننا جميعًا حتى التف التنين إلى الجانب الآخر يعلن لنا ذلك الشخص راكب التنين نفسه.

لقد كانت سارة على ظهر هذا التنين الضخم!!

* * *

ترجلت سارة من التنين وذهب نوح نحوها إلى الأعلى بمركبته لكي يقلها، فأتى بها إلى الأسفل.

كانت السعادة تغمرنا جميعًا؛ لقد عادت من ذهبتُ لأجلها إلى الغرب العلوي كي أعيدها وصديقتها، لقد عادت ولا نعرف كيف؟ ومتى؟ وماذا حدث لها؟ والأهم من كل ذلك كيف تركب تنينًا وتتحكم به؟!

لا أستطيع أن أوصف كم الشوْق إليها، لقد ضممتها بين أحضاني بل اعتصرتها من كثرة شوْقي لها.

يسألها الجميع عن كل هذه التساؤلات التي سيسألها أي شخصٍ بعدما رأى ما رأى خالي، وماجد، ونوح، وأخيرًا وحيد الذي أعرب عن شوْقه لها بدموعه التي نزلت من عينيه قائلًا لها:

- ها قد عدتِ.. لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا.

دلفنا إلى الداخل وحكت لنا كل ما حدث لها منذ أن سافر بها نوح إلى الغرب بحثًا عن آلة زمن حتى وقتنا هذا، متضمنًا

قذفها إلى كونٍ آخر به حكاية ذلك الشعب الغريب، والشمس الغائبة، واللغة الإنجليزية الحديثة في زمن قبل الميلاد، وافتراضها أن سفرها عبر الزمن نتج عنه تخبطاتٍ في الخط الزمني وتغيير التاريخ ليصبح ليس كما يجب، والضوء الأزرق الذي اختفى الذي كان بمثابة بوابة الزمن تنقل الأجسام، وتحكمها في التنين حين خاطرت بحياتها لتنقذ البقية، ومغادرة المكان هناك وحدها أولًا؛ كي تجرب ذلك الضوء الأزرق تاركةً خلفها دينا حتى تضمن أن السفر بتلك الطريقة لا تؤذي أحدًا، فكان يجب أن يكون هناك كبش فداء قبل أن تدخل دينا البوابة، وقررت أن تكون هي الكبش.

ثم جال في رأسي سؤالٌ:

- كيف استخدمتِ تلك البوابة لتنقلك إلى هنا؟

أجابتني سارة:

- لقد فُتِحَت منذ ثلاثة أيامٍ، ولكن لم أفعل شيئًا لقد دخلت الضوء الأزرق ثم نقلني إلى مكانٍ وسط البحر به بداخل الكهف.

ثم تذكرتُ حالي حين استخدمتها منذ ثلاثة أيامٍ فجال في رأسي سؤالٌ آخر:

- ما الذي كنتِ تفكرين به حين كنتِ وسط الضوء الأزرق؟

قالت:

- فكرتُ فيكم.. في عالمي هذا.. في العالم العلوي الذي من

المفترض أن نكون فيه الآن.

وهنا تأكدتُ من شكي وأخبرتها:

- إن هذه البوابة تنقل الأجسام عن طريق التخاطر العقلي، ولقد فُتِحَت بوابة أخرى في العالم الآخر الذي كنتُ به منذ ثلاثة أيامٍ بعد أن أُغلِقَت الأولى؛ لأنني استخدمتُ خاصتنا في ذلك الحين بذات الطريقة.. فكرتُ في أرض الظلام.

سارة:

- هذا يؤكد أيضًا ما حاولا أن يخبراني به طلعت وناهد والديّ دينا حين آتيا إلى ذلك الكون الآخر، وسألتهما كيف تم نقلهما فأخبراني أنهما لا يفعلان شيئًا سوى أنهما دخلا الضوء الأزرق وكان تفكيرهما في دينا.

وهنا جحظت جميع العيون؛ فلاحظت سارة ذلك وتساءلت عن سبب ما جعلنا مذهولين لهذ الدرجة، فأخبرتها:

- إننا ظننا أن والديّ دينا ماتا؛ لأننا وجدنا عظامًا محروقة لبعض الأشخاص عند البوابة التي بداخل الكهف عمرها تقريبًا عام ونصف.

ثم لاحظت سارة تحاول أن تتذكر شيئًا؛ فأجابت:

- هذا يجيب على تساؤلي حين أخبراني أن كان هناك بعض الأشخاص الذين كانوا معهما لكنها رفضوا اتبعاهما، الآن علمتُ أنهم تم حرقهم بنيران التنانين.

قلت:

- وهذ أيضًا يجيب على سؤالي عن وجود السفينة عند تلك الجزيرة التي يوجد بها الكهف.

سارة:

- لكن لم أجد تنانين في ذلك الكهف، لم أجدى سوى بيضاتهم التي أوشكت على الفقس.

هناك نظر نحوي خالي وقال:

- يجب أن نعمل بسرعة.

انعقد حاجبيّ سارة وتساءلت عما نتحدث فيه، فأخبرناها عن كل شيءٍ حدث منذ عامٍ ونصف حتى وقتنا هذا متضمنًا ذلك ذهابي ونوح إلى الغرب؛ بحثًا عن آلة زمنٍ أخرى لكي نذهب إليهما في ذلك العام الأسود، وقتلي لتنينٍ بالغرب، ثم انقسام سكان أرض الظلام مرةً أخرى، وحبس المنفيين مرةً أخرى، وسجن أيوب ثم إطلاق سراحه، ووجود جماعة القراصنة وما حدث معها متعاونين مع مريم التي أصبحت زوجتي، ثم تغيّر حالها مع الوقت وتحولت إلى آلةٍ تحت تأثير السحر الأسود الشرير وما فعلته منذ ثلاثة أيامٍ، وحوزة أيوب لابني. واتفاقي مع شهاب الذي كان سجينًا لدينا أن أقتل له التنانين بقوتي مقابل أن نأخذ مدينةً كبيرةً بالأعلى تسعى جميع سكان أرض الظلام بعيدةً عنهم، ونتقاسم سويًا العالم العلوي.

لقد تملكها الذهول ثم شعرت بسعادةٍ حين علمت أنني لديّ ابن، وطالبت قائلةً:

- يجب أن تعيد زوجتك قبل يأخذها السحر ولن يبقى فيها شيء.

قلت لها:

- أعمل على ذلك.

وهنا وُضِعَت جميع النقاط على الحروف، واكتملت جميع قطع البازل، وأصبحنا على علمٍ بكل شيءٍ كُنا نتساءل حوله بدءًا من المفقودين، مرورًا بالضوء الأزرق في ذلك الكهف، ثم إلى أهم سؤالٍ تساءلناه في داخلنا كثيرًا وهو ما سبب وجود التنانين في عالمنا؟

ولكن واجهتنا تساؤلات أخرى، ومنها ما سألتُ بها أختي للتو:

- لماذا استغرقتِ ثلاثة أيامٍ حتى وصولك إلى هنا، أليست البوابة فُتِحَت في ذلك الوقت؟

أجابتني:

- لقد فُتِحَت منذ ثلاثة أيامٍ لكن لم أستخدمتها في ذلك الوقت، لقد استخدمتها اليوم التالي لها واستغرقتُ يومًا آخر هنا؛ هذا لأنني لم تقذفني البوابة قريبًا من هنا، كما أن التنين استغرق وقتًا حتى يستوعب عالمه الجديد الذي به شمس ليست موجودة بالعالم الآخر.

ثم لاحظتُ أنها ضيّقت جفنيّ عينيها كأنها تستحضر من ذكرياتها شيئًا ما، فقالت في تساؤل:

- هل تجمع قوة الآليين بالأعلى ضمن اتفاقك مع شهاب؟

حملقتُ بها وقلتُ في استنكارٍ شديدٍ:

- تجمع؟

أجابت سارة:

- نعم، إنهم بالآلاف بالأعلى، لقد مررتُ فوقهم على ظهر التنين.

نهضتُ في مكاني في توجس كما فعل ذلك خالي، ووحيد، وماجد، وأيضًا نوح فقال خالي:

- يجب أن يكون عددهم بالعشرات.

وبعد تفكيرٍ عميقٍ قلتُ في ذعرٍ:

- يبدو أننا سنواجه حربًا أخرى.

***

الفصل الثالث

حرب التنانين

علاقات

- لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا.

قلتها لأختي التي تقف أمامي ويملأ عينيها الحنين، في إحدى حجرات مسكن نوح، فأجابت:

- لا تعلم كم أردتُ أن أعود إليكم.

نظرت لها في أسفٍ قاتل وقلت لها:

- إنني آسف؛ آسف على كوني السبب في ذهابك في مهمةٍ خطيرة مثل هذه، لقد طلبتُ منكِ ذلك رغم معرفتي بخطورة وعواقب هذا السفر.

قالت سارة:

- لا تقل ذلك، لم تفكر حينها بشكلٍ أناني؛ لقد اخترت حينها أن تتحمل مسئولية الحفاظ على الجنس البشري وحدك، لقد فعلت ما لم يفعله أحد من قبلك؛ لقد عرضت حياتك للخطر أيضًا، ثم إنني ها هنا وليس هناك شيء يجعلك نادمًا على ذلك.

أجبتها:

- لكن ماذا لو لم أكتشف ذلك الكهف؟ ماذا لو لم أخاطر وأدخل بداخل الضوء الأزرق؟ ماذا لو لم أسافر إلى الغرب بحثًا عنك؟ هل كنتِ ستظلين في الجانب الآخر بقية حياتك؟

قالت سارة ما لم يكن في حسباني، فأزاحت في قولها الغم

الذي أتحمله منذ جعلتها تسافر عبر الزمن، لقد قالت لي:

- وهذا يعني أنك كنتَ السبب أيضًا في عودتي، لقد كنتَ السبب في فتح البوابة مرةً أخرى في الكون الآخر، لقد كنتَ السبب وليس غيرك في انتشالي من هناك، فلولا ذلك لكنتُ بقيتُ هناك للأبد مع دينا ووالديها وذلك الشعب المجنون.

قلت لها:

- كما كنتِ السبب في إنقاذ الجميع هنا، لولا وصولك في الوقت المناسب لتدمرت المدينة بأكملها بسبب قوتي، إنها كانت الأولى التي لم أستطع أن أتحكم بها.

فأجابت متحايلة:

- سأعيد القول لكَ لولاكَ ما كنتُ وصلت في هذا الوقت المناسب من البداية.

ثم تذكرتُ شيئًا فيما أخبرتنا به في الكون الآخر ووصفها له بما رأته هناك، فجال في عقلي سؤالٌ:

- هل تعتقدين أن اللا منطق الذي عشتِه هناك كان هو المنطق بعينه لهم، أي أن هذه الحياة في كونٍ آخر ليس من الضروري أن تكون شبه حياتنا التي نعيشها هنا.

سارة:

- إنني أعرف حقًا تعدد الأكوان، وأعلم تمامًا -على سبيل المثال- النسخة منك هنا في هذا الكون التي تريد أن تعود للعالم العلوي بجميع البشر ليس من الضرورة أن تكون كذلك

في كونٍ آخر، بل من المحتمل أن تكون نسخةً شريرةً في كونٍ آخر مثل أيوب في كوننا، أو قد تكون شخصًا ليس له دور في أي شيءٍ في كونٍ ثالث، أو حتى قد تكون آليًا في كونٍ رابع، لكنني لم أقابل نسخًا منا في ذلك الكون.

أجبتها:

- لا تنسين أنك كنتِ في مكانٍ محدود، ولم تقابلي سوى شعبٍ واحدٍ في كونٍ شاسع، ما أريد أن أقوله هو أن من الممكن أن يكون كذلك حقًا.

سارة بعد تفكيرٍ عميقٍ ثم أجفلت كأن جاء في فكرها شيءٌ عظيمٌ:

- ماذا لو كان هناك ولو جزءٌ بسيطٌ في ذلك الكون افتراضي؟ مَن تعتقد أن يكون وراء ذلك؟

أجبتها:

- ذلك السؤال مِن ضمن تساؤلاتي الجديدة التي سألتها في نفسي؛ ولذلك سيبقى هذا السؤال قائمًا حتى يحين وقت إجابته.

ابتسمت لي فبادلتها ذلك وسألتها سؤالًا غيّر مسار هذا الحوار:

- هل تزداد قوتنا بتحكمك في التنين في مواجهة الآليين مرةً أخرى؟

قالت:

- ربما بدلتُ واحدة بأخرى، مع أننا بحاجةٍ إلى الاثنين بجانب قوتك.

وهناك فهمتُ ما تقصده؛ فشعرتُ بالحزن على عدم وجود مريم في وسطنا، وقبل أن يتغيّر مسار حوارنا لشيءٍ آخر نحن لسنا على استعدادٍ له قلت لها:

- لا زالتُ أتساءل عن تحكمك بالتنين أو عدم هياجه عليكِ حينما لمسته.

زمّت بشفتيها ثم قالت بعد تفكيرٍ:

- من الوارد أن السبب هو التخاطر العقلي الذي استنتجته، ربما حين لمسته وبسبب اكتسابي طاقة الضوء الأزرق الذي يفتح بوابة تصل بالعالمين وعبرتُ من خلاله، فاستقبل التنين بدوره ذلك ولربما شم فيَّ أو شعر نحوي بشيءٍ مألوف له.

ثم قطع حوارنا حين جاء إلينا وحيد وبرفقته ماجد قطعا ذلك الحديث، فنظرتُ نحو وحيد وسبقته بقولي الساخر المعتاد الذي مرَّ عليه الكثير من الوقت:

- يجب أن تعيد النظر في هذا الشارب الذي بوسط وجهك حتى يلين قلبها لكَ.

ضحكت سارة تلك الضحكة التي سحرت كيان وحيد؛ فنظر الأخير نحوي وقال:

- إنني على استعدادٍ للتضحية بعمري مقابل أن يلين قلبها.

قلت له في سخريةٍ:

- وماذا ستفعل هي حينها أيها الأحمق؟

وقبل أن يجيب شيئًا تركته برفقتها وهي كاتمة ضحكتها الثانية وتوجهتُ نحو الخارج لمقابلة ماجد، وقبل أن أغادر قلت لهما:

- لا تتأخرا لكي نحضر دفن موتانا.

* * *

- مبروك عليكَ عودة أختك.

قالها لي ماجد كأنه يوجد في عينيه شيئًا آخر، فأجبته:

- مبارك عودة خطيبتك قريبًا.

تنفس ماجد الصعداء وقال:

- لم أعد أطيق الانتظار يا رجل، أكثر من ذلك.

دنوت نحوه وربَّتُ على كتفه وقلت له:

- ستعود يا صديقي، لقد علمنا أنها موجودة هناك في انتظار عودة سارة لها لتأتي بهم جميعًا.

فقال:

- إنني أتوق شوقًا لها، لقد تواعدنا أن نضع حبنا في حاويةٍ ثم نغلقها للحفاظ عليه حتى يأتي مَن يتغنون بحبنا، لكن يتطلب هذا الأمر نحن الاثنان، لقد كان وعدنا أن نكون معًا، ليس على أحدٍ أن يغلق هذه الحاوية وحده.

وهنا نزلت الدموع من عينيه بطريقةٍ لا إرادية؛ فوضعت

يدي الأخرى خلف رأسه وضممتها نحو صدري لأبث فيه الأمل من جديد، وقلت له هامسًا في أذنه:

- سأحلق لها، سأعبر الأكوان من أجلها.

نظر في عينيّ كأنه يبحث عن إجاباتٍ لتساؤلاتٍ أخرى في جُعبته، فسألني:

- لم أكن أتخيل أبدًا أن يكون هناك أكثر من كون، إنني أسمع عنه فقط لكن لم أتصور يومًا، كما أنني لم أستطع أن أصدق أن حبيبتي موجودة هناك في جانب آخر من بين جوانب كثيرة للأكوان! أتساءل عن كيف قضت أيامها هناك؟

أتساءل عن غربة الشخص عن وطنه؟ ولكن في هذه الحالة يكون الأمل أكثر اشتياقًا وألمًا؛ ففي هذه الحالة أتساءل عن غربة الشخص عن كونه؟

ضممتُ قبضتي على كتفه الذي لا زلتُ أمكسه وقلت له:

- أشعر بما داخلك يا صديقي، فجميعنا كان الفراق له النصيب الأكبر في حظنا.

نظر في عينيّ ذات النظرة التي تحمل سؤالًا آخر، لكن هذه المرة يبدو أنه لا يستطيع أن يوجه سؤاله لي؛ ففهمت ذلك وأخبرته:

- أعطها وقتها ثم ستذهب دون أن نحثها على ذلك، لكنهما بحاجةٍ أن يتحدثا سويًا قبل كل شيء؛ فالعلاقة بينهما متوترة منذ عامٍ ونصف، ولم يريا بعضهما خلال هذه الفترة،

إنهما في أمس الحاجة لذلك الآن.

قال ماجد يهز رأسه:

- أتفهم ذلك.. وليس لديَّ الحق أن أجعلها تعجل من مغادرتها.

ابتسمتُ له وأخبرته:

- إننا أخوة ليس بالولادة، ومعًا سنتخطى كل الصعاب.

قال:

- شكرًا لكَ، شكرًا على كل ما قدمته لنا.

قطعتُ ما يتفوه به ونهرته:

- لا تقل ذلك، ليس هناك مثل هذه الأشياء بيننا، ثم أن دينا أيضًا قدمت من عمرها عامًا ونصف لنا؛ الجميع هنا يضحي ويقدم، وأملي هو ليس أن ننهش في بعضنا من أجل البقاء كما هو الواقع، أملي هو أن يتحد كل الجنس البشري معًا ضد أي عدوٍ يهدد بقاءنا.

ماجد:

- يومًا ما سيحدث ذلك، يومًا ما سنتحد جميعًا.

نظرتُ له في نظرةٍ ثاقبةٍ بعيدة المدى وقلت وكأنني أحدث نفسي ليس هو:

- يتطلب الأمر عدوًا فتّاكًا يدمر الجميع؛ كي نتحد معًا لمواجهته.

قبل أن أتركه أخبرته:

- سأحتاج أن أتحدث مع خالي قبل أن نتجمع لنكرم موتانا.

غادرته وشرعتُ أبحث عن خالي حتى وجدته.

- ها قد عدتِ.

قالها وحيد لسارة التي لا زالت لا تنظر نحوه، فقبل أن تقول هي شيئًا أردف:

- لماذا تصرين على تجاهلك لي؟

أحادت بنظرها هذه المرة وقالت له في حسم:

- إنني لا أتجاهلك، إنني أحميك فقط.

غضب وحيد وقال صارخًا:

- إن كان حبك لي هو العدو الذي تحميني منه؛ فأنا أريد أن أموت قتيلًا من أجله.

لقد زاد الأمر صعوبةً بالنسبة لسارة، وحاولت أن تمسك نفسها فأضاف هو:

- أعلم أنك تتمتعين بشخصيةٍ قوية؛ ربما أنا مثلك في هذا الأمر، لكن ما اختلف عنكِ فيه هو أنني أحب البوْح بما بداخلي، لا أحاول أن أخفيه.

قالت سارة بعد أن أخذت نفسًا في صدرها:

- لكني سأعود إلى هناك مرةً أخرى.

فردَّ وحيد:

- وستعودين إلى هنا مرةً ثالثةً هذا ما تفعلينه دومًا.

سارة:

- لا أستطيع أن أضمن لكَ ذلك.

قال وحيد:

- أراهن إنكِ قلتِ نفس الشيء لصديقتك دينا قبل مجيئك إلى هنا.

لم تستطع سارة أن تمنع ابتسامتها حين سمعت قوله، فأضاف:

- كما أنكِ أخبرتِني مثل هذا قبل سفرك عبر الزمن، وها أنتِ تعودين على ظهر تنينٍ عظيم، يا لكِ من قادرة!

دنت نحوه سارة وقالت:

- اسمع، لا أنكر حبي لكَ، لكن في هذا الوقت مع هذه الأجواء فلا مكان للحب، الجميع هنا يحارب من أجل البقاء.

أجاب وحيد:

- وهل تعتقدين أن الحب غير كفءٍ لأن يحارب المرء من أجله بهدف البقاء؟

سارة:

- بالقطع لا، الحب قادر أن يفعل أكثر من ذلك، لكن ما أريد أن أقوله لكَ أن لكل شيءٍ وقتًا. لا معنى للحب دون وجود مَن

يحارب من أجله، وبدون السعي وراء البقاء فلن يكون هناك أحد يعيش ذلك الحب،

البقاء أولًا ثم يأتي الحب.

قال وحيد مستسلمًا:

- لطالما لم أستطع أن أكبح كبرياءك الجامح، لن أقدر على مجادلتك يومًا، دومًا تخلقين أسبابًا منطقيةً من لا شيء حتى تكوني مُقنعة.

ابتسمت سارة له فأضاف هو متسائل:

- أتساءل عن اليوم الذي سينتهي فيه ذلك؟

أجابت سارة:

- لا أستطيع أن أجزم لكَ ذلك، لكن ما أضمنه لكَ أن حبنا لن ينتهي.

وحيد:

- سأقولها لكِ مجددًا: سأظل أحبك حتى آخِر أنفاسي، ولكن ما سأقوله لكِ الآن هو أن لا بد من وجود دافع قوي يحركنا ويجعلنا نحارب من أجل البقاء، وليس سوى الحب هو ذلك الدافع؛ الحب هو من يثير غرائزنا وبه نتخطى أصعب الصعاب.

ما أريد قوله: الحب هو الذي يكون في المقدمة دومًا، هو المحرك الرئيس الذي من بعده تأتي بقية الأسباب.

ابتسمت له وكأنها تعلم بداخلها أن ما يقوله هو المنطق بعينه؛ فأجابت بكبرياء ذلك الكبرياء الذي كان سببًا في وقوع وحيد في حبها:

- لطالما يؤمن المرء بشيءٍ كان له بمثابة الملاذ في أحلك أوقاته.

ثم أردفت:

- وربما كان ذلك سببًا من الأسباب التي جعلتني أقع في حبك، إنه اعتقادك الراسخ.

ابتسم هو هذه المرة وقال لها في استسلام:

- ولطالما استسلمتُ لكِ في النهاية، وعند هذه النقطة سأقول لكِ هيَّا بنا لنكرم موتانا إنهم ينتظرونا.

***

- ماذا بعد؟

سأله خالي وهو متوجس مما يحدث حوله، فأجبته:

- هل تعتقد أنهم يتجمعون لشن حربٍ علينا، أم لمواجهة قوة التنانين معنا.

قال خالي تلك الإجابة التي لم أكن أريد أن أسمعها:

- في كلتا الحالتين حرب.

فتساءلتُ:

- إنني أخشى خيانتهم لنا، هل تعتقد أنهم يعرفون معنى

الخيانة؟

نظر خالي نحوي وقال في ثقةٍ:

- إنهم تعاملوا مع البشر لوقتٍ يكفيهم أن يتعلموا فيه معنى الخيانة، ثم سيأخذون أيوب كمثالٍ حين تحالف معهم منذ سنةٍ ونصف.

قلت:

- ومثال آخر حين تحالف شهاب معنا وضرب بتحالفه مع أيوب مرةً أخرى عرض الحائط.

تساءل خالي:

- إذن؟

أجبته:

- سيتحالفون معنا أولًا لقتل التنانين؛ إن في ذلك مصلحة مهمة لهم، إنهم يتجمعون للظفر بالعالم العلوي مرةً أخرى، وتحالفهم معنا سيساعدهم في ذلك.

ولكن بعد أن يحدث ذلك أشك في إتمام تنفيذ دورهم معنا في الاتفاق؛ سينقلبون علينا ولن يعطونا حقنا في العالم العلوي بل سيمحونا، وذلك بالضبط سبب تناسخ الروبوتات المفككة مرةً أخرى لإعادتها للحياة مرة أخرى.

وهذا بالضبط ما كنتُ أخفيه عنكم.. هو خيانتهم، أردتُ أن يتعاملوا مع الموقف بالأعلى بحرية كي لا نضيق عليهم الخيّة، أردتُ أن أرى ما في جُعبتهم، لم أكن أريد حينها أن

أثير قلقكم، ولكن بعد ما رأته سارة وحكته لنا.. لم يعد سرًا لأخفيه.

نظر خالي في عينيّ نظرةً ثاقبةً وقال متسائلًا:

- ماذا لو أتموا دورهم في الاتفاق؟ ماذا لو صعدنا للعالم العلوي وعشنا به؟ ماذا لو حدث كل شيءٍ كما يجب أن يكون؟

قلت:

- حينها سنترك مدن أرض الظلام التي تقاسمنا من أجلها أعوامًا مديدة وكان آخرها منذ بضعة أيام، حين تحولت هذه المدينة إلى مدينة الضباب والدم.

سأل خالي:

- هكذا بكل بساطة! هل سنترك كل شيءٍ هكذا؟!

قلت بعد تفكيرٍ وأحدثُ بنظري بعيدًا نحو أرض الظلام:

- لطالما عشتُ حياتي أريد أن أستعيد العالم العلوي الذي من حقنا، فكم أردتُ ذلك بداخلي أن أعيش بعالم به شمس، ولكن ورغم ذلك إلا أن الفكرة في مغادرة هذا المكان مؤلم؛ لقد عشنا به، كبرنا فيه، إنه مكان يحمل كل ذكرياتنا، لقد كان ملجأنا في الصعاب، لقد حمتنا أرض الظلام من الانقراض الذي فرضه علينا الآليون، لقد حمتنا أيضًا من نيران التنين.

لقد دافعنا عنها رغم كل ذلك، لقد أوتنا وحمتنا ودافعنا عنها وحافظنا عليها، لقد نمت بيننا وأرض الظلام هذه علاقة.. علاقة صعب يفهمها الجميع، إنني أفكر في ذلك بداخلي

تناقض؛ أريد أن أعيش وجميع البشر بعالم كان حقنا منذ البداية، كما أنني لا أستطيع تحمل الوداع الذي سنفعله حين يحدث كل ذلك.

سنودع أرض الظلام.. سيحدث ذلك الفراق، كم آمنتُ بأن العلاقات لا تكون بين البشر فقط؛ لقد نمت علاقة بيننا والمرتدين وأصبح نوح صديقي.

لقد زُرِعَت بداخلنا علاقة أخرى تربطنا بأرض الظلام التي كانت بمثابة الحصن المنيع لنا. كم هذا صعب!

ثم نظرتُ إلى خالي ووجدته متأثرًا بما قلته، فسألته:

- ماذا؟

أجابني:

- تأثرتُ بكل كلمةٍ سمعتها منك، معك حق في كل شيءٍ، كم هذا صعب!

ثم جاء من قطع حوارنا كالعادة إنه وحيد ومعه ماجد وخلفهما سارة، ثم انتظرنا نوح حتى أتى؛ فقلت لخالي:

- حان وقت تكريم موتانا، ستتذكرهم أرض الظلام دومًا، وسنتذكر دماءهم التي هُدِرَت من أجل البقاء.

***

وفي وقفةٍ مؤلمةٍ كان الجميع فيه حزينًا واقفًا عند حدود المدينة، نكرم جميعنا موتانا الذين احترقوا، لا يوجد سوى العظم المحروق، أو الفولاذ الأسود إثر اشتعال النيران به، لقد

جمعناهم معًا وتم دفنهم بسلام.

لقد كان المشهد مؤثرًا جدًا، لم يستطيع أحدٌ أن يتحمل جمعنا لعظام هؤلاء مَن ليس لهم ذنب في أي شيءٍ يحدث، سواء كانوا بشرًا أو مرتدين.

***

ذكريات

- لقد خانني أخي.

قالها فارس موجهًا إياها لأيوب، فقال الأخير:

- هنا يحارب الجميع من أجل البقاء، ولكن كل أحدٍ بطريقته التي يراها هي الصحيحة، وأخوك اختار طريقًا آخر.

قال فارس:

- لكننا في البداية، لقد اخترنا سويًا الطريق الخطأ حين اعتقدنا أن مريم ستكون مكسبًا كبيرًا في صفنا.

أوقفه أيوب كأنه انتبه لشيءٍ في ذات الأهمية، وقال:

- بل كان معكما حق، إنها فعلًا مكسب لأي أحد، إنها تتمتع بسحرها الخاص، ولولاها ما كنتَ تستطيع أن تفعل ما فعلته هناك.

وهي الوحيدة التي تعتبر ندًّا لآدم.. عدونا الرئيس، حتى لو كانت قوتها لا تضاهي قوته لكنها الأقوى من بعده، كيف لم تخطر في بالي.

كان صالح لا يزال موجودًا ويستمع لهذا الحوار؛ فاندهش حين سمع ذلك وقال:

- لكنها قالت أنها ليست حليفةً لأحد، وكانت تقول أشياءً غير مفهومة مثل أنها تتبع قوى الظلام أو قوى الشر، لا أعرف بالضبط ما قالته، لكن ما أعرفه حقًا أنها مخبولة ومجنونة

بسحرها، فلا تنسى أنها جنوبية مجنونة.

قال أيوب موجهًا كلامه للاثنين:

- لا أحد يستطيع مقاومة آدم سوى الجنون، لسنا مهتمين بما تؤمن به، لكنها بمثابة حليفٍ قوي لنا، فيجب أن نجعلها تؤمن بأننا نصدق قضيتها وسنساعدها في مسعاها مقابل مساعدتها لنا.

هنا فهم صالح ما يريده أيوب، وابتسم له وقال له:

- سأسترد مدينتي مرةً أخرى تحت قيادتك، وستسترد أنتَ مدينتيك وسنترك الجنوب للجنون مقابل مساعدة مريم لنا.

فتساءل فارس:

- وماذا عني؟

قال أيوب:

- إنك لست منا، وما كنتَ تريده من البداية فهو ملكي، ولكن مقابل خدماتك لنا ومساعدتك في ضم مواليك من القراصنة لقضيتي سيكون لكَ نصيبك، وسأعينك اليد اليمنى لي في الأمور الخاصة بالمدينتين.

أليس ما كنتَ تريده من البداية هو مكانٌ مرموقٌ لكَ هنا؟

أومأ فارس وبدا أنه بدأ يتنازل عن عجرفته قليلًا أمام الأقوى منه؛ فشعر نفسه الطرف الأضعف بالإضافة إلى ترك أخيه له مع نصف قوة القراصنة.

ثم نهض أيوب من مكانه وقال:

- حان وقت التحالف مع الجنوب الآن؛ فهم لن يتركوا قائدتهم، وسيتبعونها أينما كانت.

تساءل صالح قائلًا:

- لكن ألن تكون في نظرها خاطفًا طفلها؟

نظر له أيوب في ابتسامةٍ توحي بالتفاخر والانتصار كأنه يضع في حسبانه شيئًا مهمًا مثل هذا.

* * *

ذهب أيوب إلى مدينة الجنوب، واختار الطريق الأقصر بين المدن مارًا بمدينة المتهورين مستخدمًا إحدى مركبات الآليين التي أخذها من مدينة المتهورين، وهرب بها حين أنقذه صالح من أيدي آدم.

استغل انشغال الجميع بتكريم الموتى ودفنهم وتسلل وسطهم برفقة فارس، الذي يحمل بيد يديه لفافةً بيضاء بها شيء ثمين سيقايضه معها لتقدم المساعدة له.

وصل المدينة، وجد الجنوبين ينتظرون بالمرصاد أي دخيلٍ عليهم كما أوصتهم قائدتهم، وبسبب أنه دخل المرة السابقة هذه المدينة ليقاتلهم لم يكن الأمر سهلًا عليه، ولكن أوضح لهم أيوب أنه لا يشكل تهديدًا بالنسبة لهم هذه المرة، وأنه يريد التحالف مع قائدتهم.

لقد بلّغوا عنه عند القائدة، وبعد مرور ساعةٍ من وصوله إلى

هناك أتى إليه الرد للسماح له بدخول المدينة ومَن معه؛ فدلفا المدينة برفقة حارس جنوبي حتى أوصلهما إلى مسكن مريم.

دلفا إلى داخل المسكن ينظران حولهما في خوفٍ؛ لا يجدانها، أخذا يناديان عليها ولكن بلا فائدة، ثم رأى أيوب غرفةً يبدو أنها مريبة بعض الشيء؛ فأشار إليها ودخلاها وكان هنا الرعب الحقيقي.

لقد كانت جالسةً في سُباتٍ بعباءتها، تغطي رأسها بغطاء الرأس مخروطي الشكل، لكنها تجعله منسدلًا لآخر وجهها فلا يرانه كل من أيوب وفارس، ولكن الرعب الحقيقي كان في الضباب الأسود الذي يسود الحجرة بأكملها.

بدا عليهما الخوف والرعب؛ فتقهقرا ولكن أوقفهما ذلك الصوت المخيف المرعب قائلًا بحشرجةٍ:

- لا تخافا.. اقتربا.

تبادلا النظرات فيما بينهما يتساءلان عن ذلك الصوت الذي لا يبدو أنه صوتٌ نسائي، فأخذا ينظران حولهما في توتر وخوف، فأردف ذلك الصوت:

- ما المقابل الذي تحضره لي لمساعدتي لكَ أنا وسكان مدينة الجنوب؟

هنا تأكدا أن ذلك الصوت هو نفسه صوت مريم، لكنه ليس على طبيعته في هذا الوقت، ولكن وبسبب علمهما أنهما مدينة الجنون فلم يشغلا بالهما بذلك، بل بأنها عالمة بالسبب الذي

أتى بهما إلى هنا؛ فكيف عرفت أنهما أتيا لها لطلب مساعدتها؟!

فتحدث أيوب بصوتٍ مختلطٍ بالخوف والتحايل:

- إذا كنتِ تعرفين سبب مجيئنا إلى هنا فإذن تعلمي بالمقابل الذي أتيتُ به إليكِ.

ضحكت مريم ضحكةً شريرةً، ثم قالت:

- ولكن ما أتيت به يخصني من البداية، فإذن أين المقابل الذي من المفترض أنه منك لي لمساعدتي لكَ؟

قال أيوب في ذكاءٍ محاولًا أن ينتصر عليها:

- ولكن لم يكن بحوزتك، وما كنتِ سترينه أبدًا لولا احتياجي لكِ في هذه الآونة.

أجابت مريم مصرةً على التغلب عليه في النقاش:

- لكنك سرقته، إنه ليس من حقك من البداية.

فقال أيوب مستسلمًا:

- سأترك لكِ مدينة الجنوب، وستكون لكِ وحدك منفصلة عن باقي المدن الثلاثة.

كررت مريم ضحكتها الشريرة وقالت:

- إنك تعرض لي شيئًا ليس ملكك للمرة الثانية.

أجاب أيوب هذه المرة منتصرًا:

- هناك موالون لي في المدن الثلاثة، وستكون جميع المدن تحت قيادتي، ولأنني لا أريد أن أكون عدوك فستكون مدينتك ليس لها صلة ببقية المدن.

قالت مريم:

- لكن هناك اتفاقًا بين آدم والآليين، وأظن أن جميع سكان أرض الظلام سيريدون الصعود والعيش في عالم به حياة تستحق، وحينها لن تكون هناك أرض ظلام لتقسم في مدنها.

قال أيوب في حزمٍ وقوةٍ:

- سأمنع ذلك، سأخرب على آدم ما سيفعله ولن أجعله يقتل التنانين، وستساعدِني في ذلك.

كنتُ أنوي أن أضغط عليه في ذلك بابنه، وها أنا أتيتُ به إليكِ؛ لقد ضحيتُ بوسيلة الضغط الوحيدة التي كنت أملكها لأواجه بها آدم لأقدمها لكِ مقابل مساعدتك لي. وأعتقد أنكِ تريدين أيضًا أرض الظلام، فما تحت الأرض يساعدك فيما تفعلينه من سحر، وبالأعلى لن يكون مجالًا للسحر الذي تحبينه وتمارسينه.

يبدو أنه راق لها حديث أيوب، فقالت مستسلمة:

- سآخذ منك ابني الذي تعتبره المقابل، ولكن لن أعتبره ذلك؛ فالمقابل الذي أريده منكَ هو مساعدتك أيضًا في مسعاي.. ومسعاي هو أن أوحد مدن أرض الظلام جميعها، وأبقي على البشر تحت الأرض هنا للحفاظ عليهم من شر العالم العلوي، فما يريده أسياد الظلام أن أمنع صعودهم للأعلى؛ فصعودهم

سيؤدي إلى انقراضهم.

نظر أيوب إلى فارس فبادله الأخير ذلك، ويبدو أن الأمر راق لهما وأتى على هواهما، وأن مسعاهم هو مسعاها؛ فقال أيوب:

- إذن، تتلاقى دروبنا هنا.

مريم بصوتها الذي ما زال مخيفًا:

- ولكن سنخلق لنا عدوًا جديدًا غير آدم.. إنهم الآليون، لقد خربنا عليهم كل شيء.

ردَّ أيوب في خبثٍ:

- ستكون مشكلتهم مع آدم الذي لم يفِ بوعده معهم، وبعد ذلك سينشغلون في مواجهة التنانين لكي يضمنوا لأنفسهم حياةً بالأعلى، لن نكون في الصورة.

نهضت مريم من مكانها، فجعل ذلك الخوف يدب في قلبيّ أيوب وفارس، وقالت:

- وحينها لن نكون في مواجهة الآليين، ولن يضطر الآليون لقتلي.

تساءل أيوب في اندهاشٍ:

- قتلك؟

أجابت مريم:

- نعم، إنهم يخططون لقتلي ليضمنوا ألا أخلق لآدم الضباب الذي به يسود الظلام الذي يحتاجه آدم لاستخدام قوته

ضدهم حين يعلم الأخير أنه تم خيانته.

فتساءل هنا فارس في ذات الاندهاش:

- خيانته؟

أجابت مريم في صوتها المرعب:

- نعم، إنهم يخططون لخيانته مجرد أن ينتهي من قتل التنانين، سيقتلون الجميع هنا.

وهنا شهق الاثنان وتملكهما الذهول، ثم تحولت ملامحه إلى ابتسامةٍ ماكرةٍ وقال:

- لماذا لا تخبرينا بذلك من البداية.. إنه بمثابة سبب كافٍ لآدم كي لا يقتل التنانين.

ضحكت مريم ذات الضحكة الساحرة وقالت:

- أريد أن أعرف نوياك أولًا، فلا تنسى أنك كنت في يومٍ من الأيام عدوي.

هنا تساءل فارس متعجبًا:

- ولكن كيف علمتِ كل ذلك؟

ضحكت مريم ضحكتها العالية الشريرة فدوى صداها في الأرجاء، ثم فعلت ما كان بمثابة الإجابة على سؤال فارس؛ لقد كشفت أخيرًا عن وجهها في ابتسامةٍ شريرةٍ وكان هنا الرعب الحقيقي.

لقد أبصرا عينيها يسبح فيهما الظلام!! لم تكن عينان مثل

عينين بشرتين، بل كنقرتين سوداوين يتخللهما الضباب الأسود؛ لقد تحول لون عينيها بالكامل إلى اللون الأسود الحالك المخيف.

خافا وتملكهما الرعب فرجعا إلى الخلف، وقبل أن يغادرا المكان أوقفت مريم أيوب بقولها:

- ضع في حسبانك أنك بذلك ستواجه شخصًا آخر، كنتَ تبحث عنه دومًا.

انعقد حاجبيّ أيوب بعد أن توقف وتساءل:

- أي شخص؟

أجابت مريم ناظرةً نحوه بعينيها المخيفتيْن وقالت:

- مَن كنت تحبها وأردتها زوجةً لكَ في ذات يوم.

هنا جحظت عينا أيوب لآخرها، فإنه سمع للتو ما لم ولن يتوقعه أبدًا، بعد كل هذا الزمن هناك مَن ذكر سيرة تلك الإنسانة الوحيدة التي أحبها بصدق، فقال في اندهاشٍ:

- سارة!!

قالها بالغًا ريقه كأن نطقه لاسمها بعد كل هذه الأعوام فتح الكثير من الذكريات التي كان يدفنها بداخله.

ذكريات لم تكن أبدًا بذكرياتٍ سيئة رغم هروبها منه، لكن حبه لها كان أعظم لينسى فعلتها ويتذكر فقط أيامه معها.

فتساءل فارس:

- مَن سارة؟

انتبه أيوب واستوقف ذكرياته وتساءل:

- هل هي حية ترزق؟

أومأت مريم له فسألها متعجبًا:

- ما علاقتها بذلك؟ لماذا علَيَّ أن أواجه سارة؟

ابتسمت مريم ابتسامةً ماكرةً وقالت في حسمٍ:

- سارة هي أخت آدم.

وهنا كانت الصدمة لأيوب؛ لقد جحظت عيناه لآخرهما، فلم يكن يعرف بذلك الأمر؛ ولذلك لم تعد سارة حينها إلى مدينتها، بل ظلت في الجنوب لتحمي عائلتها ولكي لا يعرف أحدٌ من أهلها فلم يكن يتوقع ذلك أيضًا، وقبل أن يقول أي شيءٍ تحولت ملامح مريم إلى الشدة والعزم، وقالت في قوة:

- لقد انتهى وقتكما.

خرجا الاثنان من المكان إلى الخارج ومنه إلى خارج المدينة؛ ليعودا أدراجهما نحو مدينة المعترضين (مدينة أيوب سابقًا) وكان أثناء طريقهما كان فارس يحدث أيوب ويتساءل عن سارة، ولكن لم ينتبه حتى أيوب له فكان شاردًا متغيب الذهن عقله ليس معه؛ لقد كان يستحضر تلك الذكريات الجميلة التي عاشها مع الإنسانة الوحيدة التي أحبها بصدق، لم يكن يعلم حينها أنها لم تكن تريده وأنها كانت تطيعه

بسبب ألا تتعرض للقتل منه، ومثّلت عليه ذلك حين تحين لها الفرصة للهروب.

لكنه يسامحها فليس بداخل قلبه وفكره الآن سوى أنها الذكرى الوحيدة التي تستحق أن يحارب من أجلها حقًا.

لقد تساءل كيف لم يعرف كل هذا الوقت أنها أخت آدم؟ إنها لم تظهر في تلك الحرب منذ عامٍ ونصف، كيف لم يرها ولا مرة بالشمال في مدينتها؟ كيف لم يجدها حين أخذ يبحث عنها في مدينتها.

لم يكن يعلم أنها قضت أعوامها في الجنوب؛ تلك المدينة التي لم يتجرأ أن يدخلها أحد، فكان آدم أول مَن فعل ذلك، لم يكن يعلم أنها كانت بعيدةً عن أهلها، لم يكن يعلم أنها لم تكن موجودةً أثناء الحرب، وأنها سافرت عبر الزمن للإنقاذ.

كان عقله يسبح في ذكريات خمسة أعوامٍ، حتى بالكاد وصل إلى مدينته برفقة فارس، لقد عادا بنفس الطريقة التي أتيا بها.

* * *

كانت هناك سارة في مكانها على فراشها تفكر، تستعيد هي الأخرى ذكرياتها لكن التي كانت مع وحيد، تذكرت ماضيها وفترة طفولتها التي قضتها معه، وأن الجميع يعلم أنهما يحبان بعضهما منذ الصغر؛ فسارة لوحيد ووحيد لسارة.

كانت تستحضر لعبها معه وركضه خلفها أينما ذهبت، ثم أتت بها ذكرياتها إلى الفترة التي نضجت بها وفقدانها

لوالديها؛ فتذكرت هنا أيوب ومعاملته الطيبة لها فكانت الإنسان الوحيد الذي عامله أيوب بلطفٍ رغم شره وقوته، لكنها كانت تخاف منه ولا تطيقه وكانت تنتظر الفرصة لكي تفلت من قبضته.

***

هناك وحيد في مكانه يتذكر نفس الماضي الذي يجمعه مع قرة عينه، ويخشى وقلبه يقع تحت قدمه إذا غادرت سارة دون رجعة، ولم يكن يقصد مغادرتها المكان لتذهب إلى كونٍ آخر، بل كان يقصد ذهابه هو من قلبها؛ يراها تذهب دون رجعة لقد كان يخشى خسارتها وأنه لا يتحمل أبدًا الحياة دونها.

***

يتذكر ماجد حبيبته دينا، وكم يتوق شوقًا لها ولا يستطيع أن يصبر أكثر من ذلك، فكم يريد أن يذهب إلى سارة ويخبرها أن عليها أن تركب تنينها وتذهب لتعود بروحه التي موجودة وحيدة في عالم آخر، فكانت ذكرياته الجميلة معها بمثابة الحافز الذي يحثه على فعل ذلك.

***

يجلس آدم مع خاله يستكملان حوارهما العظيم السابق عن تركهما لأرض الظلام، وما سيفعلانه مع ذاك التجمع بالأعلى وما مقصده الحقيقي، وأخذ يتساءل آدم كيف سينقذ طفله؟ وكيف يعيد مريم؟ وكيف يتغلب على كل صعابه التي

يواجهها؟ فهو في أصعب اختبارٍ حدث له.

* * *

الآليون

عادت التنانين مرةً أخرى بعد عدة ساعاتٍ فوق المكان الذي يتواجد فيه الآليون بالأعلى عند البحر، فتوزعت قواتهم بين الجدران وخلف المباني نصف المتهدمة، وبعضهم مَن دخل المباني التي ما زالت تحتفظ بعض الشيء بكيانها، توارى الجميع عن أنظار التنانين، وفي خلال ثوانٍ أصبح المكان فارغًا خاليًا من أي شيء؛ فطارت التنانين في السماء على الفراغ، لكنهم يزأرون أكثر وأعلى مما سبق حتى تساءل شهاب الذي كان بداخل أحد المباني والذي كان يراقبهم منذ أيامٍ عن سبب فعلهم لهذا؛ فهم لا يزأرون مثل تلك القوة من قبل. وهنا قالت ريتاج وهي بجواره:

- ألم تخبرنا أن ذلك التنين الضخم الذي جاء من فوقنا وكان ظله مرعب لم تروه من قبل؟

أومأ شهاب، فقالت ريتاج:

- إذن إنهم شيءٌ من اثنين؛ إنهم غاضبون بسبب ذلك التنين الضخم كأنه عدوهم، أو يزأرون فرحين بكبيرهم.

فتساءل شهاب في اندهاشٍ:

- هل أصبحتِ عالمة بالتنانين؟

نظرت ريتاج له وكأنها مبتسمة بافتخارٍ وقالت:

- لقد أخذنا أجزاءً من جسم التنين الذي قتله آدم وخصيصًا الأجزاء الخاصة بالسائل البيولوجي الموجود برأسه، وأجرينا

عليه الدراسات والتجارب بأحدث أجهزتنا، وعلمنا أنه يوجد لغة تواصل بين التنانين، وإنهم يشعرون ويغضبون ويفرحون ويخافون ويبيضون ويتصلون بعضهم ببعض بلغةٍ معينة.

تدخلت يارا لتثبت وجودها بقولها:

- لكن ذلك التنين الذي تراقص ظله على وجوهنا ضخمًا جدًا، ويبدو وكأنني رأيتُ شخصًا يعتليه.

قال شهاب في استنكارٍ وكأنه لا يصدق ما قالته يارا وأن هذا ليس منطقي إطلاقًا:

- ماذا تقولين؟! إن التنانين بمثابة العدو المشترك بيننا والبشريين، وسيكونون سببًا في هذا التحالف.

نظرت ريتاج له نظرةً غاضبةً كأنها تريد منه أن يصحح ما قال، ففهم شهاب ذلك وقال:

- أقصد التحالف المؤقت حتى نتخلص من هذه التنانين.

قالت ريتاج:

- إن فشل هذا التحالف فنحن جاهزون، ولديَّ الخطة (ب) دومًا.

تساءل شهاب في تعجب كأنه يجد أن هناك ما لا يعلم به:

- ما هي الخطة (ب) خاصتك؟

نظرت ريتاج نحو يارا ثم إلى شهاب ورسمت على وجهها ذات الابتسامة كأنها تشعر بالفخر؛ فلاحظ شهاب ذلك وعلم

أن يارا تعلم أيضًا ببعض الأشياء التي لا يعرفها شهاب.

فسأل في هذه اللحظة قائلًا:

- هل هذا أيضًا في وقته؟

أومأت ريتاج وأمرت يارا بجانبها أن تتواصل برامز بالغرب لتكون على علمٍ بكل ما يحدث هناك؛ فعليها أن تطمئن لما وصل له رامز هناك وعليه أن يستعد، فنفذت يارا ذلك.

وهنا سأل شهاب ريتاج وقال:

- كيف سنقتل الساحرة؟ هل نستطيع أن نواجه سحرها؟ إننا لم نواجه سحرًا من قبل، ولقد رأيتِ ما فعلته منذ عامٍ ونصف.

أجابت ريتاج وكأنها خططت لكل شيءٍ قبل مجيئها، وأنها تعلم جيدًا ما تريده:

- ألم أقل لكَ أنني دائمًا أملك الخطة (ب)؟

سأل شهاب بعد أن تنفس الصعداء:

- أهذا أيضًا سأعلم به في وقته؟

نفت ريتاج ذلك وأجابته مباشرةً بنظرةٍ ثاقبةٍ وقالت:

- لديَّ خطة لموتها، وذلك عن طريق تجديد تحالفنا من أيوب.

اندهش شهاب من ذلك وتساءل في استنكارٍ:

- ماذا؟

ريتاج:

- وسنجعل أيوب هو مَن يقتل مريم.

جهّزت سارة حالها لرحلتها القادمة والأخيرة، كان أخوها بجوارها ليودعها، حيث قال لها في ابتسامةٍ:

- يبدو أن الزمن يعيد نفسه.

بادلته سارة الابتسامة دون أن تقول شيئًا، فأردف آدم:

- تسافرين عبر الزمن مرةً أخرى قبل اندلاع حربٍ.

ثم استطرد قبل أن تقول هي شيئًا:

- لكن ستعودين هذه المرة... ستعودين بهم، السفينة لا زالت هناك على مرسى الجزيرة في انتظار عودتكم الرباعية.

فقالت له سائلةً:

- هل تعتقد أنها حربٌ أخرى؟

أجابها:

- لا أستطيع أن أجزم بذلك، وهذا ما يجعل هذه المرة أصعب مما قبلها، فجهلك للأمر يجعله أكثر ضراوةً حتى لو كان هيّنًا، إنما علمك به يجعلك قادرًا حتى لو كان صعب المنال.

سألته:

- إذن، ماذا ستفعل حين يكون الأمر أكثر ضراوةً؟

قال آدم مجيبًا:

- سنأخذ بالاحتياط، ونهيئ أنفسنا كما لو أنها حربٌ أشرس مما قبلها.

فتأملت سارة محدقة في عينيه لتعرف من خلالهما إن كان أخوها حقًا مستعدًا لحربٍ أخرى مباغتةً، فاستطرد قائلًا:

- حسنًا، الأمر هذه المرة مختلف؛ في السابق كُنا مَن بدأنا الهجوم ومَن قررنا الحرب، لكن الآن هم مَن يباغتونا، ونحن هنا نعالج في الانقسامات التي حدثت بين مدن أرض الظلام، ورغم ذلك لا زالت أرض الظلام تعاني من ذلك.

دنت أخته منه وربَّتت على كتفه وقالت:

- سنطلب العون منه وحده.. الذي ليس غيره بقادر على نصرنا ضد أي شرٍ يهدد بقاء خليقته.. الله.

قال آدم في ارتياحٍ:

- بالتأكيد، سنطلب العون مِمَن يمنح العون، الله لن يتركنا.

ثم خرجا الاثنان للخارج لتودع سارة خالها، وحبيبها، وصديقيها ماجد ونوح، فقال لها الأخير:

- سأرافقكِ للأعلى حتى تركبي تنينك.

رفضت سارة اقتراحه وطلبت منه على مسمع الجميع قائلةً:

- ابقَ هنا يحتاجك آدم بجواره، احشد كل قوة المرتدين

وابقَ متهيئًا لأي خيانة.

قال لها نوح:

- آدم صديقي، وهذه عائلتي الثانية بجانب المرتدين.

ابتسمت له سارة لتعبر عن امتنانها، ثم انتهى الحوار وودعت الجميع ورافقها أحد الآليين المرتدين بمركبته للأعلى، وقصدت تنينها الذي كان بانتظارها، فركبتها وبسط التنين جناحيه وارتفع إلى السماء وشق الهواء واتجه حيث قادتها سارة نحو الشرق حيث البحر.. إلى الجزيرة.. حيث الكهف.

كانت تقصد سارة أن تحلق بعيدًا بالتنين عن المكان الذي كان فيه التجمع الآلي حيث رأته المرة السابقة؛ لأنها لمحت سرب التنانين الذي كان موجودًا بعالمها هنا يحلق فوقهم، ولكي تتجنب تلاقي تنينها بتلك التنانين فلا تتوقع ما سيحدث ما إذا كان سيهاجمونه بسبب مكوثهم بهذا العالم فترة تجعلهم ينسون كونهم؟ أم سيتذكرونه؟ فاختارت أن تحلق بعيدًا عن مرمى أنظارهم.

انخفض التنين نحو فتحة الكهف الكبيرة التي كانت تسعه ودلف إلى الداخل وعلى ظهره سارة، واتجه نحو الضوء الأزرق فوقف برهةً من الزمن كما أمرته سارة بطريقةٍ ما يفهمها وأخذت تتأمل ما حولها، وشرعت تفكر في أنها على وشك الانتقال إلى الكون الآخر.

أخذت تتأمل الممرين اللذيْن بجانبيها حيث البيضات

الكثيرة التي تحوي بداخلها صغار التنانين التي أوشكت على الخروج.

ثم أمرت تنينها إلى الولوج داخل الضوء الأزرق الذي يفتح البوابة التي تصل هذا الكون بذاك الكون الآخر، وأغمضت عينيها وأخذت تفكر في صديقتها دينا ووالديها، وذلك الشعب الذي يُسمى الفيوديراتي وكل ما يخص ذلك الكون؛ وذلك لأنها تعلم أن هذه البوابات تعمل من خلال التخاطر العقلي الذي يتصل بذلك الضوء فينقلها نحو ما كان يفكر فيه عقلها.

واختفت سارة بتنينها.

كان بعض الآليين رأوا من بعيدٍ ذلك التنين الضخم حين كان يشق طريقه نحو البحر حاملًا على ظهره سارة، إنهم لديهم نظر وعيون آلية تجعلهم يرون على بعد مسافة أكثر من ثلاثمائة متر.

وحدث ما كانت تخشاه سارة.

حدث ما هو سيجعل الآليين يعيدون التفكير فيما رأوه، ما يؤكد من كون البشر هذه المرة هم الطرف الأضعف.

فما حدث هو أن تمت رؤية سارة هذه المرة راكبة التنين بسبب اختلاف الزاوية التي رأوا بها التنين عن المرة السابقة؛ فالمرة السابقة كان التنين أعلاهم مباشرةً، أما الآن بعيدًا عنهم مما أتيحت لهم الفرصة ليروا مَن فوقه.

وأخذوا يتساءلون فيما بينهم كيف لبشري أن يركب تنينًا كأنه يركب مركبةً من مركباتهم، فركض أحدهم مهرولًا ليبلغ

القادة بما رآه.

* * *

قُطِع الحديث الذي كان يخص قتل أيوب لمريم حين جاءهم أحد الروبوتات إليهم يخبرهم عما رآه، فقالت ريتاج في اندهاشٍ:

- إذن، يارا كان معها حق حين خُيّل لها أنها رأت شخصًا بأعلى التنين.

قالتها ريتاج بعد أن سمعت هذا الخبر الذي آتاها من قبل جنودها؛ فنظرت يارا نحو شهاب الذي اعترض سابقًا قائلًا أن هذا ليس منطق، كانت نظراتها توحي بالتفاخر فلاحظ هو ذلك، ولولا أنه آلي لقيل عنه أنه اغتاظ بداخله.

ثم تساءلت يارا:

- هذا الحدث جلل، وسيغيّر مجرى كل شيء.

قال شهاب مساندًا يارا:

- نعم، إنهم الآن يمتلكون تنينًا، إنهم الطرف الأقوى.

أجابت شهاب بعد تفكيرٍ عميقٍ وبنظرةٍ ثاقبةٍ:

- بل الأضعف إنه تنينٌ واحد فقط، وبقية التنانين لا زالت تطير أعلانا.

نظر شهاب إلى يارا وبادلته الأخيرة ذلك وكأنهما يتعجبان، فتساءل الأول:

- إذن؟

قالت ريتاج دون أن تضيف شيئًا جديدًا كأنها لا تريد أن توضح أكثر مما ستقوله:

- إذن، بقية التنانين ليست في صفهم.

فتساءلت يارا:

- وما الضمان أن التنانين لن تتبع ذلك التنين؟

نظرت لها ريتاج في ابتسامة فخرٍ تعلو وجهها وقالت لها مجيبةً:

- الضمان هو ما يحدث الآن، لو كانت ستتبعه البقية لكانت حلقت معه الآن نحو الشرق، وأيضًا حين أتى لقد جاء وحده دونهم.

ثم صمتت برهةً وأردفت في حسمٍ:

- ذلك التنين وحده.

ثم جاء آخر من الروبوتات؛ كان أحد المستكشفين الذين عيّنهم شهاب أن يأتوه بكل ما هو جديدٍ يحدث في العالم السفلي عند البشر، جاء إليهم قائلًا:

- هناك تنينٌ ضخمٌ قتل تنينًا أصغر كان يهاجم البشر بالعالم السفلي، وذلك التنين الضخم كان يركبه أحدهم.

لم تكن المعلومة جديدة لهم بالنسبة لأمر راكب التنين، ولكن الأمر الجلل هو مهاجمة التنين الضخم للتنين الصغير؛

فتساءلوا لما تهاجم التنانين بعضها البعض؟ فكان الجواب بداخلهم تأكيدًا لما قالته ريتاج منذ قليل أن ذلك التنين الضخم وحده دون الآخرين. حتى قالت ريتاج:

- بما أننا بتنا نعلم بوجود تنينٍ جديدٍ غريبٍ قد أتى، ولأننا نعلم أن آدم ذهب نحو الغرب للبحث عن آلة زمنٍ يسافر بها عبر الزمن لكي يعيد بها أخته وصديقته كما قال لنا المرتدون قبل إعدامنا لهم، وظهور التنانين منذ عامٍ ونصف كان بالتوازي مع الحرب وسفر أخته عبر الزمن؛ فهذا يعني أن هناك حدثًا عبر الزمن تكرر مرةً أخرى، إما أن أحدًا وجد آلة زمنٍ أخرى وسافر، أو مَن كان بالسفر قد عاد.

تساءلت يارا:

- إذن، ماذا سنفعل؟

تبعها شهاب بسؤاله الموجه إلى ريتاج:

- إن كان الأمر كما تقولين فهذا يعني أن من الوارد انضمام بقية التنانين إلى ذلك التنين الآخر.

فأجابته ريتاج:

- من ضمن تحليلنا للسائل المخي للتنين فإن ذاكرته قصيرة المدى، ولن يتذكروا ذلك التنين.

ثم تابعت في حسمٍ وقوةٍ:

- سنكمل ما بدأناه كأنه لم يحدث شيء، ونتمنى أن قصر ذاكرة التنانين يجعلهم يهاجمون ذلك التنين الذي يكون غريبًا

بالنسبة لهم، ولأنهم الأكثر عددًا فليقتلوه ومن ثَمَّ لن يكون هناك تنين لديهم.

تساءل شهاب:

- وبالعودة إلى هذا الحديث كيف سنجعل آدم يقتل التنانين دون مريم التي ستجلب له الظلام؟ أم نجعله يفعلها ليلًا دون وجود الشمس حتى يتمكن من استخدام قوته؟

رسمت ريتاج على وجهها ابتسامةً ماكرةً شريرةً وقالت كأنها رتبت لكل شيءٍ في السابق، وتضع حسبانها لكل شيء وقالت:

- سيفعلها في النهار بناءً على ما أخبرتنا به يا شهاب، في كل ما يخص أرض الظلام سنعقد اتفاقًا جديدًا نضمن به ولاء أيوب لنا، ونخبره أننا سنتولى قتل آدم لأنه يمثل تهديدًا لنا عكسه هو الذي يريد أرض الظلام فقط، وفرض السيطرة على جميع مدنها، ولكن في المقابل يقتل لنا مريم؛ حتى لا تجلب له الظلام سوى لقتل التنانين فقط، وهذا بعد أن نجعلها تجلبه عنوةً ضاغطين عليها بحوزتنا لابنها الرضيع الذي سيجلبه لنا أيوب ليقتل آدم الخمسة تنانين.

وفي هذه الحالة حين يحزن آدم على مريم لن يكون هناك ظلام، فلن يستطيع استخدام قوته ومن ثَمَّ سيسهل علينا قتله.

فقالت يارا:

- لن يتبقى لنا سوى الدافع الذي يجعل آدم يحزن في

البداية ليقتل التنانين.

أجابت ريتاج راسمةً على وجهها شبح ابتسامةٍ شريرة ماكرة:

- سنقتل ابنه.

***

سلاسل الخوف

اجتمعنا نحن الخمسة معًا كالمعتاد عند الخطر ليضعوا خطةً حول ما يحدث؛ أنا، وخالي، ووحيد، وماجد، ونوح كان اجتماعًا كنتُ فيه آدم القديم في بدايته أسمع، أترقب، أسرح، أفكر لطالما كنتُ صامتًا فيغوص عقلي في التفكير والخطط والاستراتيجيات.

سأل ماجد:

- كيف ستسير الخطة؟

أجاب نوح:

- لقد حشدتُ كل قوات المرتدين وهم جاهزون للصعود، وأخبرتهم أن من الوارد يكون هناك حرب. لقد جمعتُ نصف أسلحتنا ونصف مركباتنا، وعلى أتم الاستعداد.

تساءل وحيد:

- وما الوضع مع البشر؟

أجاب خالي فهمي:

- سأذهب إلى الشمال.. مدينتنا، وسأجمع الموالين لنا، إنهم كثيرون ولن يخذلونا، ثم سأصعد بهم للأعلى.

أضاف ماجد:

- سأذهب معكَ.

سأل نوح:

- وحلفاؤنا الآخرون.. الجنوبيون؟

قال فهمي:

- إنهم يتبعون قائدتهم العليا الآن، وقائدتهم ليست في صف أحد؛ إنها تتبع شرها.

تساءل وحيد:

- ماذا لو أجرينا محاولةً أخيرةً معها؟

سأل ماجد:

- ماذا تقصد؟ ألن ترى ما فعلته المرة الأخيرة؟ إنها لم تعد مريم التي نعرفها؛ هناك قوة شريرة تتحكم بها وهي الآن ليست في وعيها.

صمت الجميع فجأةً حين قال ماجد ما قاله، نظر الجميع نحوي الذي لم أقل شيئًا منذ أن بدأ الاجتماع، أستمع فقط؛ فلاحظ ماجد ذلك وانتبه للتو لما تفوه به أمامي؛ مما قد يترك لي أثرًا سلبيًا بداخلي هذا ما ظنه الجميع.. وكان لهم الحق، فاعتذر ماجد عن ذلك.

وهنا قررتُ أخيرًا أن أتحدث، فقلت ولم أنظر نحو أحد:

- لم تخطئ يا ماجد، إنك على حق، ولكن أجد أن المحاولة مرة أخيرة معها لن يضر. وهذا بالطبع أعني الموافقة على ما اقترحه وحيد للتو، سيذهب أحدهم إلى مدينة المجانين ليحاول إقناع مريم للعودة.

فتقدم وحيد وقال:

- سأذهب أنا سأجرب معها حيلي في المناورة بالحديث؛ لعل وعسى أصيب هدفي وأنجح في إقناعها.

اقترحتُ:

- ستأخذ معك قوةً مكونةً من عشرة آليين مرتدين، واتركوا لي مدينة المعترضين.

اندهش الجميع عند سماعهم هذا وكأنهم سمعوا أجرأ ما قيل؛ فقال خالي معترضًا:

- كيف؟! إن المدينة بأكملها مخلصة لأيوب، كما أن أيوب في الوقت الحالي حرٌ طليقٌ، بالإضافة إلى فرار فارس وقوته إلى هناك سيكون خطرًا عليك.

أجبته بصوتٍ جهورٍ كأنني أحدث الجميع؛ لأنهم بدوا جميعهم معترضين على ذهابي إلى هناك.

- إنه نفس المكان الذي يتواجد فيه ابني، ولا تنتظرون مني أن أترك ابني في ذات الخطر الذي تريدونني أن أتجنبه، ثم أننا محتاجون لكل قوةٍ في صفنا.

الحرب هذه المرة إن حدثت سنكون الأضعف، لا يوجد هناك خطة ولا يوجد هناك الوسائل التي أتيحت لنا في الحرب السابقة، كما أن أعدادنا أصبحت أقل من قبل، أما أعدادهم في الزيادة بسبب عمليات التناسخ القذرة التي استخدموها حديثًا.

وبما أن البشر هنا في هذه المدينة (مدينة المتهورين) سيرفضون الانضمام لنا لطالما عاد أيوب إليهم؛ فهناك في مدينة المعترضين يتواجد المنفيون، إنهم قوة لا يمكن نسيانها مضمونة أن تكون في صفنا، يجب أن أحررهم مرةً أخرى من سجنهم.

هنا قال نوح مضيفًا:

- لكن يتبقى سوى القراصنة.. لا أحد يعرف مبتغاهم.

أجبته:

- إنهم منقسمون، لكن سيظل الاثنان أخوة؛ فالداخل بينهم خسران، ثم إنني لا أستطيع أن أثق بهما فسبق وأنهما طمعا سويًا في مدن أرض الظلام، كما أنني لن أنسى ما فعله ذلك الأخ الصغير الخائن القاتل.

يستمع الجميع إلَيَّ في اهتمامٍ، فأضفتُ:

- وسأذهب إلى أيوب بمفردي، ولن يكون هناك نقاش في هذا الأمر.

فاستسلم الجميع إلى ما قلته، وساد صمتٌ رهيبٌ بالمكان، صمتٌ لا يعبر عن شيءٍ سوى الخوف، صمتٌ صارخ بداخلنا.. في أعماقنا.

صمتٌ يصيح لنا أننا الطرف الأضعف، إننا المنهكون الهازلون الواهنون، إننا نشعر بالخوف في هذه اللحظات أكثر من أي وقتٍ مضى، إننا نجلس هنا مقيدين بسلاسل الخوف؛ حيث

علم كل شخصٍ منا مهمته إلا أن بداخله يقين أنه مقيد مكانه لا يعرف بماذا يبدأ، وإن فعل وبدأ فيشعر أن روحه المقيدة في براثن الخوف.

إنني مؤمنٌ منذ صغري أن الفضول يقتل الخوف، لكن لأول مرة في هذه اللحظة ولنتيجة ما يحدث أمامي أرى الخوف أقوى من الفضول، أقوى من غايتنا في الصعود إلى الأعلى، نعم أؤمن الآن أن الخوف سجنٌ أقوى من أي زنزانة أخرى؛ فسلاسله خانقة متينة وغير قابلة للكسر.

ظللنا جميعنا على هذه الحال، كل شخصٍ يعلم بداخله الهزيمة التي سنتلقاها إذا حدثت حرب كل شخصٍ يعلم أن غيره يفكر مثله، ولا يرى أمامه سوى الخيانة والنهاية إذا اندلعت حربٌ أخرى كل شخصٍ يعلم أن هذه الحرب لن تكون مثل السابقة، لن نستطيع أن نصمد نصف ما صمدناه منذ عامٍ ونصف أو حتى ربعه.

دنا نحوي خالي قائلًا على مسمع الجميع:

- ربما لن يكون هناك حرب، ولن يكون هناك خيانة.

اختار نوح أن يرد على خالي قائلًا:

- وفود قوة جديدة إلى هنا من الغرب، وإحياء أعداد كبيرة من الآليين بواسطة التناسخ سيجعل شهاب يعيد التفكير في الاتفاق الذي برمه معنا، فلا تغفل عن عدم معرفة شهاب بأمر الآليين بالغرب بقيادة زعيمتهم حين برم الاتفاق معنا، وأصبح الآن يعلم بذلك بالإضافة إلى زيادة الأعداد.

قال وحيد مساندًا نوح:

- لو كنتُ مكان شهاب لكنتُ ظفرتُ بكل شيءٍ دون أن يشاركني عدوي فيما أملكه.

ثم قال ماجد:

- وأيضًا خيانته مع أيوب حين اتفق معنا لأنه رأى أن بذلك الأفضل له، وأما الآن سيرى نفس الشيء مع وفود القوة الجديدة ويختار الأفضل لجميع الآليين.

ثم تحدثتُ أنا في نهاية المطاف بعدما سمعتُ الجميع:

- سنتعامل كأننا لم نعلم شيئًا، سنتعامل كأن الاتفاق لا زال قائمًا وليس هناك خداع، لو كُنا الأقوى لكُنا رفضنا كل شيءٍ لنشن حربًا عليهم كما فعلنا منذ عامٍ ونصف، ولكن بسبب كوننا الطرف الأضعف فسننتظر الخيانة منهم أولًا ثم سنتعامل مع ما خططنا له منذ قليل؛ ولذلك سنصعد ليلًا لأستطيع أن أستخدم قوتي لقتل التنانين.

هنا سأل فهمي ذلك السؤال الذي لم يسأله أحدٌ حتى الآن، وكم كنتُ أخشاه وأخشى إجابته.

لقد سأل خالي قائلًا:

- كيف ستستخدم قوتك ولن يكون هناك دافع ليجعلك تحزن ثم تغضب فتطلق الصرخة؟

صمت الجميع برهةً، أصبحت البرهة وقتًا أطول، وكأن الجميع انتبه للتو عن شيءٍ يتساءلون كيف لم يفكروا فيه

حتى الآن، لكنني أفكر فيه منذ البداية ولا أعرف إجابةً له، بل أخشى من الحديث بذلك الأمر، أشعر وكأنني مقيد بالخوف من ذلك.

فأجبته بعد أن نظرتُ له بعينين لامعتين كادتا أن ينزل منهما الدمع:

- إنهم يعلمون ذلك جيدًا، ولا أرى شيئًا سوى أنهم يعلمون ماذا سيفعلون وعالمين بالطريقة التي سيجعلونني أحزن ثم أغضب.

سأل وحيد:

- ما قد تكون هذه الطريقة؟

نظرتُ له بذات النظرة وقلتُ في أسفٍ:

- أحد أقاربي معرض للخطر.

عاد الصمت مرةً أخرى وعلموا أن ما أخبرتهم به للتو منطقيًا ويصدق، ولا يعرف أحدٌ ماذا يقول؛ فأنقذتهم من ذلك وأردفتُ:

- ولذلك لن أدع ابني تحت أيدي أيوب، كما أن شهاب يعلم أن ابني بحوزة أيوب ومن الوارد أن يعقدوا اتفاقًا جديدًا مع أيوب؛ ليجعلوا ابني هو مصدر ضغط لهم ومصد حزن لي؛ ولذلك إنقاذ ابني من براثن أيوب هو أول خطواتي.

***

ذهب كل شخصٍ على حدة ليختلي بنفسه وبأفكاره

وبهواجسه، فيتقيد بسلاسل الخوف المسيطر عليه.

وكأنه مكتوب في قصتنا بكتاب الحياة الهزيمة.. النهاية.. الموت، وكأنه أصبح انقراض البشر واقعًا حتميًا ولا بد وأن يحدث مهما طال الزمن، وها قد أتى وقته، ستندلع الحرب التي ستضع نهاية قصتنا المكتوبة، ستكون حربًا مختلفة، حربًا أشد ضراوةً، أكثر ضحايا، أحلك ظلامًا، أقسى من الموت.

ولكن.. هل ستحدث هذه الحرب حقًا؟ أم سيكون هناك شيءٌ آخر أكثر دمارًا؟

استسلمتُ لكتاباتي الحقيقية التي أعتدتُ عليها، فتحتُ حاسوبي لأكتب، ربما قد تكون هذه آخر مرة أكتب بها. شرعتُ أكتب بداخل كتاباتي مذكراتي اليومية، أدوّن بها أسعد وأحلك الأوقات.

كما ذكرتُ أيضًا الحُلم الذي حلمته حين كنتُ مسجون الآليين، ذلك الحُلم الذي حلمته على مرتين متتاليتين، ولا زلتُ أتساءل عن سبب هذا الحُلم، هل هو حقًا مثل أي هواجس يحلم بها الفرد؟ أم أنها تشير لشيءٍ آخر؟

ما الذي يجعلني أفكر بتلك الطريقة هو حدوث أجزاءٍ منه على أرض الواقع؛ فما فعلته مريم في الحُلم كان إشارةً لما فعلته مريم على أرض الواقع.. أرض الظلام.. والدمار الذي خلفته هنا.

كما أن وجود ابني بين يديّ أيوب وتعرضه للخطر هو

تحقيق لما كنتُ أراه في الحُلم، حين كان ابني ملقى أرضًا منتظرًا انتشالي له مما يشعر به من وحدة، وها الآن بالفعل بمفرده تحت يدٍ لا ترحم. فياله من حظٍ تعسٍ لطفلٍ أتى لهذه الحياة كي يُظلم!

ثم تذكرتُ ذلك الكائن الغريب الذي كان يركض خلفي ثم هاجمه التنين، هذا الكائن المخيف هو الجزء الوحيد المتبقي من الحُلم الذي لم تتضح ماهيته بعد.

فمَن ذلك الكائن الغريب؟ أو أنه إشارةٌ إلى أي شيء؟

ولكن يظل برأسي سؤالٌ واحدٌ فقط هو الأهم إن كان الأمر كذلك فلماذا أحلم بأشياءٍ ستحدث في الحقيقة فيما بعد؟ هل أصبحتُ أتنبأ؟!

إن كان الأمر كذلك حقًا فذلك يجعلني أشعر بالخوف أكث، ثم انتقلتُ من هذا الجزء إلى جزءٍ آخر أختي سارة والشيء العظيم الذي لم يفعله أحدٌ من قبل؛ إنها تتحكم في تنينٍ ضخمٍ هائلٍ.. كيف فعلت ذلك؟

حتى وإن لم توجد تنانين من قبل لكي يتحكم بها أحد قبل سارة لكن يظل الوضع كما هو عليه، كونها فعلت شيئًا جريئًا ومخيفًا لا أحد يتجرأ أن يفعله، يا له من شعورٍ حين تتحكم في تنينٍ ضخمٍ!

وعندما انتهيتُ من كتابتي لهذا السطر عن هذا الجزء الأخير بالتحديد، جالت في رأسي فكرة مجنونة.. مجنونة حقًا، ولم تحدث من قبل، فكرة غريبة ومريبة إلى حد الرعب، لكنها قد

تكون سبيلًا لخلاصنا.

أشعر كأنني عدتُ للجنون والأفكار الجنونية مرةً أخرى، أشعر كأنني استعدتُ شخصيتي القديمة؛ فخرجتُ مسرعًا للخارج ناديتُ على خالي، وماجد، ووحيد، ونوح؛ فتساءلوا عن الأمر، فقلت لهم إنني وجدتُ فكرةً قد تحول هزيمتنا إلى الانتصار السحيق، وإنها قد تكون السبيل الوحيد لخلاصنا من هذا الموت الذي بانتظارنا.

سأل خالي في نهمٍ ولهفةٍ كما هو حال الجميع:

- ما هذه الفكرة؟

قلت لهم:

- لكنها انتحارية.

قال نوح:

- ولما تندهش من ذلك؟ هذا الطبيعي إنك آدم.. وقد اعتدنا على ذلك.

سأل ماجد:

- هل سننتصر إن وقعت الحرب؟

قلت:

- هذا يعتمد على تقبلنا للفكرة.

قال وحيد:

- أخبرنا إذن.

قلت لهم بعد ترددٍ وبنظرةٍ ثاقبةٍ بعيدة المدى:

- لن ننتظر حتى إذا اندلعت الحرب فنحارب وندافع، هذا أشبه بالموت البطيء لنا؛ ولذلك لن أقتل التنانين، بل سنجعل التنانين تحارب بجانب البشر.

* * *

قوةٌ تنينية

- أتعتقد أننا سنقدر على فعل ذلك؟

سأل فهمي ماجد الذي كان برفقته في المركبة التي تشق طريقها للشمال عبر الطريق الشرقي.

فأجاب ماجد:

- إنها فكرة انتحارية، لكنها تستحق المخاطرة.

قال فهمي:

- إنها أفكار آدم هكذا جنونية وخطيرة لكنها تستحق.

ماجد:

- إن هذه الفكرة بمثابة التمسك بخيطٍ رفيعٍ وسط الحبال الشائكة.

فهمي:

- لا زلتُ أصفه بأنه مستقبل عالم البشر.

ماجد:

- إنه السبب دائمًا من إخراجنا من عنق الزجاجة.

استمرا في طريقهما نحو الشمال آخذين ذلك الطريق الطويل الشرقي الذي تشع منه رائحة الرطوبة.

بعد ساعتين وصلا بفضل سرعة المركبة إلى وجهتهما، ترجلا ولامست أقدامهما أرض مدينة المحافظين.

الغريب أنهما لم يجدا الشيء المعتاد، في الحقيقة إنهما لم يجدا سوى الهدوء السائد والسكون القاتل.

القليل من الشماليين، لا أطفال يلعبون، يسير التوتر بين المساكن، يُسدل القلق ستاره على قلوبهم، يتملك الخوف بكيانهم.

دلفا إلى وسط المدينة ليجدا السبب الذي كان وراءه السكون والخوف، لم يندهشا، لكن ما رأوياه أحزنهما.

كان معظم السكان هنا يستمعون له في وسط المدينة يحاول أن يسمم آذانهم، لقد أبصرا الخائن صالح ومعه رفاقه الحكام القدامى يحشدون حولهم عددًا من الشماليين (سكان المدينة).

لقد أحزن ذلك فهمي جدًا؛ لأنه لم يتوقع أبدًا أن يكون مثل هذا العدد الذي يتبع صالح وأفكاره الخبيثة، لقد وضع الثقة في جميع سكان مدينته لأنه خُيّل له أنهم لم يخذلوه، لم يكن العدد قليلًا لكنه لا يمثل القوة الأكبر لسكان المدينة.

دلفا لداخل التجمع الكائن بوسط المدينة والذي يحاول فيه صالح بحديثه الماكر أن يضم أكبر عددٍ له، ثم توقف الجميع حين رأوا فهمي وماجدا آتيين نحوهما.

هنا ابتسم صالح ابتسامةً ماكرةً وبادر بالحديث مشيرًا نحوهما ساخرًا:

- إنهما الأضعف، إنهما لا يملكان أي قوةٍ ضدهم، إنهما وجماعتهما يضعون فيكم أملًا كاذبًا في العودة إلى الأعلى،

إنه مبرر فقط يتخذونه حتى يستفذون منكم قوتكم في مساعدتكم لهم، وهذا ما حدث في الحرب السابقة منذ عامٍ نصف.

فالواقع هو مَن يحكم ليس كلامي أو كلامهم، ها نحن لا زلنا بالعالم السفلي رغم وعودهم السابقة لكم.

بدا كلام صالح الماكر مقنعًا بالنسبة للموالين له، لكنه لم يكن الكافي لمَن لا يتبعونه، وكأن ظهور ماجد وفهمي في هذه اللحظة كان الأمل حقًا الذي عاد بعد غيابٍ، لقد كانا بالنسبة لبعضهم النور الذي يشع وسط الظلام.

فبدأ بعضهم يتجمعون حولهما بالفعل، وهنا بدأ دور فهمي وماجد في الإقناع، وكأنها حربٌ كلامية بين فهمي وصالح المتقاربيْن في السن مما يجعل هذه الحرب متعادلة ومتوازنة الكفين.

فقال بصوتٍ جهورٍ وبجانبه ماجد مشيرًا نحو صالح ومعاونيه:

- إنهم لا يريدون مستقبلًا إنهم يريدون أن يبقوا هنا تحت رحمة الآليين، عاجلًا أم آجلًا سيبتكر الآليون طريقةً ما للقضاء على التنانين، ومن ثَمَّ سيكونون من أنقذوا العالم العلوي، وهنا ستأتي أحقيتهم التي من المفترض ألا تكون لهم من البداية، إن حدث ذلك فلن نستطيع أن نصمد مثلما فعلنا كل هذه السنوات، بات الأمر مختلفًا الآن ولن نسمح أن نعطيهم الفرصة، بل يجب أن نستغل نحن هذه الفرصة لكي

نصعد لعالم به شمس وحياة.

وبدأ الشماليون يتوافدون رويدًا رويدًا نحو فهمي وماجد بجانب أعدادٍ أخرى أقل تتضامن مع صالح، وأجرى ماجد اتصالًا مع آدم ليخبره عمَّا حدث.

***

استقل وحيد مركبةً ومعه خمسة مراكب أخرى تحمل عشرة آليين مرتدين متجهين نحو وجهتهم.. مدينة السحر.. إلى مريم.

أخذ وحيد يتساءل في نفسه إذا كانوا قادرين على فكرة آدم.. الاستحواذ على التنانين؛ إنها فكرةٌ مجنونة حقًّا لكنها شبه مستحيلة بالنسبة لوحيد، فكيف سيفعلون ذلك؟ فكان يرى أن ليس من الضروري أن يتجاوب تنينٌ آخر مع إنسانٍ مثلما فعلت سارة مع تنينها الضخم.

وصلوا إلى مدينة المجانين واستقبلوهم مَن لا يزالون يحرسون المدينة، سأل الطرف الأول عن مريم، ولكن أجاب الطرف الأخير بأن يعودوا أدراجهم؛ لأنهم هم الأعداء بالنسبة لهم، وأن الأمر الذي ينفذونه هو أن يقتلوا هذه الأعداء، ولكن بسبب وجود وحيد وسطهم فلم يفعلوا ذلك واكتفوا بأن يحذروهم فقط، ولكن إن لم يعودوا إلى مكان ما أتوا سيقتلونهم بالتأكيد.

وبسبب إصرار وحيد على تنفيذ مهمته فألح عليهم أن يرى مريم، ولكن لن يقابل سوى نفس الإجابة حتى اشتد الحوار

بين الطرفين وهنا اندلعت المعركة.

التحم الطرفان قرابة نصف الساعة، وبسبب سرعة الآليين وتفوقهم في المهارات البدنية كان الانتصار لهم دون أن يقتلوا بشريًا واحدًا؛ فهم لديهم الحِرص ألا يخلقوا عداوةً مع البشر.

تقدموا نحو المدينة ودلفوا إلى الوسط حتى وصلوا مسكن مريم الذي يعرفه وحيد سابقًا، دخلوا المسكن ولكن لا وجود لأحدٍ.

كان وحيد يعلم زوايا البيت وحجراته جميعها، فكان على علمٍ بتلك الحجرة الصغيرة السوداء التي لطالما استخدمتها مريم في ممارسة طقوسها وسحرها، كان على يقينٍ تامٍ أنه سيجدها بالداخل تفعل أشياءها الغريبة المجنونة، ورسوماتها المرعبة، وشموعها الظلامية، وتمتماتها غير المفهومة، ونجمتها المعروفة المرسومة على الأرض تجلس بوسطها تغمض عينيها لتتلو الشر.

كان ذلك ما يتخيله وحيد؛ فاتجه نحو تلك الحجرة بحرصٍ فتح الباب بتؤدةٍ، يخيم السواد على أنحاء الحجرة بالكاد يرى الشيء الكائن بجواره، يتخيلها إنها جالسة في نهاية الحجرة ناظرةً إليه في شرٍ لتفعل شيئًا من السحر فتجعله تابعًا لها؛ لينفذ كل ما تطلبه منه وعن اقتناعٍ تامٍ بقضيتها.

طرد هذه الهواجس وشرع ينادي عليها، وبعد مرور ثوانٍ أخرى كانت العين تأقلمت على ظلمة الحجرة وأخذت الرؤية

بالكاد تتضح شيئًا فشيئًا، وهنا كانت المفاجأة.

لم يجد مريم! ليس لها وجود في مسكنها، وبعد ساعةٍ أخرى من البحث في جميع أنحاء المدينة لا وجود لها بالمدينة بأكملها! لقد أجرى اتصالًا بآدم ليعلمه أنه لم يجد مريم وجاري البحث.

بالخارج في وسط المدينة، كان بانتظارهم المفاجأة الأخرى الأقسى لهم؛ إنهم يواجهون ذات الأشخاص الذين التحموا معهم منذ ساعةٍ لكنهم ليسوا بمفردهم هذه المرة، كان معهم قرابة عشرين فردًا جنوبيًا.

كان عددهم ثلاثة أضعاف المرتدين، ومن ثَمَّ التحم الطرفان مرةً أخرى في معركةٍ طاحنةٍ هذه المرة.

وحدثت الصدمة.. حدث ما لم يتوقعه وحيد على الإطلاق.. ما سيجعل البشر بمفردهم في هذه الآونة.. ما سيجعل الجميع يتخلى عن البشر.

لقد تساقط مرتدٌ تلو الآخر حتى تم القضاء على العشرة آليين المرتدين؛ ليخلقوا بذلك عداوةً أخرى مع مَن كانوا في صفهم منذ البداية، وكانوا سببًا من أسباب الانتصار منذ عامٍ ونصف.

تفككت أجزاء جميع المرتدين ليصبحوا مجرد فولاذ ملقى أرضًا، وأصبح هنا وحيد بمفرده؛ لقد تبدل الأمر إلى شيءٍ آخر كان خارج عن حسبان الجميع، فلم يتوقع أحدٌ أن يهاجم الجنوبيون المرتدين.

باتت المهمة التي من المفترض أن ينفذها كما يريدون إلى حدوث شرخٍ جديدٍ وانقسامٍ آخر في صفوف البشر؛ مما يجعل دحرهم وانقراضهم أسرع مما يتخيل أحد.

ثم تقدم أحد الجنوبيين نحو وحيد قائلًا:

- لديَّ أمرٌ أن أقتل أي آلي ولكن ألا أقتل أحدًا منكم، ولديَّ أمرٌ آخر فحين يأتي أحدٌ منكم إلى هنا يجب أن أقول له:

"سنبقى في عالمٍ بلا شمس إلى الأبد وليس هناك قوة تمنع ذلك، وإن وجدت ستكون بهدف بقائنا بأرض الظلام."

لقد رأى وحيد الإصرار في عيني الرجل، فتخيل كيف سيكون ذلك الإصرار عند قائلة العبارة بشخصها.

***

كان نوح يجمع قواته المرتدين بالمدينة الوسطى يحثهم للقتال بجواره حتى آخر الأنفاس، يخلق الدافع لهم ليدافعوا عن كل شيءٍ حاربوا من أجله، يحذرهم من حربٍ قد تندلع حربٍ ليست مثل السابقة، حربٍ قد يكونوا هم الطرف الأضعف، لكنه يخلق من تلك الثغرة منفذًا لهم ليقاتلوا حتى لو على علمٍ إنهم سيُهزمون.

كان نوح بمثابة الملهم لهم قائدهم وأبوهم الروحي، يقاتلون ليس للدفاع عن أنفسهم، إنما يقاتلون من أجله فقط؛ فهو الذي لم يجعلهم يشعرون بأنه قائدهم في يومٍ ما بل كان مثلهم، لقد أنقذهم من المظالم التي كانوا يتعرضون لها من قِبل المنظمة الآلية التي كان مقرها الشمال في السابق.

كما أمرهم بألا يهاجموا التنانين؛ فهناك بعض التغييرات التي حدثت في الخطة، ثم أنهى حديثه وأجرى اتصالًا مع آدم ليعلمه الأخبار، وبعد أن أنهى المكالمة أتى إليهم شخصٌ معه بعض الرجال، لم يكن غريبًا بالنسبة لنوح بل كان وجهًا رآه العديد من المرات، في الحقيقة فهو كان أول مَن رآه وتحدث معه في وسط البحر على سفينته فيعرفه حق المعرفة، كان مرتديًا ذات الرداء الذي يلبسه جميع مَن أتوا، وجميعهم يرتدون على رؤوسهم ذات القبعة التي تميزهم عن غيرهم، إنهم بالطبع جماعة القراصنة برفقتهم قائدهم.. قائدهم عبد الله.

نظر نوح إليه وسأله:

- ما الذي أتى بِكَ إلى هنا؟

لم يعطِه الفرصة ليجيبه بل أردف:

- لن يحدث ما حدث منذ عدة أيامٍ وأنتم كنتم السبب فيه.

هنا أجابه عبد الله قائلًا:

- إنه أخي مِن تسبب في ذلك.

قال نوح في غضبٍ:

- وما الفارق بينك وبين أخيك؟

أجاب عبد الله:

- الفارق هو أننا لسنا على وفاقٍ؛ فهو مع مواليه وأنا مع

هؤلاء، إننا دائمًا على خلافٍ، ولكي أتجنب خسارته فكنتُ أستسلم له، هذا ما يفعله الأخ الكبير.

سأله نوح:

- وما الذي تغيّر؟ ما الذي يجعلني أثق بِكَ الآن؟ إنكما أخوان، وعاجلًا أم آجلًا ستعودان كما كنتما في السابق.

قال عبد الله بعد أن تنفس الصعداء:

- لقد تمادى في تهوره؛ إنه يريد أن يقضي بقية حياته هنا وهذا ليس عالمنا، إنني أريد أن أعود للأعلى لحياتي السابقة للبحر، والسفن، والهواء الطلق، والفراغ، والحرية. ببساطة أريد أن أعود لعالم به شمس.

لقد ذهب أخي ولم يرجع حين سفك الدماء، لن أسامحه أبدًا على فعلته الحمقاء هذه.

نظر نوح في عينيه يتمعن فيهما ويتأمل حتى سأله:

- ماذا تريد؟

أجاب عبد الله بعد أن نظر إلى قوة المرتدين المحتشدة بجانب نوح قائلًا:

- إنني أريد أن أعود، ولسماعي بأن هناك اتفاقًا يجعلكم تعودون للأعلى مع الآليين؛ فأريد أن أساعد في ذلك.

قال له نوح محذرًا إياه:

- قد يكون هناك حرب.

أجاب عبد الله:

- لطالما لم أسفك دمًا بشريًا فأنا مشارك.

نوح:

- قد يموت بعض الأشخاص.

عبد الله:

- لكل شيءٍ تريد الوصول إليه لا بد أن توجد تضحية.

وهنا انضم قوات القراصنة التي تتبع عبد الله إلى قوات المرتدين.

***

تفرقنا على حسب ما اتفقنا عليه، تفرعنا إلى جميع مدن أرض الظلام في أول ساعاتٍ من نهار اليوم قبل أن يأتي الليل ونصعد للأعلى لإتمام المهمة المفترضة وهي قتل التنانين؛ لأنني لا أستطيع أن أستخدم قوتي بالأعلى في وجود الشمس، ولذلك كان الاتفاق مع الآليين أن نصعد في وقت الليل، وهذا الليل القادم هو الليل الذي من المفترض أن نقتل فيه التنانين.

ذهب خالي وماجد إلى الشمال حيث مدينة المحافظين، ووحيد برفقة عشرة آليين مرتدين نحو مدينة الجنوب حيث المجانين، وبقي نوح مع قوته في المدينة الوسطى حيث المتهورين، وقصدتُ أنا المدينة الباقية وهي مدينة أيوب أو المدينة الغربية الخاصة بالمعترضين.

تواصلنا منذ وقتٍ عبر شرائح اتصالنا الجديدة، وعلمتُ أن هناك شماليين انضموا لنا مقابل البعض بجانب الخائن صالح، ويبحث وحيد عن زوجتي مريم التي لم تعد موجودة بالمدينة، ويحث نوح المرتدين إلى الحرب، وها أنا أبحث عن أيوب وليس له أثر هو الآخر.

تساءلتُ هل غياب مريم مرتبط بغياب أيوب؟! هل هناك اتفاق ما دار بينهما؟ أم اتفق الاثنان مع الآليين بالأعلى بما أنهما غير موجدين بالأسفل؟

هنا تساؤلات كثيرة تدور برأسي ليس لديَّ يقين بإجاباتها؛ فلقد بحثتُ في كل أركان مسكنه وما حول مسكنه وليس له أثر كما الحال مع ابني، لا بد وأن أجد ابني، لا بد وأن أصل إلى ابني قبل أن يصل الآليون إليه، يجب ألا أجعله مصدر ضغطٍ بالنسبة لي، لن أقبل أن يكون هو مصدر حزني لأطلق قوتي نحو التنانين، لن أقبل أن أعرض ابني إلى ذلك، يجب أن أجده قبل حدوث ذلك، فإن وجدته سينجح ذلك من فكرتي حول جعلنا التنانين تقاتل بجانبنا.

شردتُ بفكري دقائق أجد وسيلة كي أجد بها ابني، ثم تذكرتُ ما حدث منذ عامٍ ونصف حين كنتُ بالأعلى في ذلك المبنى، أحاول أن أجد المكان الذي تواجد به الكتاب الذي يخص تهديد حياة الآليين.

وهنا ربط فكري ذلك الحدث بالمنفيين الذين كانوا تجارب لعملياتهم القذرة؛ فتذكرتُ هدفي الثاني من وجودي هنا وهو البحث عن المنفيين لانضمامهم لنا بجانب انضمام عددٍ من

الشماليين مع خالي.

سألتُ نفسي أين قد يسجن أيوب المنفيين؟ ثم شرعتُ في أن أجرب طريقتي التي استخدمتها في ذلك المبنى بالأعلى وهي أن أضع نفسي مكان الذي يستحوذ على الشيء الذي أبحث عنه، ووجدتُ أن نفسي أحبسهم في أطراف المدينة.

أخذتُ مركبتي التي جئتُ بها إلى هنا ودلفتُ وسط المدينة، ووجدت ما جعلني أشعر بالاستغراب؛ لم أجد العدد الذي من المفترض أن أراه من سكان المدينة، وهذا ليس بسبب أنني أتوارى عن أنظارهم في سيري في مدينتهم لكي لا أعرض نفسي للخطر.. كلا.. ذلك الأمر بدا أنه غريبٌ وغير مألوفٍ نوعًا ما.

بعد أن مضى أكثر من عشرين دقيقة بالمركبة في المدينة وصلتُ إلى أطرافها، ترجلتُ من المركبة أخذتُ حذري وكنتُ حريصًا في تحركاتي كي لا يراني أحد.

ثم لمحتُ مبنى قديم كبير كأنه مهجور ويحرسه بعض البشريين المعترضين، لم أجد وسيلةً أخرى كي أدخل إلى ذلك المبني من أي جهةٍ أخرى؛ لكي لا يروني هؤلاء. لم أجد وسيلةً أخرى سوى أن أذهب مباشرةً إلى الخمسة أشخاص الذين يحرسون المبنى من الخارج، وأعتقد أن يكون مثلهم بالداخل، فتوجهتُ نحوهم مباشرةً وسرعان ما اتجهوا نحوي وفي أعينهم شرٌ حين لمحوني، فركضوا نحوي ولم أتردد فركضتُ نحوهم، وبسبب سرعتي التي بالكاد أتذكرها كنتُ أسرع من تحركاتهم، فما أقوم به من فعل مثل صد ضربة أو

توجيه ضربة باليد الأخرى كان أسرع مما يقومون به، لم آخذ الوقت الذي يأخذه الفرد منهم في تحضير قبضته لتوجيه اللكمة نحوي.

بعد خمسة دقائق من الالتحام كان الخمسة ساقطين أرضًا، لم يعد يستطيعوا التحرك بسبب قبضتي الشديدة التي تحمل بالداخل الفولاذ.

دلفتُ إلى داخل المبنى ووجدت أربعة أشخاصٍ آخرين في الممر الذي يؤدي إلى الداخل أكثر، وتكرر المشهد مرةً أخرى مع اختلاف أنني كنتُ مَن بدأتُ الهجوم هذه المرة. وبعد خمس دقائق أخرى جعلتُ الأربعة أجسامٍ مشلولة هامدة على الأرض، ثم وقفتُ ثوانٍ أتأمل المبنى فوجدته عبارة عن ممرٍ به الكثير من الزنازين.

زنازين مسجون بداخلها مئات المنفيين وكأن الزمن يعيد نفسه والتاريخ يُكتب مرةً أخرى بنفس الصيغة مع اختلاف الحدث، لقد ذهبتُ إلى غرفة التحكم التي بها أجهزة التحكم والكاميرات التي تخص تلك الزنازين، وبخبرتي وعملي في الاختراق استطعت أن أفتح أبواب كل الزنازين، وخلصتُ المنفيين من ذلك السجن الأبدي، وكأنه مكتوبٌ لهم أن يعيشوا حياتهم كلها مساجين في سجنٍ.

رأيتُ في وجوههم الاندهاش من خلال شاشات المراقبة حين شاهدوا أبواب سجونهم تنفح أمام أعينهم، يتساءل الجميع عمَّا يحدث، ثم غادرتُ غرفة التحكم وعدوتُ مرةً أخرى عند بداية الممر، ورأيتهم يتحركون ببطءٍ وبحذرٍ نحو

الأبواب وكأنهم غير مصدقين وبداخلهم الشك أن يكون هناك لعبة ما أو خدعة يجعلونهم من خلالها الخروج.

استسلموا في نهاية المطاف ليخرجوا فرأوني أمامهم واقفًا عند الممر، ثم لمحتُ ملامح وجوههم تتغير من الخوف والقلق إلى الاطمئنان والأمان وكأنني كنتُ السبب في بث الأمل في داخلهم مرةً أخرى، فركضوا نحوي شاكرين لما فعلته لهم للمرة الثانية وكأنهم يرونني المنقذ لهم دائمًا.

كان عددهم المئات القليلة، ثم بدأتُ أنتبه أن معظمهم من النساء والأطفال وكبار السن، وأنني عالمٌ بعددهم جيدًا؛ فكل الرجال الذين يتراوح أعمارهم من ثمانية عشر إلى أربعين عامًا ليسوا موجودين.

انعقد حاجبيّ في البداية ثم تساءلتُ عن البقية فكانت المفاجأة، كانت الصدمة التي لم أتوقعها أبدًا ولم أضع حسبانًا لها، لقد كان ذلك بمثابة ألم آخر يجعلنا ثابتين على كوننا الطرف الأضعف بل ما حدث زاد من ضعفنا أكثر.

لقد أخذ أيوب رجالهم لينضموا لهم بالقوة، وإن لم يفعلوا فسيقتل نساءهم وأطفالهم هذا ما أخبروني به.

لا يرى أحدٌ تلك القوات حينما كانت تصعد للأعلى؛ لأنه أصبح في هذه الآونة الأخيرة أن لكل مدينة فجوة تصلهم بالعالم العلوي، ولقد زاد ذلك من انفصال مدن أرض الظلام، لقد كان الأمر في البداية حين كانت هناك فجوة واحدة أشبه بتكاتف جميع سكان أرض الظلام معًا ضد العالم العلوي

رغم انقسام أفكارنا وقواتنا، لكن أصبح الآن الانقسام أعمق وأشرس من قبل.

زادت قلة أعدادنا، زاد ضعف قوتنا، زاد احتمال هزيمتنا، بل زاد يقيننا بأن سيكون هناك حربٌ بالفعل.

لم يكن أمامي سوى أن أقول لهم أنهم يعودون إلى مدينتنا الشمالية، وألا يصعد أحدٌ للأعلى فقد يكون هناك حربٌ طاحنة، حربٌ قد نموت فيها، حربٌ قد تكون بداية انقراضنا بالفعل، وإنهم قد يكونون المجموعة البشرية الأخيرة المتبقية التي سيكون الأمل فيها لينقذوا الجنس البشري.

لكن كان ردهم بمثابة مفاجأة أخرى بالنسبة لي، لقد رفضوا أن يكونوا المجموعة التي لا يكون لها دورٌ في هذه الحرب، لقد كان ردهم هو أن عليهم أن يشاركوا في مساندتهم لنا، وهذا سيكون بمثابة رد الشكر والمعروف لما فعلناه لأجلهم؛ لقد أنقذناهم من حياتهم السابقة بالأعلى ثم يعاد الموضوع مرةً أخرى في هذه اللحظة، لقد أعطينا لهم حياةً كريمةً يعيشونها هنا بالأسفل، كان هذا ردهم لي الذي كان سببًا لأشعر بالفخر.

لا أعرف إن كان فخرًا لما فعلته وآمنتُ به من البداية في وقتٍ كان الجميع يعارضني، أو فخرًا لأنني أقف وسط بشرٍ لا يزال الصدق بلسانهم والإخلاص في قلوبهم؛ ربما لأنهم لم يعاملوا مجموعةً أخرى من البشر في حياتهم، ربما لأنهم لم يتعرضوا لأي شيءٍ فيه خيانة، ربما لأنهم لم يتعرضوا سوى للعمليات القذرة التي تُجرى عليهم فهذا جعلهم متكاتفين مع

بعضهم البعض.

لقد رأيتُ في عيونهم الإصرار على مساندتهم لي رغم ضعفهم ورغم وهنهم، فرغم هذا إلا أنني شعرتُ أنها قوةٌ لا تستطيع أي قوةٍ أخرى مواجهتها، شعرتُ بأنها قوةٌ عظيمة تنضم في صفي، قوةٌ ستقاتل لآخِر نفس لديها لتجعلني أنتصر، قوةٌ جعلتني لم أشعر بالندم أبدًا للمخاطرة التي فعلتها من أجلهم منذ عامٍ ونصف، كان من الممكن أن تكون مخاطرة تعصف بالجنس البشري بأكمله.

***

عاود خماسيتنا الاتصال مرةً أخرى في نفس الوقت عن طريق خاصية الاتصال الجماعي "الفيديو"؛ حيث قال كل منا ما حدث معه بعد ذلك:

وحيد:

- لقد سقط جميع المرتدين معي من هجوم الجنوبيين علينا.

احتقن وجه نوح كما رأيته على شاشة شريحة الاتصال الخاصة بي، فقلت:

- لا يجب أن نجعل ذلك سببًا لخلق عداوة جديدة مع المرتدين؛ إنها تسمم أفكارهم، ونحن على علمٍ بذلك بسبب ما تواجهه مريم.

كنتُ أقصد بكلامي بألا يحمل نوح عداوةً مع البشر

الجنوبيين، فالمرتدون بالنسبة لنا هم أقوى قوةً معنا.

فهم نوح ذلك وقال:

- حسنًا يا آدم، لقد انضم لنا نصف قوة قراصنة البحر التابعة للأخ الكبير عبد الله، وأرى أن نضع الثقة به.

قلت:

- إنني أثق بكَ يا صديقي، وسأحترم رغبتك بذلك.

قال خالي برفقة ماجد:

- حسنًا، إن الشماليين لا يزال العدد الأكبر منهم مخلصًا لنا.

قلت:

- لا زال عددنا قليلًا جدًا مقارنةً بما وصفته لنا سارة لما رأته بالأعلى، فلا نغفل عن أمر الاستنساخ الذي فعلوه بالروبوتات المفككة فيجعل عددهم أكبر منا بكثير.

كما لا يوجد ما كنتُ آمله هنا، لقد أخذ أيوب القوة الفاعلة للمنفيين، ولا يوجد هنا سوى النساء، والأطفال، وكبار السن لكنهم اختاروا بإصرارٍ أن يحاربوا بجانبنا.

كما أن معظم سكان مدينة أيوب التابعين له ليسوا موجودين هنا.

تساءل خالي في قلقٍ قائلًا:

- هل هذا يعني أنه ستندلع حتمًا الحرب؟

أجبتُ:

- مما يحدث حولنا من أحداثٍ مفاجئةٍ يوحي بأن سيكون هناك حربٌ حتمًا؛ ولذلك سنصعد هذه الليلة لإتمام ما اتفقنا عليه وهو ألا نقتل التنانين، وسنجعلها تحارب بجانبنا.

ثم صمت الجميع للحظةٍ قبل أن أردف في عمقٍ:

- وستكون التنانين التي اعتبرناها عدوًا أخطر من الآليين هي التي ستكون سبب انتصارنا ضد ذات العدو الذي أمقته، ستكون هي النقطة الفاصلة التي تحول بنا دون الانقراض.

وحدث ما قطع حوارانا، ما جعلنا نشعر بالخوف والقلق، لقد حدث ما لم يكن متوقعًا، حدث أمرٌ مفجعٌ حقًا، ما يكون مبشرًا بالحرب حتمًا بلا أدنى شك، ما جعل أرض الظلام بأكملها تشعر بالرعب القاتل، لقد حدث بداية انقراضنا.

لقد تم قصف سقفنا بقنابل ليزرية كانت كافيةً لأن تهدم ذلك السقف الذي يغطينا من العالم العلوي! لقد تهدم السقف بالفعل!

الصدمة الأكبر أن تلك القنابل ضربت الأماكن الثلاث في ذات الوقت، فلقد حدث مثل ذلك القصف عند نوح بالمدينة الوسطى، وعند خالي بمدينة الشمال، وعندي بالمدينة الغربية!

وهنا سأل ماجد في خوفٍ عبر الاتصال الجماعي "الفيديو" الذي لا يزال يعمل:

- لماذا يهاجمونا الآن؟!

أجبتهم في بديهية:

- الميعاد المتفق عليه كان الليل القادم، وبما أنهم يهاجمون فهم يجبروننا على الصعود الآن في منتصف النهار مع وجود الشمس بالأعلى؛ لكي لا أستطيع أن أستخدم قوتي ضدهم، بل لأستخدمها حين يقررون ذلك ضد التنانين.

لا بد وأن أيوب معهم وبحوزتهم ابني؛ لكي يكون وسيلة ضغطٍ علَيَّ وسببًا لحزني وغضبي.

والآن، يجب أن نتحرك بأقصى سرعةٍ للصعود قبل أن يدمروا سكان أرض الظلام، ويموت آخرون ليس لهم ذنب.

انتهى الاتصال الجماعي "الفيديو" في سرعةٍ وارتباكٍ مثل الارتباك الذي أراه أمامي الآن بين سكان مدينة أيوب الذين لا يعرفون بشيءٍ، وليس لهم في شيءٍ أو بمعنى أدق.. إنهم فقراء مدينته.

لقد تسلل الذعر بينهم حين تم قصف سقفنا؛ فتحركتُ بقوتي "المنفيين" نحو الفجوة التي بالمدينة وتصلنا بالعالم العلوي.

* * *

بعد مرور أقل من ساعةٍ وصلنا فيه إلى الفجوة التي بمدينة المعترضين، وصعدنا إلى الأعلى وكان مقرنا بالأعلى غرب المكان الذي تتواجد فيه القوة الآلية، ولكن ليس الغرب الذي كانت تتواجد فيه ريتاج بقوتها حين سُجِنتُ هناك فهذا في أقصى الغرب، كما أن مساحة العالم السفلي أقل بكثيرٍ من

مساحة العالم العلوي، فأخذ الأمر منا أكثر من ساعةٍ أخرى حتى نصل إلى الساحة الشرقية عند البحر حيث حاربنا منذ عامٍ ونصف.

كان نوح هناك بالأعلى بقوته المرتدة ومعه عبد الله ونصف قوة القراصنة ووصوله قبلي منطقيًا؛ لأن المدينة الوسطى هي الأقرب إلى الشرق.

تفاجأتُ بأعداد الآليين رغم علمي بأنه قد يكون هناك الكثير، لكن لم أتصور أن تكون بمثل هذه الأعداد.

كنتُ والمنفيون الضعفاء في الاتجاه الغربي للمكان حيث جئنا بأيدينا العارية، ونوح والمرتدون في الاتجاه الشرقي للمكان حيث جاءوا والبحر خلفهم ممسكين أسلحتهم الليزرية، أما الآليون في الاتجاه الجنوبي للمكان حيث يعسكرون بأسلحتهم ومعداتهم الثقيلة.

لم تكن رؤيتي لريتاج مفاجأة بالنسبة لي وبرفقتها يارا المستنسخة ومعهما شهاب الخائن.

ثم علت ضحكة ساخرة من شهاب قائلًا:

- هل هذه قوتكم؟

لم يلبث أحدٌ منا أن يرد حتى كانت هناك حركة آتية من الاتجاه الشمالي من المكان، فكان هناك الشماليون سكان مدينتي بقيادة خالي وماجد، فسكنوا الاتجاه الشمالي من المكان على أتم الاستعداد ممسكين بأيديهم تلك الأسلحة القديمة مثل: ساطور، أو سكين، أو قضيب من حديد، أو بقية

أجزاء صلبة.

في الحقيقة رغم أننا نملك ثلاثة اتجاهات من الساحة إلا أن أعدادنا أقل بكثيرٍ من أعدادهم، تلك الأعداد التي كانت بمثابة المفاجأة الكبيرة لنا.

فقالت ريتاج بسخريةٍ أيضًا:

- إنكم أضعف وأقل بكثير.

قلت في غضبٍ:

- لأنكم خائنون، من المفترض أن يكون صعودنا بالليل لننفذ مهمتنا من الاتفاق الذي جرى بيننا وبين شهاب، ولكنكم خنتم الاتفاق حين هاجمتمونا وفي منتصف النهار؛ فيبدو أنكم تريدون حربًا.

ضحكت ريتاج ضحكةً عاليةً ساخرةً شريرةً قائلةً:

- وهل صدقتكم أننا سنترككم تشاركونا عالمنا؟

أجبتها:

- نعم، شككنا في أمركم؛ ولذلك نحن مستعدون.

قال شهاب بذات السخرية:

- هل ما أراه هذا تسمونه استعدادًا؟ ألم ترى أعدادنا؟

ولكن... انتظر هناك بالفعل ما لا تراه حتى الآن.

ولم يلبث أن ينتهي من حديثه حتى أشار بيده نحو قوته التي كانت عبارة عن صفوفٍ كثيرة متراصة، فانقسمت هذه

الصفوف إلى شقين، حتى يظهر خلفهم آليون آخرون نراهم بالفعل كأعدادٍ تابعة لهم، لكننا لم ندقق النظر حينها كما نفعل الآن.

إنهم نفس الوجوه مكررة أرى الوجه الواحد منه ثلاثة آخرين، وكانت تلك الصدمة الأكبر التي تزيد من احتمالية موتنا جميعًا.

إنهم مستنسخون وهذا كان بمثابة تفسير لمثل هذه الأعداد التي في صفهم، فإن عددهم زاد ثلاثة أضعاف عن ذي قبل، كيف سنواجه تلك القوة العظيمة بأيدينا العارية؟ كيف؟!!

احتقن وجهي كما المنفيون، وزاد ذعر خالي من الجهة الأخرى كما الشماليون، وعلم نوح ومَن معه من المرتدين أنها الهزيمة الساحقة بانتظارهم.

هذا ما رأيته في ملامحهم.. إنه الموت، بل المسح الكامل لجميع البشر؛ فالانقراض محقق محقق إن لم أجعل التنانين في صفنا.

انتشلتني ريتاج من أفكاري بقولها:

- لقد انتظرنا الساعات التي تعبر فيها التنانين من هنا إلى كهفها حتى نخرجكم من جحوركم.

وقبل أن أرد عليها سمعنا حركةً أخرى من الاتجاه الذي يقف فيه خالي والشماليون، إنه صالح الخائن ومعه بعض الشماليين القليلين الذين يعتقدون أن الحاكم الأسبق لمدينتنا هو الأحق، أو أن صالح استطاع أن يسمم أفكارهم، كان

بأيديهم الأسلحة النارية التي أنقذ بها صالح أيوب بالأسفل، تلك الأسلحة التي تفاجأنا أنها لا زالت موجودة حتى الآن، لا بد وأن أحتفظ بهم صالح دسًّا حين كان حاكمًا ناهيًا على مدينة المحافظين.

ومن ثَمَّ راقبنا جميعنا المشهد وهم ينجرفون نحو الاتجاه الذي يقف فيه الآليون، فيأخذون صفهم لتزيد أعدادهم أكثر فأكثر.

ثم قالت ريتاج في فخرٍ وانتصارٍ وسخريةٍ:

- والآن يجب أن تنفذوا ما عليكم.

احتقنت وجوهنا جميعًا، وقال ماجد واقفًا هناك مع الشماليين في غضبٍ غير حكيم كعادته:

- لن نفعل شيئًا، إنكم تعلنون حربًا علينا، ومن ثَمَّ تواجهون موتًا حتميًا لنا.

ضحكت ريتاج وقالت:

- أتعتقدون أننا لم نضع حسبانًا لعصيانكم؟

فأجبتُ:

- أرى أنكم تعلمتم كيف تضحكون، ومتى تفعلون مثل هذه الأشياء البشرية، ولكن دعِني أسألك سؤالًا: أتعتقدون أنتم أننا لم نضع حسبانًا لخيانتكم؟

ثم تدخل شهاب قائلًا بسخريةٍ مشيرًا بإصبعه على الثلاث جهات:

- لا أرى أي حسبانٍ هنا وضعتموه، وستنفذون مهمتكم وتقتلون التنانين، ودعني أنا أريك الحسبان الذي وضعناه نحن؛ سنثير هنا ضجةً، ضجةً عظيمة تجلب التنانين نحونا، ومن ثَمَّ انتظروا ما سنفعله حقًا، أعدك أنك ستتفاجأ يا آدم، كما لاحظتُ مفاجأتك حين رأيتَ المستنسخين.

وها الآن المفاجأة الثانية.

كانت بالفعل هناك مفاجأة كما قال شهاب تمامًا رغم أنني توقعتُ نصف ما رأيته الآن، لكن حين أراها على أرض الواقع تكون مفاجأةً حقًا.

إنها صدمة.. بل لو كان وصفًا أكبر من كلمة صدمة لكنتُ قلته.

فهناك أعدادٌ جديدة تنضم إلى صفوف الآليين، بالضبط طرفان جديدان ينضمان لهما، يأتون من ذات طرفيّ الاتجاه الجنوبي لصفوف الآليين، يتقدمون ليشغلوا مكانين شاغرين بجانبيّ الآليين بالساحة.

الطرف الأول كان أيوب ومعه المعترضون والمتهورون سكان مدينتيه الموالين له الذين لم ألمح وجودهم بالأسفل، أعدادهم كبيرة حقًا وبرفقته فارس ونصف قوة القراصنة الآخرى، وأيضًا الرجال والأشداء من جماعة المنفيين؛ من الواضح أنهم مجبرون حقًا، هذا ما كان جليًا على ملامح وجوههم.

والطرف الآخر كان بمثابة صدمة أخرى؛ إنها مريم بعباءتها

السوداء ومعها الجنوبيون سكان مدينتها!

احتل الطرفان المكانين بجانبيّ الآليين وأصبحت الساحة مليئة، الاتجاه الجنوبي الأكثر ازدحامًا الآليون ومعهم الجنوبيون والغربيون وسكان الوسطى.

والاتجاه الشمالي خالي ومعه ماجد والشماليون، والاتجاه الغربي الذي أحتله أنا والمنفيون، والاتجاه الشرقي حيث نوح والمرتدين وخلفهم البحر والكهف والتنانين.

وعلينا أن ننتظر الضجة التي قال عنها شهاب لجلب التنانين حتى أنفذ مهمتي وهي ضم التنانين لنا وليس قتلهم، لا أعرف إن كان ما فعلته سارة بالكون الآخر سيفلح هنا مع هذه التنانين أم لا؟ هل سينجح معي نفس الطريقة التي استخدمتها سارة وهو التخاطر العقلي بيني وبين التنانين؛ لأنني عبرت من خلال نفس طاقة الضوء الأزرق التي عبرت منه سارة أم لا؟ لستُ على يقينٍ من ذلك بسبب الاختلاف الوحيد في الحدثين، وهو أن سارة ذهبت عبر الضوء إلى كوكب التنانين، لكن أنا لم أفعل ذلك بل عبرته لينقلني إلى مكانٍ آخر بأرضنا هنا، الأمر رغم أنه ليس مضمونًا لكنه يستحق المخاطرة؛ ففي جميع الأحوال نحن الأضعف، والموت مصيرنا حتمًا، فلا ريب في محاولةٍ قد تفشل.

لقد توقعتُ حقًا أن يعقدوا اتفاقًا آخر مع أيوب ليضمنوا عدم مواجهته لهم، ولكن ما أندهش له حقًا هو اتفاق مريم مع أيوب؛ لقد فعلها الأخير قبل أن يفعلها وحيد، بل عقد الآليون اتفاقًا مع مريم.

ثم انتشلتني ريتاج من أفكاري حين سألتنا:

- إنكم بالتأكيد تندهشون كيف ينضم أيوب ومريم معًا في صفوفنا؟

ولذلك سأترك الدفة الآن لأيوب ويخبركم بمدى بساطتكم وضعفكم مقارنةً بنا؛ فنحن مَن نمثل المستقبل.

أحدٌ منا لا يتحدث؛ ولأننا نمثل الطرف الأضعف المهزوم بكل تأكيدٍ ظللنا جميعنا نشاهد ونراقب الأحداث ونستمع لما يقال، فتقدم أيوب متحدثًا:

- نعم، إنهم يمثلون المستقبل، لقد أبرموا معي اتفاقًا آخر ينص على مساعدتي لهم مقابل أن يتركونا وشأننا.

قلت له ضاغطًا على أسناني:

- إنهم يكذبون عليك كما فعلوا لكَ من قبل حين عقدوا اتفاقًا معي، وهم الآن يكررون معي نفس الشيء ولا ينفذون ما عليهم في كل مرة.

أجابني واثقًا:

- الأمر دائمًا يختلف معك يا آدم، أنت تمثل الخطر عليهم لسببين: أولهما أنك تقاتل من أجل أن تصعد للعالم به شمس، والثاني سبب قوتك الخارقة، بالطبع لن يتركوك تشاركهم عالمهم.

ثم تقدم أيوب بعض الخطوات ونظر حوله نحو الجهات الثلاث المحالفين لي وقال:

- انظروا حولكم إنكم الأضعف هنا، جميعكم تعلمون بداخلكم أنكم لن تنتصروا في هذه الحرب، هذه الحرب مختلفة تمامًا، لِمَ عليكم أن تقاتلوا؟

لقد أقنعوني الآليون أن أنضم إليهم وسيساعدونني مقابل هذا في مسعاي الذي كنتُ أحارب من أجله سنوات كثيرة من عمري، وهو السيطرة على كل مدن أرض الظلام، ويصبح العالم السفلي بأكمله ملكي، لا أكترث للعالم العلوي لطالما أعيش حياةً أحبها بالأسفل؛ ولهذا السبب ذهبتُ إلى مريم أولًا قبل محاولة الآليون عقد اتفاقٍ جديدٍ معي لتتلاقى أهدافنا؛ فهدفها هو نفسه هدفي، إنها لا تريد أن يصعد البشر للعالم العلوي؛ فهذا فيه خطر عليهم، وإنها تجاهد من أجل الحفاظ على الجنس البشري، وسأترك لها مدينتها منفصلةً عن بقية المدن، ثم جاء الآليون لي لأنضم لهم في مقابل ما ذكرته للتو، لكنني أخبرتهم أن مريم في صفنا وأنها لا تريد أن يصعد البشر ولن تجلب الضباب لآدم إذا أجبروكم على الصعود بمنتصف النهار كما حدث الآن، وهنا تتلاقى أهدافنا لتصبح هدفًا واحدًا لنا نحن الثلاثة.

وأنتم فقط القلة الذين لا ترون ذلك، وتحاولون الصعود للأعلى حتى لو على حساب حياتكم.

غضبتُ مما قاله، لقد غضبنا جميعًا كما أرى في وجوه الآخرين، ثم نظرتُ إلى مريم التي لم أرَ من وجهها المُغطى تحت غطاء الرأس الخاص بعباءتها سوى فمها، فتحدثتُ موجهًا حديثي لها:

- هل ستشاركين في هذه الكذبة؟ هل ستعرضين حياتنا جميعًا للخطر، لم يرتح لهم بال إلا حين يمحونا جميعًا، لستُ أنا مَن أمثل الخطر لهم بل وجود البشر بشكلٍ عام؛ لأنهم يعلمون أننا أذكى منهم، يعلمون أننا نملك الفضول، يعلمون أن الشمس خُلِقَت لأجلنا، يعلمون أننا لطالما موجودون بهذا العالم سواء بالأعلى أو الأسفل سيأتي الوقت الذي سنتوصل فيه لطريقةٍ ما لننهي به عصر الروبوت كما توصل قبلنا، ولكن لسوء الحظ وقع ذلك الكتاب في أيديهم قبلنا، والآن لم يعد الكتاب موجودًا.

نحن الأحق بالعالم العلوي إنه عالمنا، إننا لا نستحق أن نحيا بعالم بلا شمس.

نعم، أصبح السطح الآن عالم به كهف تنانين، لكن لا زال عالمنا نحن.

كانت الضحكة هذه المرة ليست صادرةً من ريتاج أو شهاب اللذيْن يراقبان المشهد، بل كانت من أيوب ساخرًا مما أحاول فعله قائلًا:

- إنها لم تعد مريم، لقد أصبحت الآن شيئًا مختلفًا، لقد راحت مريم التي تعرفها.

نظرتُ له عاقدًا حاجبيّ أحاول أن أفهم ما يقوله، ثم أشار إليها فوجّهتُ نظري نحوها ورأيتها تزيح غطاء الرأس وتكشف عن وجهها الذي أصبح بعينين سوداوين بالكامل يتملكهما الظلام والشر!!

جحظت عيناي وذُهِلتُ كما ذُهِل الجميع حين رأيناها، هنا شعرتُ حقًا بالهزيمة، لقد تأخرتُ عليها كثيرًا، كان بإمكاني أن أحاول إعادتها لكن كان اهتمامي بالسفر عبر الزمن، لم أكن أتوقع أنها تذهب بهذه السرعة.

في هذه اللحظة، لم أشعر بشيءٍ سوى الضعف، لم أشعر بذاتي حين انكسرت وقفتي الشامخة لتنحني رجلي واقعًا على ركبتيّ شاعرًا بالوهن؛ لا أرى أمامي سوى النهاية.. النهاية التي لطالما أحارب من أجل ألا نصل إليها.

شعرتُ وسمعتُ بضحكاتهم المتلذذة بضعفي فنظرتُ نحو خالي وقلتُ له في استنكارٍ:

- هل لا زلتَ تؤمن بأنني مستقبل البشر؟ هل هذا إنسان يمثل مستقبل البشر بالنسبة لكَ؟ إن ذلك حُلمٌ؛ فأحلام اليقظة خيالٌ أشبه بأكذوبةٍ نحاول أن نصدقها لنكذبها على أنفسنا كي نهرب بها من واقع نرفض الاعتراف به.

ولم يكن من خالي سوى أن ينظر إلى الأرض أسفله شاعرًا بالضعف لضعفي كما هو حال ماجد بجواره، وحال نوح في الاتجاه الآخر.

ثم حدث ما قد جعلني انتبه وانتفض من وضعي؛ سمعتُ ذلك الصوت الذي غيّر كل شيءٍ.. سمعتُ ذلك البكاء الذي جعل الأمل يعود بداخلي مرةً أخرى، إنه بكاءٌ لطفلٍ، إنه ابني بلا أدنى شكٍ كان أحدهم يحمله على ذراعيه ويعطيه لمريم بجوارها.

استغربتُ من ذلك، وتساءلتُ لماذا مع مريم؟ ثم نظرتُ إلى أيوب ففهم ما أتساءل عنه فقال لي:

- إنه الوسيلة الذي ضمنتُ به تحالف مريم معي.

نهضتُ من مكاني وقال خالي من هناك محاولًا أن يهدئ من روعي:

- سيكون بخير يا آدم.

ثم تبعه نوح قائلًا:

- علينا أن نلتزم برباطة جأشنا.

ماجد:

- لن يحدث له شيءٌ، تذكر أنه وسيلةٌ للضغط عليك لتقتل لهم التنانين.

هنا تقدمت ريتاج حازمةً حاسمةً وقالت في قوة:

- والآن، عليكَ يا آدم، أن تنفذ مهمتك؟

وحين قالت هذه الجملة رأيتُ يارا تتقدم نحو مريم التي تحمل طفلها بين ذراعيها لتأخذه منها وتعود به إلى جوار ريتاج، فتستلمه منها الأخيرة ثم تعطيه بعد ذلك لشهاب ليحمله بين ذراعيه.

ثم أعطت ريتاج الإشارة إلى مريم، يبدو أنه حان الوقت؛ فمريم على وشك فِعل ما قاله شهاب منذ دقائق وهو ما سيفعلونه لجلب التنانين إلى هنا، لقد انتهى الحديث وهذا

وقت الفِعل، هذا الوقت الذي من المفترض أن أغيّر فيه كل شيءٍ وأفعل فيه ما لم يتوقعه الجميع؛ يجب أن أجعل التنانين تقاتل في صفنا بدلًا من قتلها، لا أعرف حتى الآن كيف أفعل هذا، وإن نجحتُ فيما فعلته سارة مع ذلك التنين الضخم فكيف أجعلهم يحاربون معي وينفثون النيران بهؤلاء الآليين؟!

إنه الوقت الذي أغمضت فيه مريم عينيها وأخذت تتمتم بأشياءٍ غريبة حتى جلبت الضباب، لقد أتي من الأسفل، من الأعلى، من الأنقاض، من النيران التي خلفتها التنانين، من الأشياء المحروقة بواسطة نيران التنانين، من الهواء، من العدم لقد كسا الضباب الساحة، وساد الظلام بالمكان، وكادت الرؤية تنعدم، لقد كان كثيفًا هذه المرة، ثم سرعان ما حولته إلى عاصفةٍ، إنها تعيد ما فعلته بالأسفل مرة أخرى، كانت هذه المرة أكثر ظلامًا، أكثف ضبابًا، أشد إعصارًا، لقد تحول المكان في ثوانٍ إلى رعبٍ.. لقد خاف الجميع!

أسمع صراخ طفلي بين يدي شهاب الذي يقول:

- ستأتي التنانين الآن لهذا الحدث هنا.

وهنا وفي وسط هذا الضباب، وفي وقتٍ غير مناسب يتحدث أيوب قائلًا موجهًا كلامه للجميع:

- في الحقيقة هناك ما لم أقله حتى الآن، لقد انتظرتُ اللحظة المناسبة للبوْح به، هناك جزءٌ ناقص في الحكاية.

نظر الجميع إليه خالي وبجواره ماجد والشماليون، نوح

وبجواره عبد الله والمرتدون ونصف القراصنة، المنفيون، ريتاج وبجوارها شهاب ويارا وكل الآليين، فارس الذي بجوار أيوب ونصف القراصنة الآخر وسكان مدينة المعترضين والمتهورين، حتى مريم بدت أنها تنتبه له في وسط ما تفعله، ووحيد الذي ظهر للتو يأتي بمفرده من اتجاه الجنوب من خلف الآليين، ولا أحد يراه سواي، الجميع يستمع لما يقوله أيوب وكأن الجميع متفاجئ، الجميع لم يعلم ما سيقوله، ثم أردف أيوب:

- لطالما حاربتُ عمري كله من أجل السيطرة وفرض القوة والنفوذ، لطالما كنتُ فريسةً في حب التملك، لكن في وسط كل هذه العتمة عرفتُ بشيءٍ اسمه الحب، لقد أحببتُ شيئًا آخر، شيئًا اعتبرته في ذات يومٍ أنني قادرٌ على التملك به والسيطرة عليه، الفتاة التي أحببتها ظننتها أنها مثل كل الأشياء التي أريدها تحت يدي، لكنني كنتُ مخطئًا، لا أحد يستطيع أن يتحكم في غيره؛ فالإنسان مهما خنقت حريته إلا أنك لا تستطيع أن تقيد قلبه ومشاعره.

لقد ذهبت هذه الفتاة وبحثتُ عنها كثيرًا، لم أعد أستطيع أن أفعل ذلك استسلمتُ.. وأكملتُ طريقي.

ولكن ظهرت مرةً أخرى، ظهرت بعد كل هذه السنوات، ظهرت ولن أجعلها تذهب من يدي مرةً أخرى، يكفي أنها أنارت جزءًا ولو ضئيلًا بداخلي.

حين أتى الآليون ليعقدوا اتفاقًا معي كان هناك شيءٌ ناقص فيما قلته، لقد اتفقوا معي أن أقتل مريم بعد أن تجلب

الظلام لآدم بعد أن يقتل الأخير التنانين حتى لا يستطيع أن يستخدمها مرةً أخرى ضد الآليين، ويكون الطفل هو وسيلة الضغط لفعل ذلك، لكنني أخبرتهم أن مريم في صفنا وأنها لا تريد أن يصعد البشر للأعلى.

اندهشنا جميعًا، نظرتُ نحو مريم التي فتحت عينيها حين سمعت ما قاله أيوب، وخصيصًا عند الجزء الأخير الذي يخص قتلها.. كانت تعلم، لكن بسبب تشوش عقلها غفلت عن ذلك.

ثم استطرد أيوب وهو يتحرك من مكانه ويغير اتجاهه ويوجه كلامه لمواليه والتابعين له:

- ولذلك.. سأقف الآن ولأول مرة بجوار آدم ومَن معه، سأكون مِمَن يريدون عالم به شمس، ولن أجبر أحدًا منكم المثول لقراري أو اتباعي.

لقد كان ما فعله أيوب أكبر مفاجأة تحدث حتى الآن، إنها الصدمة التي فاقت كل العقول، إنه الحدث الذي تخطى كل الأحداث التي شاهدناها منذ صعودنا.

إنه إيوب أخطر عدوٍ لنا، وأعنف شخصٍ يقاتلنا، يقف في صفنا الآن!! يختار أن يحارب بجوارنا، ينحاز نحو الاتجاه الأقرب له.. الاتجاه الغربي.. بجواري.

بطبيعة الحال تبعه في ذلك المنفيون المجبرون، ثم تبعه في ذلك حين رأوه يفعل ما يفعله كل الموالين له، وهم سكان مدينة المعترضين والمتهورين، إنهم سيفعلون مثله

إنه قائدهم، مهما قال ومهما قرر ومهما فعل سينفذون مثلما يفعل؛ إنه الأب الروحي لهم وهو مَن عبر بهم كل هذه السنوات حتى لو كانت نيتهم شريرة لكنه يظل لهم القائد.

نظر الآليون نحو أيوب وما يفعله وكأنهم اشتاطوا غضبًا، إنهم يرونه الآن الخائن فقالت ريتاج:

- لن تفلت يا أيوب، بفعلتك هذه.. ستموتون كلكم.

ظل فارس في مكانه مع جماعته قراصنة البحر بجوار الآليين، ثم نظر إلى أخيه عبد الله في الناحية الأخرى وقال:

- لن أضع يدي في يدك مرةً أخرى، لقد تعبتُ من حياة الترحال، إن لم آخذ مدينة من مدن أرض الظلام سأكتفي أن أعيش هنا في حياة فيها التطور والتكنولوجيا.

فرد عبد الله:

- مهما طال العصفور بالخارج مسيره سيعود لعشه يا أخي، ستعلم أن ما اخترته كان الطريق الخطأ وستتمنى أن تعود لحياتك الأصلية، لكن ستعلم ذلك بعد فوات الآوان.

لقد ازدادت أعدادنا، انضم لنا أيوب، والمتهورون، والمعترضون أما مريم وكأن قوة الظلام عادت لتستحوذ مرةً أخرى على كيانها بعد أن انتبهت لما قاله أيوب؛ عادت لتغلق عينيها وتستمر في جلب الضباب وتزيد من سواد المكان، ولكن لا تزال أعدادنا أقل بكثير.

فارس بقليلٍ من القراصنة معهم، وصالح بقليلٍ من

الشماليين معهم، ومريم والجنوبيون معهم، ورغم ذلك إلا أنهم لا يزالون الأقوى والأكثر.

وبعد مرور دقائق أخرى سمعنا ذلك الصوت الذي أعتبره الصوت الأكثر رعبًا في التاريخ، الصوت الذي تقع فيه القلوب عند الأقدام، الصوت الذي يجعل الخوف يسكن بكيان البشر.. إنه الزئير.

لقد اقترب زئير التنانين حتى صار أكثر وضوحًا وأعلى حدةً، إنها تطير فوقنا تبسط أجنحتها في سمانا، وهنا قال شهاب مهدِدًا موجهًا التهديد لي:

- إن لم تفعل ما عليك يا آدم، سيموت ابنك.

وهنا وضع شهاب على رأس ابني جهازًا متطورًا يبدو وكأنه سلاحٌ به أشعة ليزر، هنا وقعتُ على ركبتيّ مرةً أخرى أشعر بالضعف مرةً أخرى أتذكر ذاك الحُلم؛ إنه الآن يتفسر أمامي بكل تفاصيله الجميع يقف لا يستطيع أن يفعل شيئًا. مريم أمه تساعد في ذلك ولا تشعر أنه ابنها، يوسف يبكي ويصرخ بين أيدي شهاب ينتظر مَن سيخلصه وينقذه من عذابه.

أشعر أني مقيدٌ الآن لا أعرف ماذا أفعل كما كنتُ في الحُلم أركض بثقل، وفوقنا التنانين يمنعها فقط من الاقتراب لنا هو عدم رؤيتهم لنا بسبب الظلام الذي فعله الضباب، لولا ذلك لكنا أجسادًا محترقة أو وليمةً لهم.

أشعر بالتقيد حقًا وقوتي حتى الآن لا أشعر بها، وكأنه يجب أن يكون هناك شيءٌ يحدث حتى أحزن من أجله، وبالطبع لن

أنتظر حتى يقتلوا ابني كي أحزن حقًا ثم أغضب؛ كي أطلق عنان قوتي للأعلى تجاه التنانين.

لطالما آمنتُ أن هذه الحرب مختلفة عن السابقة، إنها أكثر شراسةً وأشد عنفًا، إنها حربٌ نحن فيها الأضعف، وهذا لأنها ليست حربًا للانتقام، أو لتحقيق هدفٍ، أو لفرض السيطرة، أو للطمع والاستيلاء، بل لأنها حرب أفكارٍ، حرب معتقداتٍ، إننا نحارب قوة الكيان الداخلي وليس قوة الجسد الخارجية، إنها الحرب الأكثر شراسة على مر التاريخ.

ولذلك لم أفعل شيئًا سوى أن أرتجل، لقد نهضتُ من وضعي الواهن وشرعتُ أتحدث كي أبدأ حربي.. حرب الأفكار، فقلتُ في صوتٍ مليء بالحزن واليأس، أقصد به البشريون الذين يحاربوننا وعلى مقدمتهم مريم:

- ماذا تفعلون؟ أخبروني ماذا تفعلون؟

ولماذا؟ أخبروني لماذا؟

أتشنون حربًا علينا لفرض القوة والنفوذ والسلطة؟

أليس من المفترض أن نحارب من أجل البقاء؟

وحتى وإن كان من أجل البقاء ليس علينا أن نواجه بعضنا نحن البشر.

من المفترض أن نتكاتف ونتعاون لنبقى قوةً واحدةً متحدةً ليس عدوًا على وجه الأرض يقدر علينا.

إنهم يخافون من اتحادنا، يعلمون أن في اتحادنا قوة، قوة

لن تسطيع أي قوة أخرى التغلب عليها.

ليس هناك شيءٌ أقوى من اتحاد البشر معًا، إن فعلوا ذلك سيهدمون الجبال، وسيهيجون البحار، سيصعدون إلى الشمس.

وما هدفنا من الأساس سوى صعودنا إلى العالم الأحق بنا، وما غايتنا سوى حياة بعالم به شمس! ما مقصدنا سوى السلام وترك الحروب وظلام الحروب وما ينتج عن الحروب، ما مبلغنا سوى تجنب ويلات الحروب، ما نهايتنا سوى دفننا في قبورٍ حولها الورد مزروع، وليس بحرق الجثث بالجُملة!

وما نريده هو فقط ضمان مستقبل لأولادنا من بَعدنا، مستقبل يليق بحياتهم التي لم يعيشوها بعد، لا لكي نتركهم في أيدي العدو حتى يتحكم في مصيرهم، لا أحد يتحكم في مصيره سوى الله الذي يعلم ما هدفك من الحياة منذ لحظات ولادتك، أنسيتم خالقنا الذي خلق لنا هذه الأرض لكي نكون نوّابًا عنه نصنع فيها السلام؟! إن الأرض تحيا بنا، وليس نحن نحيا فيها، إنها مجرد خراب لولا وجودنا فيه بأمرٍ مِن خالقنا.

وما تفعلونه الآن ليس سوى الخراب بعينه، لماذا نعيش تحت الأنقاض؟ لماذا نكره بعضنا؟ لماذا نحارب بعضنا؟ هذا ما جعل الآليون يهزموننا منذ أكثر من مائة عامٍ، لأن يكمن ضعفنا في انقسامنا، وها نحن نكرر ذلك الآن، وهم يستغلون ذلك ضدنا، يفرقوننا لأن في ذلك انتصارًا لهم، إنها حرب أفكارٍ وأقوى سلاح فيها هو الحب.

كان الصمت سائدًا في الأجواء حتى إننا لم نعد نسمع أصوات التنانين وكأن التنانين اهتزت بداخلها لما قلته من حقيقة، حتى مريم نفسها بدت كأنها تستمع لي فرأيتها فاتحة العينين تنظر نحوي بعينيها السواداوين بالكامل وكأن الكلام أصاب كيانها المظلم الداخلي.

ثم انهرتُ تمامًا وعدتُ إلى وضعي الأسبق على ركبتي، فأخذتُ في يدي حفنةً من التراب الذي يملأ الأرض وضممتُ عليها قبضتي ورفعتُ ذراعي لأشير إليهم بيدي المملوءة بالتراب، وقلت لهم:

- إننا منه كما سنعود إليه، إنه ما نحارب من أجله، إنها أرضنا نحن، عالمنا نحن، شمسنا نحن، هذا العالم هو المخلوق الذي خلقه الله لنا، وها نحن نتركه بكل يسرٍ لما صنعناه نحن البشر لأننا نحارب بعضنا، إنهم مِن صُنع يدينا، إنهم أضعف منا، وإننا أذكى منهم.

رأيتُ نظراتهم نحوي النادمة الآسفة، بدوا لي أنهم أصبحوا يعلمون الآن حقيقة ما قلته، إنهم يسرحون في خيالهم ولما كانوا سيعودن إلى وعيهم لولا سماعهم أصوات الزئير تعود لآذانهم بعودة التنانين أعلانا.

فسرعان ما وجدتُ الشماليون القليلون التابعون لصالح دون صالح ينحازون لصفوفنا ويتحركون نحو اتجاهنا فيقفون بجوارنا بجوار أيوب الذي بجواري، ثم تبعهم في ذلك النصف الآخر لقراصنة البحر التابعين لفارس دون فارس، يتحركون نحو ذات الاتجاه بجانب الشماليين القليلين الذي بجوار أيوب

الذي بجواري، وبعد برهةٍ يتجه نحو ذات الاتجاه للجانب الآخر بجواري جميع الجنوبيين التابعين لمريم دون مريم.

يترك نوح والمرتدون ونصف القراصنة بقيادة عبد الله اتجاههم الشرقي وينحازون إلى جواري.

يترك خالي وماجد اتجاههما الشمالي وينحازون إلى جواري.

الجميع يتجه للاتجاه الغربي الذي أقف فيه الآن، الجميع بجواري وبخلفي، شعرتُ بانتصارٍ عظيمٍ وقوةٍ مذهلة لم أشعر بها من قبل رغم أعدادنا التي لا زالت أقل من أعدادهم، لقد مات منا الكثير، هم زادوا عليهم الأكثر.

وكأن الآليين يشتاطون غضبًا يرون أمام أعينهم أنهم يتركونهم، كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض ولولا أن بحوزتهم ابني وأعدادهم التي ضعف أعدادنا لكانوا هربوا من أمامنا.

بدأ الآليون يغيرون اتجاه وقفتهم بأمرٍ من ريتاج، شرعوا يتجهون نحو الاتجاه الشرقي نحو البحر بأمرٍ من ريتاج ليصبح البحر خلفهم؛ لا أعرف لماذا أمرت بذلك؟ هل لكي يكونوا بمواجهتنا وجهًا لوجه هم في الشرق ونحن في الغرب؟ لا أعرف.. فلم أعد أتساءل في نفسي لأنني رأيتُ مريم، وصالح، وفارس البشريين الوحيدين الذين يتحركون من اتجاهاتهم إلى الاتجاه الشرقي حيث الآليين.

لقد شعرنا بالاشمئزاز نحو صالح وفارس ولكن لم أفعل ذلك نحو مريم؛ لأنني أعلم أن لولا قوة الشر التي تتحكم بها ما

كانت تقف هذه الوقفة من البداية.

لقد كانوا منشغلين في ذلك، وحين بدأوا فعل ذلك كان وحيد قد اقترب خلسةً من خلفهم كما رأيته منذ وقتٍ وأصبح على مقربةٍ من مقدمتهم.

وفي اللحظة التي كان على قربٍ يجعله ملحوظًا لمرمى أبصارهم ركض نحو شهاب واختطف الطفل من يديه، ولولا أن شهاب ومَن معه لم يروا وحيد لما استطاع الأخير أن يفعل ذلك، لقد كان تحركهم والاتجاه الذي أتى منه وحيد من خلفهم هما العنصران الأساسيان المسئولان عن نجاح وحيد لفعل ذلك، فلن نغفل عن سرعتهم وقوتهم مقارنةً بنا.

ولا أعرف لماذا يعرض وحيد حياته للخطر من أجل أن ينقذ ابني، لربما تأثر بما قلته من قليلٍ كما تأثر الجميع فتحرك كيانهم ووجدانهم.

أصبح ابني بين يديّ وحيد؛ فأخذتُ نفسًا مريحًا وأطلقته في زفيرٍ مطمئنٍ، وركض وحيد نحونا، ولكن.. وأثناء ركضه نحو اتجاهنا وقبل أن يصل إلينا حدث ما هو الأسوأ منذ صعودنا إلى هنا.

لقد حدث أفجع حدثٍ لنا، لقد فعلوا حقًا ما سيجعلني أحزن، لقد فتح الجميع منا فاهه لا يصدق ما يراه، لا زلتُ أستوعب حقيقة ما شاهدته للتو، كنتُ جاحظ العينين لا أريد أصدق ما أراه أمامي.

لقد سقط وحيد مصابًا بظهره بأشعة الليزر التي أطلقتها

ريتاج عليه بإصابةٍ بالغةٍ للغاية بعد أن أخذ طفلي من بين يديّ شهاب.

رأيته وهو لا يزال يحتضن ابني بين ذراعيه يقع على ركبتيه، ثم يحاول رغم إصابته أن يقع على الأرض جاعلًا ابني أمامه ليحميه حتى لا تصيبه الطلقات الليزرية؛ فيسقط فوق ابني.

لا أعرف أن أصف شعوري الآن، إنه شعورٌ مختلطٌ بالحزن على صديقي، وبالخوف على ابني، وبعدم الصدق فلا أتقبل أن أخسر وحيد! فلم يصدر مني سوى إنني ركضتُ نحوه.. نحو وحيد؛ حتى آخذه إلينا، حتى لا تصيبه أي طلقاتٍ أخرى، حتى أحمي ابني وأجعله في الأمان، ولكن حدث شيءٌ آخر، لقد وجدتُ نفسي فجأةً أغيّر اتجاهي، ثم سقطتُ على الجانب الآخر! لقد كان ذلك من فِعل ماجد؛ فهو من دفعني على الجانب حتى يتغير اتجاه ركضي فأتعرقل وأسقط أرضًا، إنه عالم إذا كان ركض بجانبي دون أن يفعل ذلك فلِما كان يستطع أن يلاحقني بسبب سرعتي.

ثم ركض هو نحو وحيد موليًا وجهه نحوي وهو يقول:

- إن البشر في حاجة إليكَ.. إنك مستقبل أولادنا.

ثم أحاد نظره عني ونظر أمامه راكضًا نحو وحيد، وانحنى ليأخذ ابني من بين ذراعيّ وحيد غير القادر على النهوض، فانتشله وولّى نحونا بدأ في الركض في اتجاهنا، ولكن حدث أيضًا شيءٌ آخ.

وكأن المشهد يتكرر، والحزن يزداد، والألم يصبح أكثر حدةً، وعدم الرغبة في تصديق ما يحدث من حولنا.

لقد أطلقت ريتاج أيضًا طلقاتها في ظهر ماجد فأصابته إصابةً بالغةً مثل إصابة وحيد، وفعل ما فعله وحيد للتو؛ لقد بدأ ماجد يختل توازنه وقبل أن يسقط على الأرض، وأثناء سقوطه دفع بذراعيه ليلقي بابني نحونا في اتجاهنا وابني بين ذراعيه يصرخ باكيًا، لا أعرف إن كان يعي بما يحدث حوله أو يبكي لشعوره بالخوف.

لقد نهضتُ سريعًا وركضتُ نحو الاتجاه الذي يأتي منه ابني طائرًا في الهواء، وعلَيّ أن أتلقاه قبل أن يقع على الأرض أو تصيبه طلقة ليزرية من التي تطلقها تلك الحرباء، فأخذتُ أركض بكامل سرعتي نحوه.. نحو الشرق.. بمواجهة الآليين، ثم دفعتُ بجسمي لأطير في الهواء فأخيرًا تلقيته بين ذراعيّ وسقطتُ أرضًا.

لم يحدث ردٌ لهجمتهم من صفوفنا؛ لأن خالي ونوح نهياهم عن ذلك؛ تفاديًا لإصابتي، أو إصابة ابني، أو حتى إصابة ماجد قبلنا من طلقةٍ طائشةٍ من أحد الطرفين.

نهضتُ سريعًا وغيرتُ اتجاهي وركضتُ عائدًا نحو صفوفنا، ولكني رميتُ نظري خلفي فرأيتُ ريتاج توجه سلاحها نحوي وتستعد للإطلاق؛ فأحدثُ بنظري عنها لأنظر أمامي وأستأنف ركضي بكل سرعةٍ حتى أصل لصفوفي وأحمي ابني.

ولكن حدث شيءٌ لثالث مرة.

كنتُ قد قطعتُ مسافةً لأبعد عن صفوفهم، واقتربتُ نحو صفوفي لم يبعدني عنهم سوى القليل من الأمتار.

لقد أطلقت ريتاج طلقتها الثالثة نحوي، لقد سمعتُ دويها، ولكن المفاجأة أنني لم أشعر بشيءٍ ليس هناك ألم أشعر به فأتألم وأسقط، لكن شعرتُ بشيءٍ آخر خلفي وكأن هناك مَن يحميني.

بالفعل شعرتُ بظل شخصٍ ما خلفي.

نظرتُ خلفي فوجدتُ ما ذُهِلتُ لأجله، ما جعل عينيّ تتوسعان حتى كادا يخرجان من مقلتيهما.

لقد كانت مريم! إنها مَن تقف خلفي لتحميني، تنظر إلَيَّ بعينيها السوداوين المظلمتين، إنها مَن تلقت الطلقة الليزرية بدلًا مني، فقالت لي في نفسٍ متقطعٍ:

- لأجل ابني ولأجلك.

لقد وصلت إلَيَّ قبل إطلاق الأشعة؛ لأنها لم تكن قد وصلت إلى صفوفهم، لقد كانت في طريقها للآليين لكنها توقفت حين حدث ما حدث، فكانت المسافة الفاصلة بيني وبينها أقل من المسافة التي تفصلها عن صفوفهم.

حملتُ ابني على ذراعٍ ولففتُ الآخر حول خصر مريم ورفعتها قليلًا من الأرض؛ لأنها لم تستطع الركض، ثم ركضتُ أنا حاملًا الاثنين نحو صفوفنا، وكادت أن تطلق ريتاج مرةً رابعة لولا أن المرتدين الذين كانوا يحملون أسلحتهم الليزرية أطلقوا أشعتهم الليزرية نحو الآليين، كما أطلق البشر

"المعترضون والمتهورون" طلقاتهم النارية التي منحها لهم صالح بسب اتفاقه مع أيوب، وكأنهم انتظروا اللحظة التي أصل فيها لصفوفهم، تلك الطلقات التي منعت ريتاج من طلقتها الرابعة، وأسقطت العشرات من الآليين بسبب طلقاتهم التي أصابت هدفها في مقتل في رؤوسهم تمامًا فسقطوا أجسادًا هامدةً، وفي تلك الأثناء كنتُ قد عدوتُ الأمتار القليلة الباقية وبلغتُ حتى خلف صفوفي.

وهنا حدث رد فعلٍ لهجمتنا من صفوفهم، وأطلق الجميع العنان لطلقاتهم الليزرية الكثيرة جدًا، فتوالت علينا الأشعة وسقط منا العشرات موتى، فتدخل الشماليون حاملو الأسلحة النارية الذين كانوا تابعين لصالح فيما مضى، وصدرت منهم ردّ لطلقاتهم الكثيرة، وأسقطوا منهم عشراتٍ أخرى، وتبادلت إطلاق الطلقات الليزرية والنارية.

تشتت قواتنا وركضوا للاختباء حتى لا يكونوا مكشوفين أمامهم، فأخذوا الساتر والحاجب لهم الذي سيطلقون من خلفه الطلقات ليصيبوا هدفهم باتزانٍ دون أن يكونوا هدفًا سهلًا أمامهم، ثم فعل الآليون أيضًا هذا.

وأثناء ذلك أخذتُ زوجتي وابني وقصدتُ ساترًا لأتوارى عن أنظارهم خلف جدارٍ كائن بالأرض كان قريبًا.

كما أنني لاحظت الضباب ينقشع شيئًا فشيئًا حتى اختفى تمامًا، فمَن تجلبه لم تعد تفعل ذلك إنها مصابة بخلف كتفها بأشعةٍ ليزرية.

الأحداث تتسارع متتالية فلم تعطنا الوقت كي نشعر بالحزن مما حدث، فمجرد ما انقشع الظلام وأصبح النور يسود المكان، أصبحت التنانين ترى ما أسفلها، كم كبير من البشر والآليين في مرمى بصرهم جاهزون للحرق أو للالتهام.

بسبب كثرة الأعداد بالمقارنة مع ركضهم، فهناك مَن لا يزال في العلن لم يلحق أن يتوارى عن الأنظار سواء من البشر أو من الآليين.

علت التنانين من صوت زئيرها، ووجّهت أنظارها إلى الأسفل، ونحن ننظر إلى الأعلى حيث ينظر الجميع إلى السماء.. نرتعب.. نختبئ.. تنزل التنانين نحو الأرض.. نحونا.. نحو الحرق، ثم تعالت الصرخات يهرول الجميع خائفًا، ظهرت رائحة الشوي، توهجت النيران في كل مكان.

لقد نفثت التنانين نيرانها غاضبةً على الجميع، صارت هناك أجساد آلية محروقة، وأجساد بشرية مشوية.

عصفت التنانين بالجميع، ولكن وبسبب كثرة أعداد الآليين التي ضِعف أعدادنا كان تركيز التنانين عند المكان الذي يختبئون به أكثر من مكاننا.

استمتعت الخمس تنانين بما تفعله، فمنها تنانين كانت تطلق النيران الهامدة في أجوافها لتخرج من أفواهها متوهجة، وتنانين أخرى تلتهم اللحم البشري.

لقد أحرقت أعدادًا كبيرة منهم، وأعدادًا أخرى منا، لقد مات منا مَن لم يستطع أن يختبئ، ولكن لا يزال هناك الكثير في

العلن فكان الحرق لديهم أكثر شراسة.

الجميع مختبئ.. خائفون، أصبح المكان خاليًا بعد مرور أكثر من نصف ساعة من حرق التنانين لكل مَن يمشي أو يقف على الأرض، إنها قوةٌ تنينية جبَّارة، لقد صدقتُ حين وصفت التنانين أنها العدو الأكثر خطورةً من الآليين، لو لا تزال سارة موجودة بوسطنا بتنينها الضخم لكان الأمر اختلف، لكان هناك مَن يقف أمام تلك القوة أو حتى كانت تلك التنانين اتبعت كبيرهم، لكن كان يجب أن تعود إلى دينا ووالديها لتعود بهم أخرى إلى وطنها.

أتساءل كيف ستتلقى سارة ودينا ما حدث لوحيد وماجد، إنني أشعر بالحزن ولكن ما يحدث لنا الآن يجعل تفكيرنا مشتتًا فلا تعطينا التنانين وقتًا لنعبر عن حزننا.

لم يحدث كما خططتُ، لم أتحكم بالتنانين لتحارب بجانبنا، كل ما حدث كان بسرعةٍ فائقةٍ وبشكلٍ متتالٍ فلم نلاحق، لقد حدثت مفاجآت كثيرة لم تكن في الحسبان أبدًا، لا أعرف ما إذا كانت ما فعلته مريم هو الصح أم لا، لكن لو لم تفعل ذلك لكنتُ الآن ميتًا مع ابني، لقد رفضتُ أن تذهب تضحية وحيد وماجد من أجل ابنها ومن أجلي سدى، لقد عادت في الوقت المناسب وأنقذتني وأنقذت ابنها، إن إصابتها بالغة لكنها مطمئنة بعض الشيء؛ لأنها أشعة أصابت كتفها من الخلف بخلاف إصابة وحيد وماجد الخطيرة.

إنها فاقدة الوعي بجواري، وابني على حجري يبكي صارخًا، حجز خالي مخبأ بجواري وجلس، مع الشماليين والجنوبيين

النجاة. أما نوح هناك مع جنوده المرتدة يتوارى خلف جدران أخرى يبعد عنا مسافةً لا تقل عن عشرين مترًا.

أيوب في مكانٍ ثالثٍ برفقة عبد الله ومعهما من القراصنة والمتهورين والمعترضين، وجدران أخرى نصف متهدمة بسبب ما أخلفته التنانين منذ عامٍ ونصف خلفها الجميع، إننا مشتتون، لا أحد فينا يتجرأ على الخروج، لقد ساد صمتٌ رهيبٌ منا ومنهم، لا أصوات سوى توهج النيران وزئير التنانين، وهناك مَن ركض مهرولًا بعيدًا نحو تلك المباني التي تبعد عن هنا الكثير.

إنها تحلق فوقنا منتظرةً أن تنفث مرةً أخرى نيرانها علينا، نظرتُ إلى خالي بجواري بنظرةٍ حزينةٍ وعينين مغرورقتين وخائفتين فوجدته مثلي فقلتُ له:

- لماذا أنا مَن يحيا؟ لماذا الجميع يضحي من أجلي؟

أجابني خالي محاولًا أن يجعلني أهدأ:

- لقد فعلوا ما فعلوا لكي يحموا ابنك الذي سيكون مستقبل البشر من بعدك.

تنفستُ الصعداء واستنكرتُ:

- سنعيده مرةً أخرى؟

أسند رأسه على الحائط خلفه وقال:

- نعم، هناك أجيال قادمة.

أسندتُ رأسي مثله وأجبته:

- لطالما كافحتُ من أجل ذلك.. من أجل مستقبل هذه الأجيال، لا أعرف ما الذي أفعله، هناك الكثير من الأحمال على كتفي، أريد أن أنقذ زوجتي، أريد أن أذهب لآخذ وحيد وماجد من هناك، لا أريد أن أترك ابني.

ردَّ خالي في حكمة:

- لا تتعجل الأمور، لا زالت التنانين تحلق في سمانا، وأعتقد أن التنانين كانت تستهدف مَن كان يركض ويتحرك أمام بصرها، فلماذا تترك كل هذه الأعداد وتستهدف اثنين أجسامهما ساكنة؟!

تساءلتُ:

- هل تعتقد أنهما لا يزالان أحياء؟

أجاب:

- نأمل ذلك.

لم يكتمل حوارنا، لم نتمادَ في ذلك؛ فما حدث كان كافيًا لأن يقطع أي حوارٍ لا تريد أن تنهيه، فما حدث كان بمثابة أكبر المصائب التي حلّت على وجه الأرض، لقد كان ذلك الشيء الذي رأيناه في منتهى منتهى الرعب، ذلك الرعب الآتي من اتجاه الغرب.. بل كان طائرًا؟

إنها تنانين، لكنها تنانين أخرى، ليست مثل هذه.. إنها تنانين آلية!!

نعم، إنها تنانين آلية؛ جسمها من الفولاذ والحديد ولها

أجنحة مركبة في الجسم بشكلٍ معقد وعجيب ومدهش، اللعنة على التكنولوجيا! اللعنة على ما وصلنا إليه من علوم!

كيف ذلك؟! ومتى؟ إنها أربعة تنانين هل تم ذلك بالاستنساخ؟ ولكن أين المصدر لكي يستنسخوا منه؟ كل التنانين تحلق الآن فوقنا ولا يوجد تنانين أخرى.

أعلم وكم قرأتُ عن العلوم، والكيمياء الحيوية والبيولوجية، والهندسة الوراثية، ولكن لم أكن أتصور أنه يحدث هذه السرعة.

كيف نفذوا هذا الإعجاز؟! تنانين لها رأس، وذيل، وأجنحة، وأنياب، وأرجل!

لقد هاجمت التنانين الآلية التنانين الحقيقية، التحما الطرفان بدا الغضب على الطرف الأخير؛ فعلا زئيرهم ونفثوا النيران بكل قوة، لكن وبصورةٍ مدهشة تفادت التنانين الآلية تلك النيران، وما كان أكثر صدمةً لنا جميعًا وأكثر اندهاشًا أن التنانين الآلية ردت ذلك الهجوم بأشعةٍ ليزرية ضخمة قاتلة خارجة من فمها مثلما تنفث التنانين الحقيقة النيران! فوقع أحد التنانين الحقيقة وأصبح الطرفان في تكافؤ، أربعة في مواجهة أربعة، لقد نهشه الآلي في رقبته وسقط ميتًا، كيف صنعوا تلك الآلة القاتلة التي استطاعت أن تخترق جسم التنين.

أصبحت السماء في حرب تنانين، لقد كانت قوة تنينية عظيمة تحدث فوقنا؛ يتقاتل الطرفان، ينفث الطرفان النيران

والأشعة الليزرية، لقد كان الطرف الآلي أكثر شراسةً وعنفًا، الجميع هنا بالأسفل يرفع نظره إلى السماء يشاهد حرب التنانين الطاحنة بالأعلى.

أخذ الطرف الآلي يحارب بضراوةٍ حتى وقع تنينٌ آخر من التنانين الحقيقية، وأصبحت المعركة غير متكافئة؛ فضعف الطرف الحقيقي وبعد دقائق أخرى سقط تنينٌ ثالث، فأصبح تنينان حقيقان في مواجهة أربعة تنانين آلية، لقد سقطا الاثنان بواسطة الأشعة الليزرية التي تخرج من أفواههم، فكيف أصبحت تلك الأشعة الليزرية قادرة على الفتك بالتنين الحقيقي؟!! هل لأن كل تنينٍ سقط كان بسبب اجتماع اثنين من التنانين الآلية ضده ونفث الأشعة به فتتكثف بذلك الأشعة؟ لا أعرف حقًا!

إن فازت التنانين الآلية فلن يكون هناك بشر بعد الآن، سيصبحون غير مانعين ولن تكون قوة تستطيع مواجهتهم، لديهم الآن تنانين آلية تحت تصرفاتهم، سيمحوننا عن بِكْرة أبينا لن تكون هناك قوة تتغلب عليهم سوى قوة مماثلة لهم، لن تستطيع سوى تلك التنانين هزيمتهم، ولكن أصبح الأمر الآن شبه مستحيل، على التنانين الحقيقة أن تفوز بهذه المعركة.

ثم بعد دقائق أخرى حدث الأمر، لقد استطاع التنينان الباقيان أن يُسقطا تنينًا آليًا وأصبحوا اثنين ضد ثلاثة.

وأرى الآن في مشاهدة الجميع لهذه الحرب السمائية الفرصة لأختلس النظر وأذهب إلى صديقاي وحيد ماجد،

وآتي بهما إلى هنا في الأمان.

تركتُ زوجتي مريم تتكئ على الحائط وأعطيتُ ابني إلى خالي، وخرجتُ للخارج في العراء زاحفًا؛ فبذلك لن أكون ملفتًا للنظر أو جاذبًا للانتباه، وبالفعل وفي طريقي زاحفًا نحوهما سقط التنين الرابع من التنانين الحقيقة، وأصبح الأمر شبه محسوم للتنانين الآلية فلم يتبقَ سوى واحدٍ من الحقيقيين في مواجهة ثلاثة.

استأنفتُ زحفي وقاربتُ الوصول، وسمعتُ بغتةً أصواتًا صاخبةً وضوضاء آتية من الاتجاه الغربي، فنظرت خلفي نحو ذلك الاتجاه فرأيتُ مصيبةً أخرى تحل على البشر الذي يحتضر.

إنها أعدادٌ أخرى من الآليين بقيادة رامز، رامز الذي كان غائبًا عن المشهد ولم يلاحظ أحد، يبدو أن التنانين الآلية سبقتهم إلى هنا حين كان هو في طريقه يقود الغربيين الآليين.

لقد تحاصرنا بالفعل أمامنا الآليون بقيادة ريتاج وشهاب، وخلفنا بقيتهم بقيادة رامز، وأعلانا التنانين الآلية لا مفر لدينا؛ ولهذا السبب تحرك الآليون نحو الشرق لأنهم يعلمون بذلك، ولكي نتحاصر فيما بينهم حين يأتي الآخرون من الغرب خلفنا.

عمَّ الخوف على الجميع، هناك مَن يركض هنا وهناك من البشر والمرتدين فتصيبهم الطلقات الآتية من أمامنا من الشرق أو من خلفنا من الغرب، وهناك البحر سيشهد على

محونا جميعًا، لم نتصور أبدًا أن يكون هناك تنانين آلية، لم نتخيل أن يكون هناك أعداد أخرى ستأتي للمساندة.

الشيء الذي كنت أعتمد عليه أن يحول بنا إلى الانتصار يموت ببطءٍ ولم يتبقَ منه سوى تنين واحد فقط، ملعونة هي الحرب التي تجعل ذاتك تخونك في وقتٍ كنت تتخيل أنها النهاية بانتصارك، لكنها ليست إلا بدايةً لانهيارك.

بعد لحظاتٍ من الشرود في هذه الأفكار ناظرًا خلفي نحو الغرب أثناء زحفي على الأرض، وليّتُ أمامي لأكمل ما أفعله لأصل إلى ماجد ووحيد أراهما على بعد عشرين مترًا؛ فتفاجأتُ بأقدام أحدهم أمامي، فنظرتُ أعلاي ووجدته شهاب واثبًا أمامي وبجواره ريتاج ويارا؛ فنهضتُ لأقف وليس هناك شيء في خاطري سوى أنها النهاية.

بعد لحظاتٍ أشعر بوجود مَن يساندني بالجوار؛ في يميني كان خالي وفي يساري كان نوح، ثم انضم لهم فارس وصالح فبعد ذلك انضم لنا عبد الله، ويختتم رامز المشهد الذي أتى من الخلف، ولكن كانت المفاجأة أن هناك فردًا جديدًا انضم لنا.. إنه ايوب، أيوب بسيفيه اللذين صنعهما في السابق من تكنولوجيا العالم العلوي والأجهزة والأسلحة التي سرقها حين كان يصعد في الماضي؛ كي يصنع منها هذين السيفين بالقوة الليزرية التي بهما القادرة على صد الأشعة الليزرية المضادة، هذا ما عرفناه منه حين كان سجيننا، ويبدو أن أحدًا من الآليين وجده منذ عامٍ ونصف ملقى إثر الحرب ومع اتفاقه الجديد معهم استطاع أن يعيد سيفيه.

لقد كانوا ستة في مواجهة خماسيتنا، كان ينقصنا ماجد ووحيد ومريم لكُنا تغلبنا عليهم.

سألتُ ريتاج ذلك السؤال الذي حيّرني منذ رأيتُ التنانين الآلية:

- كيف فعلتم الاستنساخ أو اختراع تنانين آلية؟ مِن أين لكِ المصدر؟

ضحكت ريتاج ضحكةً شريرةً عالية وقالت:

- إنه أنتَ مَن قدم لنا ذلك المصدر على طبقٍ من فضة.

انعقد حاجبيّ متعجبًا وتساءلتُ:

- أنا؟! كيف؟! ماذا تقولين؟!

ابتسمت بفخرٍ وانتصارٍ وقالت:

- ألم تقتل تنينًا هناك بالغرب حين خرجت من سجنك؟

هنا تذكرتُ ما حدث منذ أيامٍ، فعلمتُ الإجابة لسؤالي على الفور فأردفت هي:

- لقد أخذنا السائل المخاطي لدماغه وأخذنا قلبه ودماءه وأي شيءٍ حيوي له فائدة، ومن هنا نفذنا عملية الاستنساخ. أما مِن جهة الوقت القليل الذي فعلنا ذلك هذا لأننا نملك الكثير من الأجهزة بالغرب ومنذ زمنٍ لكنها كانت مخبأة ولا أحد يعرف هنا، ببساطةٍ يا آدم لم يكن الشمال يومًا هو مركز قوتنا كما كنتم تعتقدون، إنه الغرب وليس سوى الغرب هو ركيزتنا ومصدر كل شيءٍ منذ نشأتنا.

ولو كان هناك متسع من الوقت لكانت تلك التنانين أشبه بنسبة مئة بالمئة من التنانين الحقيقة، لكانت تنانين حقيقية بالفعل مستنسخة وليست آلية. وبما أننا نرى هزيمتكم فهذا ما أنوى على فعله بالخمسة تنانين هذه، لم يتبقَ سوى واحدٍ.

اندهشتُ.. اندهشنا جميعًا مما سمعناه، كان هناك الكثير من المفاجآت الصادمة لنا، ثم استطردت:

- والآن الدور عليك لتجيب: أين ذلك التنين الضخم الذي كانت تركبه إحدى البشريات؟

اندهشتُ أيضًا من ذلك، وقلتُ لها:

- حتى هذا علمتِ به! لا تقلقي لم يعد موجودًا، لقد ذهب إلى موطنه.

هنا ابتسمت ابتسامتها الشريرة الغادرة وقالت متأهبةً:

- لتكن إذن النهاية.

وتأهب الجميع في وضعية القتال، فتأهبنا نحن رغم علمنا بهزيمتنا، إننا الأقل عددًا.

كان يارا في مواجهة خالي، فقال لها خالي:

- إنها المرة الثانية، ولكن سأتأكد من تدميرك إلى الأبد هذه المرة.

نوح في مواجهة شهاب للمرة الثانية أيضًا، فقال شهاب لنوح:

- لن تفلت هذه المرة.

عبد الله في مواجهة فارس الذي يقول له:

- إن كنتَ مَن ستمنعني من الظفر بالحياة هنا سأقتلك يا أخي.

واختار أيوب أن يواجه صالح الذي كان يقول له:

- لم أكن أتخيل أنك تنضم لمثل هؤلاء الضعفاء.

فأجابه أيوب:

- إنه الشيء الأكبر من أي شيءٍ آخر، إنه الحب الذي يحجب الحرب، ويسجن الكراهية، ويقتل الغدر، ويكبّل الخيانة.. إنه شيءٌ لم تفهمه.

وكانت ريتاج ورامز في مواجهتي فقلت لهما:

- سأنتقم لوحيد وماجد.

فقالت ريتاج:

- كنتُ أتمنى أن أواجه مريم مثل المرة السابقة لكنني لم أندم على ذلك؛ فلولا إصابتي لها لجلبت لكَ الظلام.

ثم اشتبكنا.. التحم الطرفان في معركةٍ طاحنةٍ استمرت قرابة خمس عشرة دقيقة كان الجميع في صراع.. صراع البقاء.

كل دقيقة تنقضي كانت تمر بموت بشري منا لقد قل عددنا، لقد كان الانتصار أو حتى البقاء أشبه بالمستحيل ضحايانا

كانت أكثر من ضحاياهم، كان يسقط منهم كل خمس دقائق فردًا آليًا بمعنى كل خمس بشريين يقابلهم آلي واحد فقط في الضحايا، إنها النهاية.. إنه الموت... إنه الانقراض... لقد كُتبت وبشكلٍ مؤكد النهاية البشرية؛ فبعد ساعاتٍ ولن يكن هناك بشري واحد على الكوكب، ليس هناك بصيصٌ من الأمل.

ولكن كان للقدر رأي آخر؛ فالله لن يسمح أبدًا أن يُمحى خلق يده بسبب خطأ مخلوقه الذي دائمًا وأبدًا يسعى لما هو أكثر.

إنه زئيرٌ قوي دوى في الهواء، كان زئيرًا مرعبًا حقًا يدب في قلوب الناس الخوف، إنه تنينٌ ضخمٌ يطير في السماء بجناحيه الكبيرين كان آتيًا من الشرق تعتليه سارة؛ جاء لكي ينقذ التنين الوحيد الذي كان في قبضة تنينين آليين ينهشون في لحمه محاولًا أن يفلت منهما ليضرب بدوره، أما التنين الآلي الثالث كان يراقب الجو بالأعلى، ولكن جاءه التنين الضخم بغتةً ونفث فيه نيرانه وأصبح عبارةً عن جسمٍ منصهرٍ يسقط كالمادة اللزجة على الأرض.

فانتبه التنينان الآخران فتركاه التنين الضحية ليطيرا للأعلى إلى الضخم، ولكن الأخير كان أقوى فنهش رقبة أحدهما وضرب الآخر بذيله فاختل توازنهما، ولكن سرعان ما عادا ليهاجما فنفذا ضربتهما وتمكن واحدٌ منها في قضم رقبة الضخم، ولكن بسبب ضخامته فلن يتمكن الآلي جيدًا حتى تكون قضمةً مميتة. وهنا تدخلت سارة التي على ظهر التنين الضخم ليتفادى الأشعة الليزرية التي أطلقها الآلي الآخر، ويتمكن من الإفلات من بين فكيّ الآلي الأول فقام بالهجوم

بدوره ونفث النيران في أحدهما حتى أصبح حديدًا منصهرًا مثل الذي كان قبله، ولكن في تلك الأثناء حين كان منشغلًا فيه التنين الضخم في صهر التنين الآلي مع انشغال سارة معه كان الآخر قد استعد كل الاستعداد لينفث أشعته الليزرية، وها قد يبدأ في تجهيزها من جوفه وبدأت في طريقها لفمه وقبل أن يطلقها كان قد استعاد التنين الضحية الأول الحقيقي نفسه، وجاء بغتةً وهجم على ذلك التنين ونفث النيران به حتى أصبح منصهرًا مثل غيره.

ذلك كان بصيص الأمل الذي أتى من العدم بواسطة سارة، لقد انتصرت التنانين الحقيقة على الآلية، ولكن لا يزال تبقى تلك الأعداد الغفيرة من الآليين التي لم نستطع أن ننتصر عليها.

هبط التنين الضخم وترجلت سارة منه وجاءت راكضةً نحونا لتعادل كفتيّ الميزان وتقاتل بجوارنا، لقد ذهبت إلى يارا الغاضبة التي أوشكت على قتل خالي ولكن أنقذته، واتفق الاثنان عليها فقوتها تعادل قوتهما لأنها آلية سريعة قوية، لقد كانت ريتاج التي تقاتلني غاضبة بسبب خسارتها لتنانينها وكأنها تريد أن تطلق عنان غضبها علَيّ بجوار رامز الذي يساعدها في ذلك، لقد كانا أقوى لا أستطيع أن أهزمهما، لقد تمكنا من إحداث خللٍ في توازني، وفي عزّ ضعفي كانوا هناك بعيدًا آتيين من البحر يركضون بكل إصرارٍ نحونا خلف الأعداد الغفيرة للآليين، إنها دينا وبجوارها والديها معهم مئات من أناسٍ غريبة لأول مرة أراهم، بأيديهم الرماح

والسيوف وكأنهم من أقدم الأزمنة بملابسهم الغريبة، علمتُ أنهم شعب الفيوديراتي كانوا ينزلون من تلك السفينة التي كانت عند ذلك الكهف، وهناك اثنان آخران إحداهما انثي ويبدوان أنهما من يقودان القطيع؛ فاستنتجتُ مما حكته لي سارة فيما سبق أن هذيْن الاثنيْن هما البيرتوس وآجينوس، لقد كان ذلك الشعب بمثابة امتداد لبصيص الأمل الذي ظهر من العدم، إنهم يقاتلون الآليين من الخلف.

تمكنا جميعًا من استغلال هذا الحدث بعد الحدث الأول لهزيمة تنانينهم ليكون نقطة قوة لنا.

تمكن كل من سارة وخالي من التغلب على يارا فسقطت متفككة الأجزاء، وبعدها تمكن أيوب بعد مساعدة سارة له التي تقف بجواره الآن بعد كل هذه السنين؛ فتلاقت نظراتهما في الوقت الذي كانت فيه عينا أيوب تلمعان حين رآها، من قتل صالح في ذات الوقت الذي ذهب فيه خالي لمساندة عبد الله ضد فارس ولكن ترك فهمي الأمر لعبد الله فهو الأولى بتقرير مصير أخيه، ولكن لم يكن من الأخ الكبير سوى إظهار الرحمة لأخيه الصغير.

لم يبقَ سوى شهاب، ورامز، وريتاج فجاء أيوب لمساندتي ليقاتل رامز، أما سارة، وخالي، وعبد الله ذهبوا لإسقاط أعدادٍ أخرى من الآليين، يقاتل الجميع من أجل البقاء الشماليون، والجنوبيون، والمعترضون، والمتهورون بأسلحتهم التي حاربوا بها منذ عامٍ ونصف من رماحٍ، وقطعٍ من الحديد، وأسلحة نارية تلك التي وزعها الشماليون الذين كانوا موالين

لصالح، والمرتدون بأسلحتهم الليزرية، والشعب الغريب برماحه وسيوفه، أصبح المكان عبارةً عن كتلةٍ من الدمار، والنيران، والطلقات النارية، والأشعة الليزرية المتبادلة رغم حصارنا بين الشرق والغرب إلا أننا نقاتل من أجل البقاء، ثم جاء ذلك الشعب الغريب وخفف من الضغط نحو الشرق؛ فاتجهت نصف قوتنا لمقاتلة مَن أتوا من الغرب بقيادة رامز.

كان ثلاثة في مواجهة ثلاثة؛ أيوب ضد رامز.. ونوح ضد شهاب.. وأنا ضد ريتاج. أما دينا كانت تساعد بشعبها الجديد من خلف الآليين، وأحد التنينين مصابًا فلا يستطيع أن يفعل شيئًا. أما التنين الضخم فهو في رهن الإشارة من مالكته سارة، فلم ترد سارة أن تخاطر بذلك لربما لا يفرق تنينها البشري من الآلي فيحرق الكل وخصيصًا إن قوتنا متبعثرة في وسطهم.

لم يبقَ سوى المنفيين الذين ليس لهم أسلحة، لكن كانت مهمتهم شيئًا آخر أخبرتهم به قبل صعودنا وسيفعلونه في الوقت المناسب لذلك، هذا إن حدث ما أخشاه.

رغم أنها كانت حربًا انتحارية بالنسبة لنا إلا أنها حربٌ ستُكتب في التاريخ، إنها الحرب التي قاتل فيها جميع البشر جنبًا إلى جنب، لقد كانت هذه الحرب هي الأولى منذ أكثر من مائة عامٍ يتحد فيها البشر معًا.

ثم حدث أمام عينيّ ما كان مألوفًا لي ورأيته من قبل، لقد أشهر أيوب سيفيه السابقين القصيرين المبهرين من ذراعيه وفاجأ به رامز؛ فتمكن من غرز السيفين في رأس رامز من

خلال العينين، ثم نزعهما نحو الجانبين في غرزتهما فتهشمت رأس رامز وسقط جسدًا هامدًا ولكن لم يتركه أيوب؛ فنزع أحد السيفين وغرزه عن القلب وأخرج أحد دوائره الإلكترونية ثم نزع السيف بقوةٍ حتى انفصلت رأسه تمامًا عن جسده.

كان نوح وشهاب يقاتلان بعضهما على السرعة كل منهما يحاول إثبات نفسه للآخر أنه الأقوى والأسرع، حتى تمكن أخيرًا نوح في غفلةٍ من أمر شهاب الذي رأى نهاية صديقه رامز يسقط ونزع منه جميع أسلحته، وانتشل من جسده الدائرة المسئولة عن حركته فقط دون أن يسقط جسدًا هامدًا، تلك الدائرة الموجودة في ظهره وسحب سلاحه بسرعة ووجّهه نحو شهاب، وقبل أن يضغط على السلاح استوقفته وقلت لصديقي نوح:

- دعه يشاهد نهايتهم.

ثم نظرتُ نحو ريتاج وقلت لها:

- ألم يكفيكِ هذا بعد؟! اعترفي أنكِ خاسرة في حربٍ ضد البشر للمرة الثانية.

وقبل أن تجيبني سمعتُ صرخاتٍ كم خشيتُ من سماعها، نظرتُ حولي فرأيت دينا بجانب ماجد الذي لا تزال فيه الروح، رأته للتو ساقطًا مصابًا حين اقتربت نحونا، وحين أخرجت دينا هذه الصرخة فجعلت من سارة أن تنتبه لتنظر نحو صديقتها بجوار ماجد المصاب، ثم ألقت بنظرها بعيدًا

قليلًا فرأت وحيد في نفس وضع ماجد مصابًا ساقطًا لا يستطيع أن يتحرك، ركضت نحوه بكل خوفٍ من فقدانه، لقد توقفتُ عن مقاتلة ريتاج التي تقف هي الأخرى تشاهد المشهد، شعرتُ بما يكمن بداخل أختي إنها تشعر بالخوف من فقدانها له قبل أن تعبر عن حبها الذي لطالما كتمته كل هذه السنين، لقد عادت من غربتها وأخيرًا كان هذا الوقت المناسب الذي من المفترض أن تصحح ما صدر منها تجاهه، ولكنه ملقى أرضًا بين الحياة والموت.

تركتُ ريتاج واقتربتُ نحوهما، دنوت من الأرض وجلستُ أشاهد سارة مع وحيد ودينا مع ماجد ليس هناك ظلام، إذن أريد أن أحزن، أريد أن أعبر عن مدى ألمي.

قالت دينا لماجد وهي ممسكةٌ بيده في حزنٍ مفجع:

- لا تتركني في وقتٍ عدتُ فيه لأجلك.

ماجد ناظرًا لها غير قادرٍ على تحريك شفتيه، فبالكاد قال لها:

- أحبك.

فضم يده على يدها ثم فارق الحياة.

وعلى جانب آخر، قالت سارة لوحيد:

- لقد أتى الوقت الذي سأخبرك بما أردته.. فابقَ من أجلي.

لا يستطيع أن يجيبها فأردفت:

- أحبك يا وحيد.

نزل الدمع من عينيه وبالكاد أجابها:

- أعرف ذلك يا حبيبتي.

ثم أَغلِقَت عيناه والدمع يسيل على خديه، لقد كانت هذه آخر دمعة له، لقد مات وحيد.. مات ماجد.. مات الصديقان اللذان لم أثق في أحدٍ آخر مثلما فعلتُ معهما، وكأن روحهما كانتا تتعلقان بحبيباتهما حتى يراناهما، ثم غادرت روحهما بعد تحقيق أمنتيهما، فقالت دينا محدثة حبيبها الذي فارق الحياة بكل حزنٍ يدب بداخلها:

- لماذا غادرتَ دون أن تكمل قصة حبنا؟ أردتَ أن تغلق على حبنا حاويةً كبيرةً تكفيه.. والآن قد ذهبتَ!

تبعتها سارة ناظرةً نحوي في عينين دامعتين وقالت في حزنٍ يهز كيانها:

- لقد رحل دون أن أريح قلبه، لو كنت أعرف أنه سيفارقني لكنت أحببته فوق الحب حبًا.

لقد كانا ذراعيّ الاثنين.. عينيّ الاثنتين.. أذنيّ الاثنتين.. لقد كانا الدعم لي.. لقد كانا القوة الحقيقية التي أملكها.

صرخاتهما تتعالى في الأرجاء، بكاؤهما يهز القلب، يشاهد الجميع المشهد، يتألم الجميع لألمهما، تتلذذ ريتاج بما فعلته. أما أنا أحزن في صمتٍ قاتلٍ مخيفٍ يجعلني أسجن فاجعتي وحرقتي بداخلي فتنهار نفسي من الداخل، لا أستطيع أن أفعل شيئًا ولا حتى الحراك، إنني جاحظ العينين رافضًا

تصديق موت صديقاي، رغم أنها كانت حربًا من أجل البقاء لكنها أيضًا حربٌ من أجل الموت، من أجل الفقدان.. فقدان وحيد وماجد حياتهما، وفقداننا نحن لهما، فقدان العالم الذي سنعيشه لهما. ملعونٌ هو الفراق الذي يجعلنا نخسر كل ما كان بيننا ولم يتبقَ لنا سوى الذكريات التي لن تفعل شيئًا سوى النهش بكياننا، ورغم ذلك إلا أننا نتلذذ بها لمجرد أنها تذكرنا بهم، وهنا نعزف على أوتار الذكريات.

ثم أتى الصوت الذي قطع كل شيءٍ بداخلي، فنهضتُ ووقفتُ واثبًا أنظر لها مكشّرًا عن أنيابي مليئًا بالحزن القاسي إلى أبعد حدٍ، إنها ريتاج تقول:

- اشهدوا أنتم على هزيمتكم بل موتكم، انظروا حولكم أعدادنا غفيرة لن تنتهي.

لقد قتلتم يارا لكن انظروا لا تغفلوا أن هناك الكثير من يارا، إنكم لن تقتلوا يارًا أبدًا أو غيرها إننا لن ننتهي، إننا..

ثم حدث ما قطع كلامها؛ رأيتها جاحظة العينين لا تصدق ما يحدث، أو أنها كانت تخشى من حدوث هذا. نظرتُ حولي رأيتُ ضوء الشمس يتوارى، والظلام يُظهر مخالبه، والضباب يتربص لنا كشبح؛ فأصبحنا نغوص في العتمة السوداء.

لقد كانت واقفةً خلفي واثبةً واثقةً شامخةً بعباءتها السوداء باسطةً ذراعيها مغلقةً العينين تتمتم بشفتيها؛ لقد جلبت مريم الظلام، ثم تحكمت في الضباب فأخرجت منه ألسنةً استهدفت ريتاج فتسربت تلك الألسنة الضبابية السوداء

في عينيها فلم ترَ ريتاج شيئًا، ثم لساناً آخر ضبابيًا استهدف قلبها، ثم ثالث استهدف عنقها من الخلف، ثم رابع في رأسها.

لقد تحكمت مريم في الضباب لحد أنها كونت عاصفةً دورانية شديدة الإعصار رفعت بها ريتاج من الأرض لتصبح معلقةً بين السماء والأرض ثم غيّرت اتجاهها لتجعلها تنظر إلى الشرق إلى جنودها الغفيرة، ثم قالت مريم:

- سأنتصر عليكِ هذه المرة.

هذا لم يمنع حزني لم يحجب كم الألم الذي بداخلي، ثم ضغطتُ على أسناني بقوةٍ كأنني أكتم ما بداخلي، لقد شعرتُ بالغضب حقًا لقد أتت اللحظة؛ بسطت ذراعيّ ضامًا على قبضتاي بكل قوتي، كنتُ ناظرًا نحو الشرق حيث الأعداد الآلية الكبيرة المتكررة، اهتزت الأرض حقًا شعر الجميع بالارتجاج، توارى مَن يعلم ما سيحدث الآن خلفي، وهنا أتت مهمة المنفيين الموكلة إليهم وهي أن يترقبوني فحين يرون الظلام أثناء حزني وغضبي وعلى وشك أن أصرخ بغضبٍ فعليهم أن ينبهوا كل بشري ومرتد ليتوارى من أمامي، فكان عليهم أن ينبهوهم ويجعلوهم خلفي حتى التنينان شعرا بالخوف فطارا في الهواء بعيدًا.

لا أعرف أن أعبر عن غضبي الحزين أو حزني الغاضب سوى بطريقةٍ واحدة؛ لقد أطلقتُ تلك الصرخة المكتومة لتصبح صاخبةً عاليةً مرعبةً فتحولت تلك الصرخة إلى إعصارٍ قوي جدًا إلى حد الرعب، فعصف ذلك الإعصار بكل الأعداد الغفيرة الآلية، وهنا تنظر ريتاج وهي معلقة بالضباب إلى تدمير

الآليين أشد تدميرًا.. إلى هلاك جنسها.. تنظر إلى نهايتهم.. لقد تهشم فولاذهم.. تكسرت أجسادهم.. تفككت أجزاءهم.

وبعد دقائق، توقفتُ فجأةً من صرختي المدمرة حين علمتُ أن أعدادًا غفيرة حقًا تم تدميرها، لم يبقَ سوى القليل مِمَن نجا من ذلك الإعصار بالإضافة إلى الأعداد الموجودة في الاتجاه الغربي الذين أتوا بقيادة رامز يشاهدون الآن نهاية زملائهم، كان مجمل عددهم جميعًا لا يتعدى العشرة آلاف آلي بما فيهم شهاب الذي أبقيته.

ثم نظرتُ غاضبًا نحو ريتاج المعلقة بين السماء والأرض، وقلت لها:

- إنها نهايتكم، إنها بدايتنا، سنحارب من أجل البقاء، سنبقى رغم عن أنف أعدائنا.

ثم قررت مريم أن تنهي هذه الجولة بطريقتها، فتحكمت في الضباب كعادتها وكأنها أمرته أن يفعل ذلك، لقد فتك الضباب بها فتكًا فتناثرت أجزاؤها إلى قطعٍ معدنية صغيرة.

هدأت الأجواء وتوارى الظلام وهرب الضباب لينكشف الضوء فظهرت الشمس، وأصبحنا أخيرًا بعد حربين عنيفتين خسرنا فيهما الكثير بعالم به شمس.

***

في مشهدٍ مؤثرٍ حزينٍ ندفن موتانا، ندفن وحيد وماجد ليكونا أول بشريين لهما قبران يدفنان فيهما بعالمهما الأصلي الذي حاربا من أجله وماتا من أجله.

تبكي سارة ودينا بكاءً مريرًا قاسيًا كاد أن يقتلع قلبيهما من صدريهما، تقف كل منهما على قبر حبيبها.

لا يقل حزني عن حزنهما، لكني فخورٌ كل الفخر بهما إنهما شهيدا الوطن، وضحيتا الصداقة، وحاميا البشر.

* * *

ختـــــام 1

بعد مرور شهر

كُنا نحلق فوق ظهر التنين الضخم قاصدين ذلك الكهف، كنت خلفها أتغازل بجمالها فيلطمني شعرها المنسدل الذي يرفرف من شدة الهواء.

وصلنا إلى الكهف ودلفنا بداخله لنطمئن على التنين الآخر الذي لا يزال يتعافى من إصابته من هجوم ثلاثة تنانين آلية، فلن يكون مثل قوته السابقة أبدًا حتى إن تعافى تمامًا.

دخلنا إلى داخل الممرات التي يوجد بها التنانين، فكانت المفاجأة بانتظارنا أو حدثت المفاجأة التي كُنا نحن ننتظرها، لقد أخذت البيضات تفقس منذ أسبوعين ولكن اليوم فقست آخر البيضات فقست جميعها، أصبح الآن لدينا اثنان وعشرون تنينًا صغيرًا بالإضافة إلى الضخم والمصاب؛ فبذلك يملك عالمنا أربعة وعشرين تنينًا. ثم تحدثتُ قائلًا:

- سنربيهم هنا، ونتحكم بهم ونجعلهم تحت إمرتنا، سيكبرون ويصيرون وحوشًا تحت تحكمنا، سنحارب بهم أي عدو يفكر في انقراضنا.

لمعت عيناها ونظرت في فخرٍ وابتسمت، فأردفتُ:

- سأسمي ذلك المكان "كهف التنانين".

لقد غادرنا الكهف من الداخل لنقصد خارجه فنتأمل في ما حولنا من مناظر خلّابة طبيعية هادئة يحيط بها البحر من كل

جهةٍ، ثم انتبهتُ أنها تنظر نحوي فبادلتها ذلك وسألتها:

- ماذا؟

أجابتني:

- لقد جعلتني أعود.

ابتسمتُ بامتنانٍ وضممتُ يدي على يدها وقلت لها:

- لم أفعل شيئًا، أنتِ مَن تحكمتِ في قواكِ وانتصرتِ على قوة الشر التي كانت بداخلك.

قالت لي في إلحاحٍ:

- لكنكَ كنتَ السبب في عودة الجميع، لقد جعلتَ كل البشر يتحد معًا حتى أيوب الذي لطالما كان عدونا الأشرس على الإطلاق تأثر بكلامك حينها وجعلته ينضم لكَ. ولا أنكر أنني تأثرتُ بكلامك أنا أيضًا وجعلت كياني يهتز بالداخل، وحين رأيتُ وحيد وماجد يضحيان بروحهما في سبيل حماية ابني وحمايتك فكان ذلك بمثابة الشرارة الأخيرة التي أيقظتني وجعلتني أنتصر على عدوي الذي كان يتملكني، كما أنني لم أغفل عن أنهم كانوا ينوون قتلي.

قلت لها في عمقٍ بنظرةٍ ثاقبة:

- لطالما آمنتُ بأن قوتنا في اتحادنا، ولن يقدر أي عدو على الانتصار على قوة متحدة كأنها كيان واحد مهما كان خطورته.

وعن أيوب قد يكون هناك سبب آخر جعله ينضم لنا، أما

عنكِ.. إنني آمل ألا يعود عدوك بداخلك مرةً أخرى.

قالت في ثقةٍ:

- لن يعود، وإن عادت تلك القوة الظلامية سأستطيع أن أكبحها وأتحكم بها وأجعلها طوع أمري، لكَ وعدي.

نظرتُ لها في ابتسامةٍ رقيقةٍ ثم ضممتها إلى أحضاني وقلتُ لها:

- أريد أن أجعل لابني يوسف أختًا، أريد أن أنجب منكِ بنتًا وأسميها "وعد"؛ لتذكرنا بهذا الوعد التي قطعته للتو، ذلك سيكون وسيلةً قويةً لكِ لتنتصري على قوة الشر.

رفعت نظري نحوي بابتسامةٍ وقالت:

- سنفعل ذلك، ولكن علينا الآن أن نذهب إليهم، إنهم ينتظروننا، ستبدأ المراسم.

لم أجبها بل استأنفتُ النظر فيما أمامي من فراغٍ شاسع طويل المدى يخلقه البحر، فسألتني:

- ماذا هناك؟

أجبتها:

- لا زلتُ أتساءل عمَّا يوجد خلف هذا البحر؟ هل هناك عوالم أخرى؟

***

كُنا على ظهر التنين الذي يطير بنا في الهواء فسألتني بغتةً:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

أجبتها في نظرةٍ ثاقبةٍ وراءها الكثير وأجبتها:

- سأبحث عن ذلك الكائن الفضائي الذي كان سببًا في قوتي الخارقة.

عدنا إلى البر.. إلي تلك الساحة التي شهدت الحربين، لقد تجمع الجميع، الكل في انتظاري، أصبح عالمنا به الكثير من الأجناس، والألوان، والأديان كل نوعٍ على حدة.

كان هناك البشر وفي مقدمتهم أيوب الذي أصبح عددهم الآن لا يتخطى المائتين ألف بشري، وعلى جانب آخر المرتدين بقيادة نوح وكان عددهم حوالي عشرة آلاف مرتد، وأيضًا هناك الآليون المتبقون وفي مقدمتهم شهاب الذي أصلحنا فيه ما أتلفناه فقل عددهم إلى عشرة ألف أخرى، وقراصنة البحر متحدون بقيادة شخص واحد فقط لأول مرة في تاريخهم إنه عبد الله وخلفة فارس مستسلمًا للأمور، كان عددهم قرابة الخمسة آلاف، وأخيرًا ذلك العدد القليل من الشعب الغريب الذي قادته دينا من عالمٍ آخر الذي لم يتخطَ الخمسمائة شخصٍ.

كانت هذه الأعداد بعد الخسارة التي تعرض لها الجميع إثر الحربين، الجميع ينظر نحوي في انتظار ما سأقوله إنها المراسم، كان بجواري خالي ودينا، وعلى مقربة أكثر مني كانت سارة على يساري ومريم على يميني، لقد كانت سارة ودينا حزينتيْن على فراق وحيد وماجد.

ثم صعدتُ على صخرةٍ ما أتأمل قليلًا وأفكر مليًا، ثم أخيرًا قررتُ أن أبدأ في الحديث:

- أعلم أنها المراسم صدقوني لم أكن أريدها، لم أكن أريد أن أكون ملكًا عليكم لكنكم مَن أخترتموني، إنها مسئولية كبيرة تضعونها فوق أكتافي علَيَّ أن أقود بكم الدفة وأحملكم على عاتقي وأجعلكم كيانًا واحدًا.

لن يكون هناك شماليون، أو جنوبيون، أو معترضون، أو متهورون بعد الآن هناك سيكون البشر فقط كقوةٍ واحدةٍ في كيانٍ واحدٍ، وسيكون النائب عني خالي فهمي، وسيكون أيوب قائد جيوشنا.

أما المرتدون فسيبقون على حالهم إنني أثق بصديقي نوح الذي لطالما كان بمثابة الأب الروحي لهم وقائدهم، وسيتم ضم كل الآليين تحت إمرته.

أما القراصنة فلهم حرية الاختيار بين عودتهم للبحار أو البقاء هنا معًا تحت قيادة عبد الله.

وأخيرًا شعب الفيوديراتي الذي لم يكفِ شكرنا لهم لطالما حيينا، إن كنتم تريدون العودة إلى عالمكم فهذه حريتكم، ولكن أن اخترتم البقاء فأنتم مرحبٌ بكم في عالمنا، ولكن ستكونون تحت قيادة دينا التي قادتكم إلى هنا في سبيل الانتصار.

وأخيرًا زوجتي هي الملكة، ومساعدي ومستشاري هي سارة، وسلاحنا الأقوى سيكون التنانين التي سنروضها

وتكون تحت أمرنا.

سنحاول معًا ترميم العالم الذي دمرته الحروب، سنحيا لإعادة بناء هذا العالم معًا سنبدأ من جديد، سنشرع في تأسيس عالم نعيش فيه معًا.. عالم به شمس.

***

ختـــــام 2

بعد مرور ثلاث سنوات

بعد مرور ثلاثة أعوام من الترميم والتصليح وإعادة البناء في كل ما هو تدمر وصار خرابًا، يساعدنا في ذلك الآليون بتكنولوجيتهم المتبقية في الغرب وصرنا نعمل معًا، وبجوارنا القراصنة الذين اختاروا البقاء جميعًا هنا مع البقية القليلة من شعب الفيوديراتي الذين آثروا عالمنا على عالمهم بخلاف مَن رحلوا منهم، في عالم به شمس نحيا ونتعب ونشقى فيه دون كلل أو شكوى وكأن حماسنا لن يضعف لحظةً واحدةً، نستغل في هذا الاستمتاع بكل ضوء شمس ينزل على أبداننا فنشعر بالحيوية والنشاط.

حققت مريم لي الوعد فصار بيننا واقعًا ملموسًا ومعاشًا؛ لقد أنجبت ابنتي وعد التي عمرها لا يتجاوز العام الواحد في حين أخيها يوسف تجاوز الثلاثة أعوام.

كبرت التنانين بجوارنا كانت تسمع لنا ولكنها كانت تحب سارة أكثر من أي إنسانٍ آخر؛ بسبب تنينها الكبير الذي أصبح بمثابة الأب الروحي لبقية التنانين التي في مقبل شبابها، أحيانًا كانت تساعدنا في نقل الأشياء الثقيلة في أقل وقتٍ ومجهود.

وكنا قد أخطأنا حين شعرنا بأننا انتهينا من كل هذا العناء، وأن أصبح الأمان هو ما يحيطنا بأجنحته ولكن حدثَ ما هو صادمٌ حقًا؛ لقد كان حدثًا موجعًا حقًا بعد عناء ثلاث سنوات،

نظر الجميع إلى مريم حيث كُنا جميعًا عند البحر نحتفل بما وصلنا له من إنجازٍ لكنها قالت:

- ليس أنا من يفعل ذلك، إنه رمادي ليس أسود.

فما يحدث الآن كان في قمة قمة الرعب، لم يكن ذلك من فعل بشر أو أي أحد مِن هذا العالم.

فما يحدث الآن هو من فعل الطبيعة.

وكأنه جاء دور الطبيعة لترفض أن نعيش بعالم به شمس.

خاف الجميع.. ارتعب الجميع.. يرفض الجميع ما يحدث.. يبلبل الجميع بقوله:

- مستحيل.

- ليس الآن.

- ليس بعدما صعدنا أخيرًا.

فما يحدث الآن أشبه بالمستحيل حقًا.

كيف؟ ولماذا؟

إنه ضبابٌ كثيفٌ رمادي يسود جميع الأرجاء.. ضبابٌ مخيفٌ جدًا.. ضبابٌ يحول بنا إلى الظلمة.

لقد تورات الشمس، حجب هذا الضباب الرمادي ضوء الشمس عنَا، أصبح الظلام هو عالمنا الجديد. كست العتمة عالمنا، فبعدما غادرنا العالم السفلي مكافحين من أجل الصعود لنحيا بعالمٍ به شمس وأصبحنا بالعالم العلوي الأحق

بنا، الشمس هي التي اختفت الجميع يترقب في خوفٍ، فقلت في رعبٍ كبيرٍ:

- يبدو أن الطبيعة ترفض أن نعيش بعالم به شمس.

يبدو أن لا بد وأن نعيش بعالم بلا شمس.

ثم لاح من بعيدٍ وسط هذه العاصفة وبين هذا الظلام الرمادي ما هو أكثر صدمةً ورعبًا، يبدو أنهم أشخاصٌ بهيئة غريبة، لقد جحظت عيناي.. فمن نراهم الآن أحدٌ لا يعلم بهم سواي.. يقتربون نحونا.

لقد كانوا ثلاثة كائنات يتجسدون هنا أمام عيني على أرض الواقع، يبدون في هيئتهم ومظهرهم مثل ذاك الكائن الغريب المرعب الذي رأيته بحُلمي.

* * *

يُتبع

سيكون القادم ضبابًا